

وقف لله تعالى  
ولا يجوز بيعه

سلسلة  
وقفات تربوية  
في ضوء القرآن الكريم

المجلد العشرون

السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ  
وَالْوَقَائِدِ التَّرْبَوِيَّةِ  
فِي ضَوْءِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ

عبد العزيز بن ناصر المجاليل

# حقوق الطب مع محفوظة للمؤلف

إِلَّا لَمَنْ أَرَادَ طَبْعَهُ وَتَوَزَّيْعَهُ

مَجَّانًا

بَعْدَ أَخْذِ الْإِذْنِ مِنَ الْمُؤَلِّفِ

الطبعة الأولى

١٤٣٩ هـ

رقم الإيداع: ٢٠١٧/١٧٥٠٣

ISBN: 798-977-430-226-8

القسطاوي

للطباعة والتجليد

٠٠٢٠١٠١٩٩٩٥٥٥

وقف لله تعالى  
ولا يجوز بيعه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة وتمهيد

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

﴿الله﴾ أما بعد:

فإن أعظم نعمة أنعم الله بها على عباده أن بعث فيهم رسوله ﷺ، ليبلغهم هذا القرآن العظيم، الذي كله نور وهدى وبركة، لمن آمن به وأسلم له، واتبع ما فيه من الأوامر والنواهي، التي شرعها الله ﷻ، فوحد الله ﷻ التوحيد الذي يليق بجلاله وعظمته سبحانه، وتخلص من الشرك وتبرأ منه ومن أهله، واستقام على هذا الأمر: علماً وعملاً وحالاً ودعوة وجهاداً،

وحرى بكتاب هذا شأنه وعظيم بركته وفضله أن يعرض عليه بالنواجذ، وأن يسعد ويفرح به الفرح الذي ليس فوقه فرح.

قال الله ﷻ: ﴿تَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨].

وحرى بنعمة هذه عظمتها أن نشكر الله ﷻ عليها آناء الليل وأطراف النهار، وكم نحن في ضرورة عظيمة وفاقه شديدة إلى الاستضاءة بنور القرآن، والرجوع إليه في علاج أمراضنا، وتفسير أحداثنا، ومواجهة أعدائنا، وكشف ما بنا من المصائب والملومات، ففيه المخرج والبركة والرحمة (١).

قال الله ﷻ: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وانطلاقاً من هذه الآية الوارد ذكرها في سورة الأنعام أدخل في الحديث عن هذه السورة الكريمة وما فيها من النور والهدى والرحمة، وما تضمنته

(١) وعجباً لقوم عندهم كتاب الله ﷻ كيف يضلون، ولكن كما قال الشاعر:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

من السنن الإلهية والتوجيهات الربانية؛ حيث اخترتها لتكون موضوعاً لهذه الرسالة الجديدة من رسائل «الوقفات التربوية في ضوء القرآن الكريم».

ويحسن في هذه المقدمة أن أذكر بعض خصائص هذه السورة العظيمة التي دفعني - بفضل الله عَزَّوَجَلَّ وتوفيق - إلى الاهتمام بشأنها وتدبر آياتها، وما تضمنته من الوصايا والسنن الإلهية، والتوجيهات الربانية الكريمة، التي نحن في أمس الحاجة إلى الدراية بها، والسير في ضوئها، ولاسيما في خضم الفتن المتلاطمة التي نعيشها اليوم.

ومن هذه الخصائص:

أولاً: سورة الأنعام من السور الطوال في القرآن الكريم، وهي السادسة في ترتيب القرآن؛ حيث جاء قبلها سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران والنساء والمائدة، وهي أول سورة نزلت من السور الطوال في مكة، حيث نزل ما قبلها من السور الطوال في المدينة.

قال العوفي وعكرمة وعطاء وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «نزلت سورة الأنعام بمكة»<sup>(١)</sup>.

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٣٧) ت: سامي السلامة.

واستفتحها الله عَبَّرَ بِكَ بالثناء على نفسه بقوله سبحانه:  
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

ومن لطائف القرآن أنه في أول كل ربع من القرآن تأتي سورة تستفتح بقوله سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، ففي الربع الأول جاءت سورة الفاتحة، وفي الربع الثاني سورة الأنعام، وفي الربع الثالث سورة الكهف، وفي الربع الرابع سورة سبأ وفاطر.

ثانياً: نزلت هذه السورة جملة واحدة ليلاً على طولها وعظمة ما تضمنته من العقائد والحجج والسنن والبراهين، وقد جمعها الله عَبَّرَ بِكَ لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قلبه، وأملاها على كُتَّاب الوحي مرة واحدة، وقد شيع نزولها موكب عظيم من الملائكة لهم زَجَل من التسييح.

• فقد روى الطبراني في «المعجم الكبير» بسنده عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة، حولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسييح»<sup>(١)</sup>.

(١) «المعجم الكبير» (١٢/٢١٥).



• وروى الترمذي والبيهقي عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «من سره أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ الآيات الثلاث» [الأنعام: ١٥١] (١).

• وروى الحاكم في «مستدركه» عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: لما أنزلت سورة الأنعام سبح رسول الله ﷺ ثم قال: «لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الأفق» (٢)، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم.

يعلق سيد قطب رحمه الله تعالى على هذه الأحاديث والآثار في مقدمة سورة الأنعام، فيقول: «هذا الموكب، وهذا الارتجاج، واضح ظلهما في السورة!.. إنها هي ذاتها موكب، موكب ترتج له النفس، ويرتج له الكون.. إنها زحمة من المواقف والمشاهد والموحيات والإيقاعات!.. وهي - كما قلنا من قبل - تشبه في سياقها المتدافع بهذه المشاهد والمواقف والموحيات

(١) الترمذي (٣٠٧٠)، وقال: حسن غريب، وضعف سنده الشيخ الألباني.

(٢) «مستدرك الحاكم» (٢/٣١٤).

والإيقاعات مجرى النهر المتدافع بالأمواج المتلاحقة، ما تكاد  
الموجة تصل إلى قرارها حتى تبدو الموجة التالية ملاحقة لها،  
ومتشابكة معها، في المجرى المتصل المتدفق!

والموضوع الرئيسي الذي تعالجه متصل، فلا يمكن تجزئة  
السورة إلى مقاطع، كل مقطع يعالج جانباً من الموضوع.. إنما  
هي موجات.. وكل موجة تتفق مع التي قبلها وتكملها»<sup>(١)</sup>.

ثالثاً: ما روي عن بعض الصحابة رضي الله عنهم في فضلها والحث على قراءتها  
وتدبرها.

- فقد روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: «من قرأ سورة الأنعام فقد انتهى  
في رضا ربه»<sup>(٢)</sup>.
- وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «الأنعام من نجائب  
القرآن»<sup>(٣)</sup>.
- وفي «صحيح البخاري» عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «إذا سرك أن

(١) «في ظلال القرآن» (٢/١٠٢٢).

(٢) «مستدرك الحاكم» (٢/٣١٤).

(٣) «المحرر الوجيز» لابن عطية (٢/٣١١).

تعلم جهل العرب فاقراً ما فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام:  
﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا  
كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠] (١).

رابعاً: ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة من تفاصيل العقيدة  
وأركان الإيمان وأصوله، وإقامة الحججة على الكفار  
والمشركين، وتسفيه تصوراتهم وعقائدهم الباطلة ببراهين  
وحجج دامغة.

ففيها تقرير توحيد الربوبية والألوهية، وإبطال عقائد المشركين،  
ومحاجتهم في ذلك بالعقل والسمع، وفيها تقرير الإيمان  
بالملائكة والرسول، وإثبات رسالة نبينا محمد ﷺ، والإيمان  
بكتابه سبحانه المنزل على رسوله ﷺ، وفيها إثبات اليوم الآخر  
والإيمان بالقدر.

فكل أركان الإيمان تحدثت عنه هذه السورة بصورة مفصلة  
ونزلت جملة واحدة في مكة، لا تدرج فيها كما يكون في  
الأحكام؛ لأن أصول الإيمان والعقيدة لا تقبل التدرج ولا

(١) «صحيح البخاري» (٣٥٢٤).

التأجيل، وقد سمى بعض العلماء هذه السورة إضافة إلى اسمها (الأنعام) سورة (الحجة)، لإقامة الحججة على صحة التوحيد وبطلان الشرك.

يقول الشيخ البقاعي رحمه الله تعالى في «نظم الدرر»: «وهي - أي الأنعام - كلها في حجاج المشركين وغيرهم من المبتدعة والقدرية وأهل الملل الزائغة، وعليها مبنى أصول الدين لاشتغالها على التوحيد والعدل والنبوة والمعاد، وإبطال مذاهب الملحدين»<sup>(١)</sup>.

وهنا كلام نفيس للأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى أنقله - مختصراً - من مقدمة سورة الأنعام، حيث يقول: «هذه السورة مكية.. من القرآن المكي.. القرآن الذي ظل ينزل على رسوله ﷺ ثلاثة عشر عاماً كاملة، يحدثه فيها عن قضية واحدة، قضية واحدة لا تتغير، ولكن طريقة عرضها لا تكاد تتكرر، ذلك أن الأسلوب القرآني يدعها في كل عرض جديدة، حتى وكأنما يطررها للمرة الأولى! لقد كان يعالج القضية الأولى، والقضية

(١) «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢/٧).

الكبرى، والقضية الأساسية، في هذا الدين الجديد، (قضية العقيدة)، ممثلة في قاعدتها الرئيسية.. الألوهية والعبودية، وما بينهما من علاقة.

لقد كان يخاطب بهذه القضية (الإنسان) الإنسان بما أنه إنسان.. وفي هذا المجال يستوي الإنسان العربي في ذلك الزمان والإنسان العربي في كل زمان، كما يستوي الإنسان العربي وكل إنسان في ذلك الزمان وفي كل زمان!

إنها قضية «الإنسان» التي لا تتغير، لأنها قضية وجوده في هذا الكون وقضية مصيره، قضية علاقته بهذا الكون وبهؤلاء الأحياء، وقضية علاقته بخالق هذا الكون وخالق هذه الأحياء.. وهي قضية لا تتغير، لأنها قضية الوجود والإنسان!

لقد كان هذا القرآن المكي يفسر للإنسان سر وجوده ووجود هذا الكون من حوله.. كان يقول له: من هو؟ ومن أين جاء؟ وكيف جاء؟ ولماذا جاء؟ وإلى أين يذهب في نهاية المطاف؟ من ذا الذي جاء به من العدم والمجهول؟ ومن ذا الذي يذهب به وما مصيره هناك؟.. وكان يقول له: ما هذا الوجود الذي يحسه

ويراه، والذي يحس أن وراءه غيبًا يستشرفه ولا يراه؟ من أنشأ هذا الوجود المليء بالأسرار؟ من ذا يدبره ومن ذا يحورّه؟ ومن ذا يجدد فيه ويغير على النحو الذي يراه؟.. وكان يقول له كذلك: كيف يتعامل مع خالق هذا الكون، ومع الكون أيضًا، وكيف يتعامل العباد مع خالق العباد.

وكانت هذه هي القضية الكبرى التي يقوم عليها وجود «الإنسان»، وستظل هي القضية الكبرى التي يقوم عليها وجوده، على توالي الأزمان.

وهكذا انقضت ثلاثة عشر عامًا كاملة في تقرير هذه القضية الكبرى، القضية التي ليس وراءها شيء في حياة الإنسان، إلا ما يقوم عليها من المقتضيات والتفريعات... فلما تقررت العقيدة -بعد الجهد الشاق- وتقررت السلطة التي ترتكن إليها هذه العقيدة.. لما عرف الناس ربهم وعبدوه ووحدوه.. لما تحرر الناس من سلطان العبيد، ومن سلطان الشهوات سواء.. لما تقررت في القلوب: «لا إله إلا الله».. صنع الله بها وبأهلها كل شيء مما يقترحه المقترحون..

تطهرت الأرض من الرومان والفرس.. لا ليتقرر فيها سلطان العرب.. ولكن ليتقرر فيها سلطان الله.. لقد تطهرت من الطاغوت كله: رومانياً وفارسيّاً وعربيّاً على السواء.

وتطهر المجتمع من الظلم الاجتماعي بجملته، وقام النظام الإسلامي يعدل يعدل الله، ويزن بميزان الله، ويرفع راية العدالة الاجتماعية باسم الله وحده؟ ويسميها راية الإسلام، لا يقرون إليها اسماً آخر؛ ويكتب عليها: «لا إله إلا الله»!

وتطهرت النفوس والأخلاق، وزكت القلوب والأرواح؛ دون أن يحتاج الأمر إلى الحدود والتعازير التي شرعها الله -إلا في النادرة النادرة- لأن الرقابة قامت هنالك في الضمائر؛ ولأن الطمع في رضا الله وثوابه، والحياء والخوف من غضبه وعقابه، قد قامت كلها مقام الرقابة ومقام العقوبات..

وارتفعت البشرية في نظامها، وفي أخلاقها، وفي حياتها كلها، إلى القمة السامقة التي لم ترتفع إليها من قبل قط؛ والتي لم ترتفع إليها من بعد إلا في ظل الإسلام..

ولقد تم هذا كله لأن الذين أقاموا هذا الدين في صورة دولة

ونظام وشرائع وأحكام; كانوا قد أقاموا هذا الدين من قبل في ضمائرهم وفي حياتهم، في صورة عقيدة وخلق وعبادة وسلوك، وكانوا قد وعدوا على إقامة هذا الدين وعدًا واحدًا، لا يدخل فيه الغلب والسلطان.. ولا حتى لهذا الدين على أيديهم.. وُعدًا واحدًا لا يتعلق بشيء في هذه الدنيا.. وعدًا واحدًا هو الجنة.. هذا كل ما وُعدوه على الجهاد المضني، والابتلاء الشاق، والمضي في الدعوة، ومواجهة الجاهلية بالأمر الذي يكرهه أصحاب السلطان، في كل زمان وفي كل مكان، وهو:

«لا إله إلا الله!»

فلما أن ابتلاهم الله فصبروا؛ ولما أن فرغت نفوسهم من حظ نفوسهم؛ ولما أن علم الله منهم أنهم لا ينتظرون جزاء في هذه الأرض -كائنًا ما كان هذا الجزاء، ولو كان هو انتصار هذه الدعوة على أيديهم، وقيام هذا الدين في الأرض بجهدهم- ولما لم يعد في نفوسهم اعتزاز بجنس ولا قوم، ولا اعتزاز بوطن ولا أرض، ولا اعتزاز بعشيرة ولا بيت..

لما أن علم الله منهم ذلك كله، علم أنهم قد أصبحوا -إذن-



أمناء على هذه الأمانة الكبرى، أمناء على العقيدة التي يتفرد فيها الله سبحانه بالحاكمة في القلوب والضمائر، وفي السلوك والشعائر، وفي الأرواح والأموال، وفي الأوضاع والأحوال.. وأمناء على السلطان الذي يوضع في أيديهم ليقوموا به على شريعة الله ينفذونها، وعلى عدل الله يقيمونه، دون أن يكون لهم من ذلك السلطان شيء لأنفسهم ولا لعشيرتهم ولا لقومهم ولا لجنسهم؛ إنما يكون السلطان الذي في أيديهم لله ولدينه وشريعته، لأنهم يعلمون أنه من الله، هو الذي آتاهم إياه» (١).

ويقول ابن القيم رحمه الله تعالى وهو يتأمل بعض الآيات في سورة الأنعام وكونها تمثل أركان التوحيد: «الرضا بالله ربًّا: ألا تتخذ ربًّا غير الله تعالى يسكن إلى تدبيره وينزل به حوائجه قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]... يعني: فكيف أطلب ربًّا غيره وهو رب كل شيء».

وقال في أول السورة: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤]. يعني: معبودًا وناصرًا ومعينًا وملجأً وهو من

(١) «في ظلال القرآن» (٢/ ١٠٠٤-١٠٠٨) باختصار.

الموالة التي تتضمن الحب والطاعة.

وقال في وسطها: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام: ١١٤]. أي: أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم فتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه، وهذا كتابه سيد الحكام فكيف نتحاكم إلى غير كتابه وقد أنزله مفصلاً مبيناً كافياً شافياً.

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل رأيتها هي نفس الرضا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً، ورأيت الحديث يترجم عنها<sup>(١)</sup>، ومشتق منها.

فكثير من الناس يرضى بالله رباً ولا يبتغي رباً سواه، لكنه لا يرضى به وحده ولياً وناصرًا، بل يوالي من دونه أولياء، ظناً منه أنهم يقربونه إلى الله، وأن موالاتهم كموالة خواص الملك، وهذا عين الشرك، بل التوحيد ألا يتخذ من دونه أولياء.

والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه

(١) يعني حديث: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً». رواه مسلم (٣٤).

أولياء، وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين فيه، فإن هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته، فموالاة أوليائه لون واتخاذ الولي من دونه لون، ومن لم يفهم الفرق بينهما فليطلب التوحيد من أساسه؛ فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه. وكثير من الناس يبتغي غيره حكماً، يتحاكم إليه، ويخاصم إليه، ويرضى بحكمه.

وهذه المقامات الثلاث هي أركان التوحيد: ألا يتخذ سواه رباً ولا إلهاً ولا غيره حكماً»<sup>(١)</sup>.

ونرجع مرة أخرى إلى ما كتبه سيد قطب رحمه الله تعالى من الكلام النفيس في مقدمة سورة الأنعام، وهو يؤكد على ضرورة البدء من العقيدة، ولماذا جاء القرآن المكي في العهد المكي كله في بيان العقيدة الإسلامية وأركانها، وتأسيس ذلك في قلوب المؤمنين، ولم يكن فيه شيء من تفاصيل الأحكام الشرعية؟ يقول رحمه الله تعالى: «هذا جانب من سر هذا الدين وطبيعته؛

(١) «مدارج السالكين» (٢/١٨١-١٨٢).

يحدد منهجه في بناء نفسه وفي امتداده؛ ويجعل بناء العقيدة وتمكينها، وشمول هذه العقيدة واستغراقها لشعاب النفس كلها.. ضرورة من ضرورات النشأة الصحيحة، وضماناً من ضمانات الاحتمال والتناسق بين الظاهر من الشجرة في الهواء، والضارب من جذورها في الأعماق..

ومتى استقرت عقيدة: «لا إله إلا الله» في أعماقها الغائرة البعيدة، استقر معها في نفس الوقت النظام الذي تتمثل فيه: «لا إله إلا الله»، وتعين أنه النظام الوحيد الذي ترتضيه النفوس التي استقرت فيها العقيدة.. واستسلمت هذه النفوس ابتداء لهذا النظام حتى قبل أن تعرض عليها تفصيلاته، وقبل أن تعرض عليها تشريعاته، فالاستسلام ابتداء هو مقتضى الإيمان.. وبمثل هذا الاستسلام تلقت النفوس تنظيمات الإسلام وتشريعاته بالرضا والقبول، لا تعترض على شيء منه فور صدوره إليها؛ ولا تتلکأ في تنفيذه بمجرد تلقيها له، وهكذا أبطلت الخمر، وأبطل الربا، وأبطل الميسر، وأبطلت العادات الجاهلية كلها، أبطلت آيات من القرآن، أو كلمات من رسول الله ﷺ، بينما

الحكومات الأرضية تجهد في شيء من هذا كله بقوانينها وتشريعاتها ونظمها وأوضاعها، وجندها وسلطانها، ودعايتها وإعلامها.. فلا تبلغ إلا أن تضبط الظاهر من المخالفات.

... والذين يريدون من الإسلام اليوم أن يصوغ قوالب نظام، وأن يصوغ تشريعات حياة.. بينما ليس على وجه الأرض مجتمع قد قرر فعلاً تحكيم شريعة الله وحدها، ورفض كل شريعة سواها، مع تملكه للسلطة التي تفرض هذا وتنفذه.. الذين يريدون من الإسلام ذلك لا يدركون طبيعة هذا الدين، ولا كيف يعمل في الحياة كما يريد له الله..

إنهم يريدون منه أن يغير طبيعته ومنهجه وتاريخه ليشابه أنظمة بشرية، ومناهج بشرية، ويحاولون أن يستعجلوه عن طريقه وخطواته، ليلبي رغبات وقتية في نفوسهم، إنما تنشئها الهزيمة الداخلية في أرواحهم تجاه أنظمة بشرية صغيرة.. إنهم يريدون منه أن يصوغ نفسه في قالب فروض، تواجه مستقبلاً غير موجود.. والله يريد لهذا الدين أن يكون كما أراد.. عقيدة تملأ القلب، وتفرض سلطانها على الضمير، عقيدة مقتضاها ألا

يخضع الناس إلا لله، ولا يتلقوا الشرائع إلا من الله، وبعد أن يوجد الناس الذين هذه عقيدتهم، ويصبح لهم السلطان في مجتمعهم، تبدأ التشريعات لمواجهة حاجاتهم الواقعية، وتنظيم حياتهم الواقعية.

والمسلمون في مكة لم يكن لهم سلطان على أنفسهم ولا على مجتمعهم، وما كانت لهم حياة واقعية مستقلة هم الذين ينظمونها بشريعة الله.. ومن ثم لم ينزل الله في هذه الفترة تنظيمات وشرائع؛ وإنما نزل لهم عقيدة، وخلقاً منبثقاً من العقيدة بعد استقرارها في الأعماق البعيدة.. فلما صارت لهم دولة في المدينة ذات سلطان تنزلت عليهم الشرائع؛ وتقرر لهم النظام؛ الذي يواجه حاجات المجتمع المسلم الواقعية؛ والذي تكفل له الدولة بسلطانها الجدية والنفاذ..

ولم يشأ الله أن ينزل عليهم النظام والشرائع في مكة، ليختزنوها جاهزة، حتى تطبق بمجرد قيام الدولة في المدينة! إن هذه ليست طبيعة هذا الدين! إنه أشد واقعية من هذا وأكثر جدية! إنه لا يفترض المشكلات ليفترض لها حلولاً.. إنما هو يواجه الواقع

بحجمه وشكله وملابساته لصوغه في قلبه الخاص، وفق حجمه وشكله وملابساته.

هذه السورة - وهي أولى السور المكية التي نتعرض لها هنا في سياق هذه الظلال - نموذج كامل للقرآن المكي الذي تحدثنا عن طبيعته وخصائصه ومنهجه في الصفحات السابقة؛ وهي تمثل طبيعة هذا القرآن وخصائصه ومنهجه، في موضوعها الأساسي، وفي منهج التناول، وفي طريقة العرض سواء.. ذلك مع احتفاظها «بشخصيتها» الخاصة؛ وفق الظاهرة الملحوظة في كل سور القرآن؛ والتي لا تخطئها الملاحظة البصيرة في أية سورة.. فلكل سورة شخصيتها، وملامحها، ومحورها، وطريقة عرضها لموضوعها الرئيسي؛ والمؤثرات الموحية المصاحبة للعرض؛ والصور والظلال والجو الذي يظللها والعبارات الخاصة التي تتكرر فيها؛ وتكون أشبه باللوازم المطردة فيها... حتى وهي تتناول موضوعاً واحداً أو موضوعات متقاربة، فليس الموضوع هو الذي يرسم شخصية السورة؛ ولكنه هذه الملامح والسمات الخاصة بها!

وهذه السورة - مع ذلك - تعالج موضوعها الأساسي بصورة فريدة.. إنها في كل لمحة منها وفي كل موقف، وفي كل مشهد، تمثل «الروعة الباهرة».. الروعة التي تبدء النفس، وتشدّه الحسّ، وتبهر النفس أيضًا؛ وهو يلاحق مشاهدتها وإيقاعها وموحياتها مبهورًا!

نعم! هذه حقيقة! حقيقة أجدها في نفسي وحسي وأنا أتابع سياق السورة ومشاهدتها وإيقاعاتها.. وما أظن بشرًا ذا قلب ثم لا يجد منها لونا من هذا الذي أجده.. إن الروعة فيها تبلغ فعلا حد البهر، حتى لا يملك القلب أن يتابعها إلا مبهورًا مبدوها!

إنها - في جملتها - تعرض «حقيقة الألوهية».. تعرضها في مجال الكون والحياة، كما تعرضها في مجال النفس والضمير، وتعرضها في مجاهيل هذا الكون المشهود، كما تعرضها في مجاهيل ذلك الغيب المكنون.. وتعرضها في مشاهد النشأة الكونية والنشأة الحيوية والنشأة الإنسانية، كما تعرضها في مصارع الغابرين واستخلاف المستخلفين.. وتعرضها في مشاهد الفطرة وهي تواجه الكون، وتواجه الأحداث، وتواجه النعماء



والضراء، كما تعرضها في مظاهر القدرة الإلهية والهيمنة في حياة البشر الظاهرة والمستكنة، وفي أحوالهم الواقعة والمتوقعة.. وأخيراً تعرضها في مشاهد القيامة، ومواقف الخلائق وهي موقوفة على ربها الخالق..

إن موضوعها الذي تعالجه من مبدئها إلى منتهاها هو موضوع العقيدة، بكل مقوماتها وبكل مكوناتها، وهي تأخذ بمجامع النفس البشرية، وتطوف بها في الوجود كله، وراء ينايع العقيدة وموحياتها المستسرة والظاهرة في هذا الوجود الكبير.. إنها تطوف بالنفس البشرية في ملكوت السموات والأرض، تلحظ فيها الظلمات والنور، وترقب الشمس والقمر والنجوم، وتسرح في الجنات المعروشات وغير المعروشات، والمياه الهاطلة عليها والجارية فيها؛ وتقف بها على مصارع الأمم الخالية، وآثارها البائدة والباقية، ثم تسبح بها في ظلمات البر والبحر، وأسرار الغيب والنفس، والحي يخرج من الميت والميت يخرج من الحي، والحبّة المستكنة في ظلمات الأرض، والنطفة المستكنة في ظلمات الرحم، ثم تموج بالجن والإنس، والطيور

والوحش، والأولين والآخرين، والموتى والأحياء، والحفظة على النفس بالليل والنهار..

إنه الحشد الكوني الذي يزحم أقطار النفس، وأقطار الحس.. ثم إنها اللمسات المبدعة المحيية، التي تنتفض بعدها المشاهد والمعاني أحياء في الحس والخيال.. وإذا كل مكرور مألوف من المشاهد والمشاعر، جديد نابض، كأنما تتلقاه النفس أول مرة؛ وكأنما لم يطلع عليه من قبل ضمير إنسان!

هذه السورة تعالج قضية العقيدة الأساسية.. قضية الألوهية والعبودية.. تعالجها بتعريف العباد برب العباد.. من هو؟ ما مصدر هذا الوجود؟ ماذا وراءه من أسرار؟ من هم العباد؟ من ذا الذي جاء بهم إلى هذا الوجود؟ من أنشأهم؟ من يطعمهم؟ من يكفلهم؟ من يدبر أمرهم؟ من يقلب أفئدتهم وأبصارهم؟ من يقلب ليلهم ونهارهم؟ من يبدؤهم ثم يعيدهم؟ لأي شيء خلقهم؟ ولأي أجل أجلهم؟ ولأي مصير يسلمهم؟.. هذه الحياة المنبثقة هنا وهناك.. من بثها في هذا الموات؟.. هذا الماء الهاطل، هذا البرعم النابغ، هذا الحب المتراب، هذا النجم

الثاقب، هذا الصبح البازغ، هذا الليل السادل، هذا الفلك الدوار.. هذا كله من وراءه؟ وماذا وراءه من أسرار، ومن أخبار؟.. هذه الأمم، وهذه القرون، التي تذهب وتجيء، وتهلك وتستخلف.. من ذا يستخلفها؟ ومن ذا يهلكها؟ لماذا تستخلف؟ ولماذا يدركها البوار؟ وماذا بعد الاستخلاف والابتلاء والوفاة من مصير وحساب وجزاء؟!

هكذا تطوف السورة بالقلب البشري في هذه الآماد والآفاق، وفي هذه الأغوار والأعماق.. ولكنها تمضي في هذا كله على منهج القرآن المكي.. الذي أسلفنا الحديث عنه في الصفحات السابقة -وعلى منهج القرآن كله- إنها لا تهدف إلى تصوير نظرية في العقيدة ولا إلى جدل لاهوتي يشغل الأذهان والأفكار.. إنما تهدف إلى تعريف الناس بربهم الحق؛ لتصل من هذا التعريف إلى تعبيد الناس لربهم الحق، تعبيد ضمائرهم وأرواحهم، وتعبيد سعيهم وحركتهم، وتعبيد تقاليدهم وشعائرهم، وتعبيد واقعهم كله لهذا السلطان المتفرد.. سلطان الله الذي لا سلطان لغيره في الأرض ولا في السماء..

ويكاد اتجاه السورة كله يمضي إلى هذا الهدف المحدد.. من أولها إلى آخرها.. فالله هو الخالق، والله هو الرازق، والله هو المالك، والله هو صاحب القدرة والقهر والسلطان، والله هو العليم بالغيوب والأسرار، والله هو الذي يقلب القلوب والأبصار كما يقلب الليل والنهار.. وكذلك يجب أن يكون الله هو الحاكم في حياة العباد؛ وألا يكون لغيره نهي ولا أمر، ولا شرع ولا حكم، ولا تحليل ولا تحريم، فهذا كله من خصائص الألوهية، ولا يجوز أن يزاوله في حياة الناس أحد من دون الله، لا يخلق، ولا يرزق، ولا يحيي ولا يميت، ولا يضر ولا ينفع، ولا يمنح ولا يمنع، ولا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً في الدنيا ولا في الآخرة...»<sup>(١)</sup>.

خامساً: أنزلت سورة الأنعام في جو خاص، كان يعيشه المسلمون المضطهدون في مكة يشبه في كثير من جوانبه الظروف التي يعيشها المسلمون اليوم، كان ذلك الجو مكروباً شديداً الضيق والألم والاضطهاد والمعاناة، وقد مرت حركة الدعوة الإسلامية

(١) «في ظلال القرآن» (٢/ ١٠٠٩-١٠١٧) باختصار.

في ذلك الجو بفترة خاصة شديدة، يمكن أن تسمى: الفترة الحرجة زادت قريش في تلك الفترة من حربها للإسلام، وإيذائها وتعذيبها للمسلمين، وصعَّدت من مواجهتها للرسول ﷺ وأصحابه، وشدَّدت حصارها ضد الحركة والدعوة، وفي تلك الفترة العصبية تمت محاصرة المسلمين في شعب أبي طالب لمدة ثلاث سنوات لقي المسلمون فيها من الحرج والضيق ما لقوا.. وكانت في هذه الفترة الحرجة الهجرة الأولى إلى الحبشة، ثم الهجرة الثانية إلى الحبشة، واستمرت هذه الفترة الحرجة عدة سنوات.. وكان كثير من الصحابة يتساءلون عن وقت انتهاء تلك الفترة، وانفراج الأزمة، وزوال الشدة، وينظرون بأمل إلى الفرج والخلاص والانتصار.

وأنزل الله في هذه الفترة عدة سور كريمة، بشر فيها المسلمين بقرب انفراج الأزمة، وانتهاء الشدة، وفتح باب الأمل بانتصار الإسلام وهزيمة الكفر.. وحققت تلك السور مهمتها في تربية المسلمين وتعليمهم وتوجيههم، وتثبيتهم على الحق، وزيادة تصميمهم على مواجهة الباطل.

فكان مما نزل فيها: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا  
وَأُودُوا حَتَّىٰ أَنهَلَّهُمْ نَصْرُنَا ۗ وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۗ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَائِ  
الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبْرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْغِي نَفَقًا  
فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى  
الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنعام: ٣٤، ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ۗ مَا  
عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۗ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَفْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ  
الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَن عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي  
وَبَيْنَكُمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنعام: ٥٧، ٥٨].

سادسًا: ظاهرة الإحالة القرآنية إلى سورة الأنعام.

ففي القرآن الكريم آيات مجملة وضحها الله ﷻ وفصلها  
بالإحالة إلى سورة الأنعام، ومن أمثلة ذلك:

١- قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٢٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ  
الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۗ أَيْبَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ  
لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٢٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَن إِذَا سَمِعْتُمُ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ  
بِهَا وَيُسَنَّهُزُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۗ إِنَّكُمْ إِذَا

مَثَلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾  
[النساء: ١٣٨-١٤٠].

ويلفت النظر هنا قوله تعالى في (الآية ١٤٠) من سورة الأنعام:  
﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكُتُبِ﴾، بما يعني أن هذا الأمر قد سبق  
ذكره في القرآن، ولكن في أي موضع من القرآن يمكن أن نجد  
ذلك المعنى المشار إليه؟

إن الاستقراء يهدينا إلى أن تلك الآية من سورة النساء إنما تحيل  
إلى آية بعينها من سورة الأنعام، إنها (الآية ٦٨) منها، والتي  
تقول: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءِ آيِنِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي  
حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۗ وَإِمَّا يُنْسِينَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ  
الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وقد وجدت العلامة المفسر «سيد قطب» يذكر في تفسيره لآية  
سورة النساء لفظ «الإحالة»، حيث قال: «والذي تحيل إليه الآية  
هنا مما سبق تنزيله في الكتاب، هو قوله تعالى في سورة  
الأنعام—وهي مكية—: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءِ آيِنِنَا فَأَعْرِضْ

عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثِ غَيْرِهِ ﴿١﴾، وهكذا نجد أول نموذج لظاهرة الإحالة القرآنية إلى سورة الأنعام.

٢- قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النحل: ١١٨].

وفي تفسير تلك الآية ذكر المفسرون أن الإشارة هنا بقوله: ﴿مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ إنما توجه إلى قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

٣- ومن المعلوم أن سورة الزمر مكية النزول، وفي (الآية ٦٥) منها نجد الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

ونفهم من هذا: أن الله قد سبق أن أوحى في القرآن المكي نفس هذا المعنى، الذي يربط الشرك بإحباط العمل، ويحذر النبي

(١) «في ظلال القرآن» (٢/ ٧٨١).



وَمَنْ سَبَقَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ.

وبالبحث عن هذا المعنى في القرآن المكي نجد مصداقه في (الآية ٨٨) من سورة الأنعام، التي تقول عقب ذكر عدد كبير من الأنبياء والرسل فيما سبقها من آيات: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

ونفهم من هذا أن (الآية ٦٥) من سورة الزمر تحيل إلى (الآية ٨٨) من سورة الأنعام؛ حيث نص الإحالة مؤكد عليه بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾.

وهذا ما أكده ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره عند تعرضه لآية سورة الزمر، حيث قال: «وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾».

كما أكد هذه الإحالة كذلك الإمام الشنقيطي في تفسيره (أضواء البيان) بقوله عند آية سورة الزمر المذكورة: قد تقدم الكلام عليه في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

٤- قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا  
وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا  
الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾ [الشورى: ١٣].

والعبارة التي تفيد الإحالة هي قوله تعالى هنا: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا  
إِلَيْكَ﴾، أما مضمون هذا الموحى به من قبل فهو النهي عن التفرق  
في الدين.

وفي تفسير تلك الآية الكريمة قال الإمام الشنقيطي: «وما تضمنته  
هذه الآية الكريمة من النهي عن الافتراق في الدين، جاء مُبَيَّنًا  
في غير هذا الموضع، وقد بين تعالى أنه وصى خلقه بذلك، فمن  
الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي  
مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ  
وَصَّوْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [١٥٣]. [الأنعام: ١٥٣].»

ثم يقول: «وقد بين تعالى في بعض المواضع أن بعض الناس  
لا يجتنبون هذا النهي، وتوعدهم على ذلك كقوله تعالى:  
﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسَتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ  
ثُمَّ يُنصَّبُ لَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [١٥٩]. [الأنعام: ١٥٩].»

وهكذا نجد الإمام الشنقيطي قد أحال آية الشورى إلى آيتين من سورة الأنعام تحديداً.

٥- قال تعالى في سورة النحل: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٢٣﴾ [النحل: ١٢٣].

وبالتأمل نجد أن هذه الآية تحيل إلى (الآية ١٦١) من سورة الأنعام، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وإلى نفس هذا القول ذهب الإمام الشنقيطي، حيث قال: «ذكر في هذه الآية الكريمة أنه أوحى إلى نبيِّنا الأمر باتباع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين، وبيَّن هذا أيضاً في غير هذا الموضع كقوله (في سورة الأنعام): ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

٦- لعل هذا هو أعجب نماذج الإحالات التي مررنا بها حتى الآن، إذ فيه نجد آية من سورة الأنعام تحيل إلى آية أخرى منها، وذلك

بحسب ما انتهى إليه التحليل البارع للمفسر الفخر الرازي، والذي وافقه عليه المفسر الإمام الشوكاني رحمهما الله، وإليكم بيان المسألة في (الآية ١١٩) من سورة الأنعام.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩].

فهذه الآية كما سنرى تحيل إلى (الآية ١٤٥) من السورة نفسها، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا آجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لغيرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

وهذه الآية وإن كانت مذكورة بعد هذه الآية بقليل إلا أن هذا القدر من التأخير لا يمنع أن يكون هو المراد، والله أعلم.

وإلى نفس هذا المعنى ذهب الإمام الشوكاني في «فتح القدير»، حيث قال: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: بين لكم بياناً مفصلاً يدفع الشك، ويزيل الشبهة بقوله: ﴿قُلْ لَا آجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ

لَحْمَ خَزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ» (١).

سابعاً: تميزت سورة الأنعام بكثرة ما ذكره الله ﷻ فيها من السنن والنواميس والموازن، التي يدبر الله ﷻ فيها خلقه وأمره، ويشغل بها نظام ملكوته في السموات والأرض، تلکم السنن المطردة والموازن الثابتة التي من تعرّف عليها وسار في حياته وأحكامه ومواقفه وتفسيراته في ضوئها فلن يضل ولن يتخبط، بل إنه يكون على صراط مستقيم، لكونه سار منسجماً مع هذه السنن، مهتدياً بها غير مصادم لها ولا غافل عنها، وسنن الله ﷻ ونظامه الذي يدبر به هذا الكون العظيم لا طاقة لعقول العباد بالإحاطة بها، ولكن الله ﷻ يمن على من يشاء من عباده بمعرفة ما يحتاجه منها في عمارة هذه الأرض، كما يحب الله ﷻ من القيام بعبادته سبحانه والدعوة إليه والجهاد في سبيله، وما يقتضيه ذلك من سنن المدافعة والابتلاء والصراع بين الحق والباطل والثواب والعقاب.

(١) نقلاً عن موقع «ملتقى أهل التفسير»: (سورة الأنعام وهذا السر العجيب: دعوة للتدبر) العليمي المصري، باختصار.

وقد حفلت هذه السورة الكريمة العظيمة بكثير من هذه السنن الربانية والنظم الإلهية، كما يستبين إن شاء الله تعالى في هذه الدراسة، ومن ذلك سننه سبحانه في الخلق والأمر والهدى والضلال، وفي الأرزاق والآجال، ومن نصر المؤمنين وإهلاك الكافرين، وغيرها من السنن والتفسيرات الربانية، التي فيها الإجابات المريحة لما يحتاج العباد إلى معرفتها مما لا سبيل لهم إلى معرفته إلا عن طريق هذا القرآن الكريم.

وقد فقه الصحابة رضي الله عنهم هذه السنن وساروا في ضوئها، ففتح الله على أيديهم الدنيا، وأوصلوا نور الإسلام وهدى القرآن إلى العالمين، فعاشوا في ظله منعمين آمنين، وكان من نجباء الصحابة رضي الله عنهم الذين فقهوا هذه السنن الإلهية وعملوا بها عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، وكان له عناية بسورة الأنعام؛ حيث دل عليها، وحث على قراءتها وتدبرها، وعدها من نجائب القرآن، وكان من فقهه رضي الله عنه لسنن الله عبارته في النصر والهزيمة وصاياها لجنود المسلمين حين يودعهم بأن يحذروا الذنوب، وأنها عنده أخوف من عدوهم وعددهم وعتادهم، وأنها هي سبب الهزائم والفشل.

ومن فقهه أيضًا رَجَعَهُ اللهُ لسنن الله عِبْرَتَكَ في قضائه وقدره قصته المشهورة، حينما ذهب إلى الشام وأخبر بانتشار الطاعون فيها.

روى البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه عن عبد الله بن عباس رَجَعَهُ اللهُ: أن عمر بن الخطاب رَجَعَهُ اللهُ خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرخ لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام، قال ابن عباس: فقال عمر: ادع لي المهاجرين الأولين، فدعاهم فاستشارهم، وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام، فاختلفوا، فقال بعضهم: قد خرجت لأمر، ولا نرى أن ترجع عنه، وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادعوا لي الأنصار، فدعوتهم فاستشارهم، فسلخوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي من كان هاهنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم فلم يختلف منهم عليه رجلان، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس، ولا تقدمهم على هذا الوباء، فنادى عمر في الناس: إني مصبح على ظهر فأصبحوا

عليه، قال أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله، فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، رأيت لو كان لك إبل هبطت وادياً له عدوتان: أحدهما خصبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ قال: فجاء عبد الرحمن ابن عوف وكان متغيباً في بعض حاجته، فقال: إن عندي في هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه» قال: فحمد الله عمر ثم انصرف (١).

فما أحوجنا في هذا الزمان الذي غفل فيه أكثر الناس عن تدبر سنن الله ﷻ والسير في ضوئها إلى العناية بهذا العلم العظيم النافع، لاسيما في واقعنا المعاصر، الذي برزت فيه أحداث جسيمة ونوازل عظيمة أحاطت بالإسلام وأهله.

ثامناً: برزت في سورة الأنعام أصول المحاجة مع الكفار والمشركين، حتى إنه بلغ تلقين الله ﷻ الحجج والبراهين لرسوله ﷺ

(١) «صحيح البخاري» (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩).



بقوله: ﴿قُلْ﴾، ﴿قُلْ﴾، أكثر من أربعين مرة، حتى إنه في آية واحدة من هذه السورة تكرر قوله سبحانه ﴿قُلْ﴾ أربع مرات: ﴿قُلْ أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةً ۖ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَأُوحِيَ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ ۖ وَمَنْ بَلَغَ ۗ أَيُّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ ۖ إِلَهَةً أُخْرَىٰ ۗ قُلْ لَا أَشْهَدُ ۗ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُهُ وَوَحْدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام: ١٩].

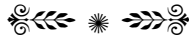
وقد ذكر الله ﷻ في هذه السورة أنموذجاً لمحااجة إمام الحنفاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه، فقال تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۚ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ۗ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ۗ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۗ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْآمَنُونَ ۗ هُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۗ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٣].

وسياتي إن شاء الله تعالى بيان لهذه الحجج وأصولها في مبحث  
قادم.

وبعد:

وبعد هذه المقدمة والتمهيد لهذه السورة العظيمة وبيان بعض  
خصائصها، التي أكسبتها أهمية قصوى في وجوب العناية بها، وتدبر ما فيها  
من الوصايا والسنن الإلهية، أدخل في الدراسة المفصلة لهذه الوصايا  
والسنن، أسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن ينفعني والقارئ الكريم بهذه الوصايا الربانية، وأن  
يجعلها لنا نورًا نهتدي به وسط هذه الأمواج المتلاطمة من الفتن، كما أسأله  
سبحانه أن يرزقني بها الإخلاص والصواب، إنه سميع مجيب.

وستتم الدراسة في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى عبر فصلين مستقلين،  
وتحت كل فصل عدة مباحث، ثم خاتمة الكتاب.



## الفصل الأول ذكر بعض السنن الإلهية التي تضمنتها سورة الأنعام

وقبل الدخول في ذكر هذه السنن وتفصيلها وثمراتها يحسن بنا التقديم لها بمدخل وتوطئة بين يدي هذه السنن ليتبين لنا فيها تعريف السنن الإلهية وأنواعها وثمرات المعرفة بها والهدف من دراستها، فأقول وبالله التوفيق.

أولاً: تعريف السنن الإلهية:

(السنن): جمع سنة.

وهي في اللغة: الطريقة والعادة المطردة حسنة كانت أو قبيحة.

وفي النهاية لابن الأثير: «والأصل في هذا اللفظ: الطريقة والسيرة، وفي حديث المجوس «سنوا بهم سنة أهل الكتاب»<sup>(١)</sup>، أي: خذوهم على طريقتهم، وأجروهم في قبول الجزية منهم مجراهم»<sup>(٢)</sup>.

(١) «موطأ مالك» (٩٦٨)، «مصنف ابن أبي شيبة» (١٠٨٧٠)، وضعفه الألباني في «إرواء الغليل» (١٢٤٨)

(٢) «النهاية» لابن الأثير (١٠٢٢/٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والسنة: هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الأول: ولهذا أمر الله تعالى بالاعتبار» (١).

والحاصل: أن هذه الكلمة يدور معناها على معنى (الطريقة المتبعة)، فيكون معنى (سنة الله) هي: الطريقة والقانون المطرد، الذي تخضع له جميع الكائنات أي أنه النظام والقانون الذي يدبر الله ﷻ به خلقه وأمره بعلمه وقدرته وعزته وحكمته ورحمته.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ بَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

يقول الدكتور عبد الكريم زيدان رحمه الله تعالى: «إن هذا العالم بكل ما فيه ومن فيه من نبات وجماد وحيوان وإنسان وأجرام سماوية، وما يصدر عن هذه الموجودات، وما يتعلق بها ويحل فيها، وما يقع من حوادث كونية: كنزول المطر وهبوب الريح وثوران بركان وتعاقب الليل والنهار، وما يحصل للإنسان من أطوار خلقه وتكوينه في بطن أمه، وما يحدث له وللأمة من شقاء وسعادة، ورفعة وسقوط، وعلو وانحطاط، وقوة وضعف، وبقاء

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٣٦٤).

وفناء، ونحو ذلك كل ذلك الذي ذكرنا وجوده وحدوثه في العالم لا يقع صدفة ولا خبط عشواء، وإنما يقع ويحدث وفق قانون عام دقيق ثابت صارم بتدبير من الله عَزَّوَجَلَّ، ناشئ عن قدرته سبحانه وحكمته ورحمته وعزته، لا يخرج عن أحكامه شيء.

وسنة الله عَزَّوَجَلَّ تقوم على ربط الأسباب بمسبباتها، والنتائج بمقدماتها، على نحو في غاية الدقة والانتظام والصرامة والاطراد، والله سبحانه هو خالق الأسباب ومسبباتها، وخالق المقدمات ونتائجها.

... إن سنة الله في الأسباب تشغل مساحة كبيرة جداً من سننه الأخرى، وقد لا أكون مغالياً إذا قلت: إن السنن الأخرى تقوم على سننه تعالى في الأسباب بصورة مباشرة أو غير مباشرة، حتى لتبدو للمتأمل فيها كأنها من مفردات سنة الله في الأسباب، وليست سنناً مستقلة، وإن إفرادها بالذكر وبأسماء خاصة بها إنما هو لإبرازها ولفت النظر إليها لمعنى خاص بها، وتبقى مع ذلك قائمة على سنة الله في الأسباب، ومعتمدة عليها بصورة مباشرة أو غير مباشرة...»<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: «السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد» للدكتور عبد الكريم زيدان (ص ٢-٣٢) باختصار وتصرف يسير.

ثانياً: أقسام السنن الإلهية

«لهذه السنن الإلهية والقانون العام وجهان:

الوجه الأول لهذا القانون العام: وهو القانون الذي يخضع له جميع الكائنات في وجودها المادي وجميع الحوادث المادية، ويخضع له كيان الإنسان المادي، وما يطرأ عليه، مثل نموه وحركة أعضائه ومرضه وهرمه ولوازم بقائه حياً ونحو ذلك، وهذا الوجه من القانون العام وما يخضع له مما ذكرناه من الأمور المادية للكائنات، أقول: هذا الوجه من هذا القانون لا يختلف في وجوده أهل العلم بهذه الأمور المادية، ولا يختلفون في خضوع ما ذكرناه له.

ومن سمات هذا القانون العام في وجهه الأول، ثباته واستمراره بدليل اطراد أحكامه وسريانها على الحوادث والظواهر التي يحكمها هذا القانون، فالأرض تحيا بالمطر ويخرج منها النبات، قال تعالى: ﴿وَأَيُّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣]، وكذلك جريان الشمس والقمر، وجريان الفلك في البحر وفقاً لهذا القانون العام، ومما يدل على ثبات هذا القانون بوجهه الأول الذي نتكلم عليه: أن الله تعالى يلفت الأنظار إلى هذه الظواهر الكونية، ويجعلها من الآيات الدالة على خالقيته

وربوبيته لقوم يعقلون ويتفكرون، ولولا اطراد حدوثها مما يدل على خضوعها لقانون ثابت لما صح لفت النظر إليها واعتبارها من آيات الله تعالى، فمن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِينَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤].

ومعرفة هذا القانون في وجهه الأول مباحة للجميع ويمكن الحصول عليها من قبل المسلم والكافر، وأكثرهما جدية ونشاطاً ونظراً وبحثاً وسعيًا أكثرهما وقوفاً عليه وإحاطة بجوانبه وجزئياته؛ فهذا العلم مشاع للجميع، ولا يختص المسلمون بشيء منه باعتبارهم مسلمين، اللهم إلا في القصد من تعلمه وفي أوجه الانتفاع منه، لأن قصد المسلم وأوجه انتفاعه بالأشياء وبما يعلم، كل ذلك محكوم بحكم الشريعة الإسلامية فما تبيحه أو توجهه فهو المباح أو الواجب، وما تنهى عنه فهو المكروه أو الحرام.

والوجه الثاني من القانون العام: فهو الذي يتعلق بخضوع البشر له باعتبارهم أفراداً وأممًا وجماعات، وأعني بخضوعهم له خضوع تصرفاتهم وأفعالهم وسلوكهم في الحياة، وما يكونون عليه من أحوال، وما يترتب على

ذلك من نتائج كالفاهية أو الضيق في العيش، والسراء والضراء، والسعادة والشقاء، والعز والذل، والرقي والتأخر، والقوة والضعف، ونحو ذلك من الأمور الاجتماعية في الدنيا، وما يصيبهم في الآخرة من عذاب أو نعيم، وفقاً لأحكام هذا القانون بوجهه الثاني»<sup>(١)</sup>.

مما سبق ذكره فإنه يمكننا أن نقسم السنن الإلهية إلى قسمين كبيرين:

#### ١- السنن الكونية المشاهدة في الآفاق والأنفس:

وكونها تخضع لنظام دقيق بتدبير العزيز الحكيم العليم الخبير الرؤوف الرحيم، قال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]. وقال سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]. وقال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

#### ٢- السنن الاجتماعية:

وهي التي جعلها الله ﷻ تحكم حياة البشر ويسير الله ﷻ أمورهم وأحوالهم بها، كسنن السعادة والشقاء، وسنن السراء والضراء، والهدى

(١) انظر: «السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد» د. عبد الكريم زيدان (ص ٢١-٢٤) باختصار وتصرف يسير.



والضلال، والأسباب ومسبباتها، ويتسم هذا النوع من السنن بالثبات والاطراد، والعموم والشمول.

فأما ثابتة فلقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ ﴿٦٦﴾ [الأحزاب: ٦٢].

وأما كونها مطردة: فلأنها لا تتخلف إذا توفرت شروطها، ويدل على اطرادها: أن الله قص علينا قصص الأمم السابقة وما حل بها من العقوبات لتتعظ ونعتبر، ولا نفعل فعلهم، فيصينا ما أصابها، ولولا اطرادها لما أمكن الاتعاظ والاعتبار بها، كما قال تعالى معقباً على ما حل بيهود بني النضير من الذلة والجلء عن المدينة: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]، أي: احذروا أن تفعلوا فعلهم، فيحل بكم ما حل بهم.

وأما كونها عامة: فلأن سنة الله عَزَّوَجَلَّ لا تحابي أحداً وإنما يسري حكمها على الجميع، قال تعالى: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّتِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٤٣].

وقال سبحانه: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيَّتِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿١٢٣﴾ [النساء: ١٢٣].

ولولا ثبات السنن واطرادها وعمومها لما كان هناك معنى في ذكر قصص وأخبار الأمم السابقة، وطلب الاعتبار بما حل بهم»<sup>(١)</sup>.

وتشترك السنن الكونية والاجتماعية في كونها يتسمان بالثبات والإطراد، ولكنهما يختلفان - بالاستقراء - في كون السنن الكونية واضحة بينة مضبوطة، يسهل التعرف عليها، بحيث إذا عرفت أمكن الحكم على نتائجها وميقات هذه النتائج، فالماء مثلاً يتجمد إذا بلغت برودته درجة معينة، ويغلي عند درجة معينة، ومن ذلك معرفة كسوف الشمس والقمر، ومواسم الأمطار وغيرها، وكذلك كون النار تحرق، والجاذبية تجذب الأشياء من الأعلى إلى الأسفل، وهكذا.

كما أنهما يختلفان بما أخبرنا الله ﷻ في كتابه من أن سننه الكونية يخرقها الله ﷻ إذا شاء سبحانه لمن يشاء من عباده، فالنار التي طبيعتها الإحراق تحولت إلى برد وسلام على إبراهيم ﷺ بأمر الله ﷻ، والرضيع في المهد من سننه سبحانه أنه لا يعلم شيئاً ولا يتكلم ولا يفهم، وأنه يولد من أب وأم، فخرق الله ﷻ هذه السنة بميلاد عيسى ﷺ من غير أب، وكلامه في المهد، بينما لا نجد أن سنة من سنن الله ﷻ الاجتماعية خرقت لأحد.

(١) انظر «السنن الإلهية»، د. عبد الكريم زيدان (ص ٢٥-٢٧)، باختصار وتصرف يسير.

وعن التوازن بين ثبات السنن الكونية وطلاقة المشيئة الإلهية يقول سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ: «المشيئة الإلهية طليقة، لا يَرِدُ عليها قيد ما، مما يخطر على الفكر البشري جملة، وهي تبدع كل شيء بمجرد توجُّهها إلى إبداعه، وليست هنالك قاعدة ملزمة، ولا قالب مفروض تلتزمه المشيئة الإلهية، حين تريد أن تفعل ما تريد.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٤٠﴾ [النحل: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَأَمْرَاتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿٤٠﴾ [آل عمران: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٤٧﴾ [آل عمران: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٦٩﴾ [آل عمران: ٦٩].  
فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ [الأنبياء: ٦٩-٧٠].

وهكذا وهكذا مما يقرر طلاقة المشيئة الإلهية وعدم تقيدها بقيد، مما يخطر على الفكر البشري مما يحسبه قانوناً لازماً وحتمية لا فكاك منها، وبين ثبات السنن وطلاقة المشيئة الإلهية يقف الضمير البشري على أرض

ثابتة مستقرة يعمل فيها وهو يعلم طبيعة الأرض، وطبيعة الطريق، وغاية السعي، وجزاء الحركة، ويتعرف على نواميس الكون، وسنن الحياة، وطاقت الأرض، ويتنفع بها وبتجاربه الثابتة فيها بمنهج علمي ثابت، وفي الوقت ذاته يعيش موصول الروح بالله، معلق القلب بمشيئة لا يستكثر عليها شيئاً ولا يستبعد عليها شيئاً ولا يئس أمام ضغط الواقع أبداً، يعيش طليق التصور، غير محصور في قوالب حديدية يضع نفسه فيها، ويتصور أن مشيئة الله سبحانه محصورة فيها، وهكذا لا يتبدد حسه، ولا يضمّر رجاؤه، ولا يعيش في إلف مكرور»<sup>(١)</sup>.

والمؤمن العارف بربه يوقن أن الله عَزَّوَجَلَّ قادر على أن يخرق لأوليائه السنن الكونية إذا كانوا أهلاً لذلك، كما فلق البحر لموسى عَلَيْهِ السَّلَام.

ويخرقها الله عَزَّوَجَلَّ عندما يأذن بخراب الكون عند قيام الساعة، حيث تتبدل الأرض غير الأرض والسموات، وتتغير النواميس والسنن التي كانت في الدنيا إلى سنن جديدة ونواتميس مختلفة عن النواميس والسنن التي كانت في الدنيا، وهذا في غيب الله عَزَّوَجَلَّ، وقد جاء في الكتاب والسنة ذكر شيء من نواتميس وسنن الآخرة، مما لا قدرة للعقل على إدراكها: كتغير نواتميس

(١) «خصائص التصور الإسلامي» (ص ١٢٢-١٢٤) باختصار.

الزمان والمكان والنشأة الأخرى للإنسان وخلقته، حيث لا بول ولا غائط ولا مخاط لأهل الجنة، وحيث العذاب الشديد لأهل النار، ومع ذلك يتكلمون ولا يموتون وغير ذلك من النواميس، وكثير من مواقف القيامة تحكمها قوانين وسنن جديدة، موقف المسلم منها التسليم، ولا يجوز بحال أن تقاس أحوال الآخرة على قوانين الدنيا لاختلافهما.

وأما السنن الاجتماعية فتختلف عن الكونية في كون أسبابها دقيقة ومتشعبة وطويلة الأجل، فقد يصعب على كثيرين من الناس الإحاطة بها تفصيلاً، إلا بعد التأمل والفحص الدقيق في أسبابها ونتائجها، كما تختلف عنها أيضاً في كونها -وبالاستقراء- لم نعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ قد خرقها لأحد من خلقه، بل جعلها الله عَزَّوَجَلَّ عامة للجميع.

ثالثاً: الصيغ الواردة في القرآن للفظ السنن:

١- ورد ذكر السنن في القرآن بالصيغة الصريحة بلفظ السنة أو السنن، كما في قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (٢٣) [الفتح: ٢٣]، وهذه الصيغة كثيرة في القرآن.

٢- كما ترد بناء على وصف معين أو حالة معينة، أو بناء على سبب أو شرط، كما في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾

وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾ [الكهف: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿إِن  
 اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].  
 ووصفها أحياناً بأيام الله كما في قوله تعالى: ﴿وَذَكَرَهُمْ  
 بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥].

٣- مما يلفت النظر في السنن الإلهية في سورة الأنعام: أن أكثرها يبدأ  
 بقوله سبحانه ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ وهي كثيرة في سورة الأنعام وسيأتي  
 تفصيلها إن شاء الله تعالى وذلك كما في قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ  
 نُؤَيِّنُ بِعَظْمِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا مِمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].  
 وقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ  
 يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ  
 وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ  
 قَرِيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣]، وقوله تعالى:  
 ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٥٣].

رابعاً: من ثمرات التعرف على السنن الإلهية:

إن من علامات توفيق الله ﷻ لعبده المؤمن أن يرزقه معرفة ربه  
 سبحانه بأسمائه الحسنی وصفاته العلی، وما تقتضيه من الخلق

والأمر، ومعرفة ما تقتضيه من السنن الثابتة، والحكم البالغة، والرحمة المسداة، والقدرة، والقوة العظيمة، والعلم المحيط بكل شيء.

ومن رحمة الله ﷻ أن جعل فيما نراه من الخلق والأمر والحوادث سنناً مطردة نستضيء بها، ونكيف حياتنا لتنسجم معها، ولا تصادها، وهذا من تسخير الله ﷻ الذي يمن الله به على خلقه، قال سبحانه: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [١٣]. ولو لم توجد هذه السنن لما استطاع الإنسان أن يعيش على هذه الأرض ويعمرها.

ويمكن إجمال أهم الثمرات التي تدل على أهمية العلم بالسنن الإلهية فيما يلي:

١- إن معرفة السنن الإلهية هي من معرفة الدين، وهذه المعرفة ضرورة شرعية، لأنها تزيد من معرفة العبد لربه ومحبته وتعظيمه له، ولأسمائه الحسنی، وآثارها ومقتضياتها، فيزداد بذلك الإيمان.

يقول الدكتور أحمد كنعان: «من الثمرات التي نجنيها من فهمنا لطبيعة السنن ثمرة الإيمان، بأن ندرك مثلاً أن هذا الكون ما كان له

أن يقوم على هذه الصورة البديعة من التناسق والجمال والتوازن والاستقرار لو لم يكن خالقه رباً واحداً، حكيمًا، عالمًا، مريدًا، خبيرًا، قويًا، عظيمًا، محيطًا بكل شيء، وقادرًا على كل شيء سبحان الله (١). هذا من جهة.

ومن جهة ثانية: فإن التوجيهات الإلهية للمؤمنين للتدبر والتفكر في سنن الوجود، هي توجيهات دقيقة للعقل المؤمن، لينفتح على رصد الوقائع، واستقراء الظواهر لمعرفة قوانين المادة، والكشف عن أسرار الكون، إذ لا ينبغي أن يعرض عن ملاحظة دقيق صنع الخالق جلّ وعلا في الأرض والسماء، بعد أن أمره بذلك، ليتعرف على كمال الله تعالى ودقيق صنعه، فيعبده على بينة وعلم، وليتعامل مع عالم الشهادة بإدراك قوانينه وتسخيرها» (٢).

٢- زيادة محبة الله عز وجل، التي هي من ثمرات معرفة سننه سبحانه، وما تتضمنه من الرحمة والحكمة والعظمة وسعة العلم والقدرة والتدبير.

(١) انظر: كتاب «أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق» (ص ١٥).

(٢) انظر: «الإسلام والوعي الحضاري»، د. أكرم العمري (ص ١٥٧).



٣- إن التعرف على السنن الإلهية تدلنا على رحمة الله ﷻ بعباده؛ إذ إننا يمكننا بمعرفة السنن اختصار كثير من الجهود التي كان علينا أن نبذلها لفهم ما حولنا والتعامل معه، ولنتصور أن قانون إحراق النار، أو قانون الجاذبية، أو قانون تعيُّر الحال إلى الأحسن أو الأسوأ، تبعاً لجهد الإنسان وسلوكه، لم يكن ثابتاً ولا مطرداً، فكيف سيكون حالنا إذن.

«ومظهر آخر للرحمة في اطراد السنن هو أن التحول في أكثر الظواهر الاجتماعية يتم ببطء، وعمر الإنسان قصير إذا ما قيس بعمر الحضارات، مما يجعله يبصر مقدمات الحدث دون نتائجه، ونتائجه دون مقدماته وأسبابه، وحينئذ فإن من السهولة بمكان أن يصاب المرء بغبش الرؤية وضلال الأحكام.

والسنة بتجسيروها للعلاقة بين الماضي والحاضر والمستقبل جعلت في إمكان المسلم أن يعرف النتائج من خلال الوقوف على الأسباب، والمقدمات من خلال رؤية نتائجها»<sup>(١)</sup>.

(١) انظر مقال (ولن تجد لسنة الله تحويلاً) د. عبد الكريم بكار، مجلة البيان (العدد ٥٦).

٤- وبمعرفة السنن في كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ ضرورة، لكي يفهم التاريخ على حقيقته، وأن تفسر أحداثه التفسير الصحيح الأمر الذي ينتج عنه الحكم الصحيح عليها وصوابية الموقف منها، وبفهم التاريخ في ضوء السنن الإلهية نستطيع التعرف على عوامل البناء والأمن والاستقرار، وعوامل الهدم والخوف والانحطاط والتخلف، على العكس ممن حرم معرفة هذه السنن، وكان مبلغه من العلم تلك التفسيرات المادية الجاهلية، وبمعرفتنا من خلال السنن لأسباب الأمن والاستقرار والعيش الرغيد في الدنيا والآخرة، ولأسباب المصائب والشقاء والضيق، نستطيع الأخذ بأسباب النجاة وتجنب الأخطاء، وأسباب الهلاك ومعرفة أسباب النصر والتمكين، وأسباب الهزائم والمذلة.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا، ولولا القياس واطراد فعله وستته لم يصح الاعتبار بها؛ لأن الاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء

حكم نظيره، كالأمثال المضروبة في القرآن»<sup>(١)</sup>.

٥- إن المعرفة بالسُنن الإلهية يفيد في تحليل واستشراق المستقبل،

وأحداثه المتوقعة وتحليلاتها، والإعداد الصحيح لمواجهتها.

٦- إن المعرفة ربًّا بسُنن الله ﷻ تضبط الإنسان في تفكيره وموازينه،

ونظرتيه للأحداث والنوازل وتقلباتها، وموقفه منها، ومثل هذا

يضمني على النفس الطمأنينة والثبات، فلا يتيه ولا يضطرب مع مَنْ

يتيه ويضطرب في المواقف والأحكام والموازنين، فلا تجده إلا

قلقًا محترًا.

ومثل العارف لسُنن الله ﷻ السائر في ضوئها المنسجم معها،

كمن يمشي في مفازة شاسعة ومعه نور وضوء، يرى به طريقه، وما

فيه من العثرات والعقبات، ومعه الخريطة والبوصلة التي يهتدي

بها في طريقه، ليصل إلى هدفه المنشود، وهذا يختلف عن يضرب

في هذه المفازة دون نور ولا خريطة ولا بوصلة، فلا تسأل عن

(١) «جامع الرسائل» (ص ٢٥٥).

تخبطه وحيrote وضياعه في هذه المفازة.

وعندما تنضبط الموازين والمواقف بمعرفة السنن الإلهية، فإن هذا يقود للمنهج الصحيح لتغيير ما بنا، والنهوض من ضعفنا، والتمكين لديننا، مستعينين به سبحانه واضع السنن وخالق الأسباب ومسبباتها، متعبدين له بِعِزَّتِهِ وفق سننه والحركة بها، وبفعل الأسباب التي أمرنا بالأخذ بها، متبرئين من الحول والقوة، غير متعلقين بغيره سبحانه من الأسباب وتائجها.

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى: «والمسلم يأخذ بالأسباب، لأنه مأمور بالأخذ بها، ويعمل وفق السنة، لأنه مأمور بمراعاتها، لا لأنه يعتقد أن الأسباب والوسائل هي المنشئة للمسببات والنتائج استقلالاً، فهو يرد الأمر كله إلى خالق الأسباب، ويتعلق به وحده من وراء الأسباب، بعد أداء واجبه في الحركة والسعي والعمل واتخاذ الأسباب.. طاعة لأمر الله.

وهكذا ينتفع المسلم بثبات السنن في بناء تجاربه العلمية وطرائقه العملية، في التعامل مع الكون وأسراره وطاقاته ومدخراته، فلا

يفوته شيء من مزايا العلوم التجريبية والطرائق العملية، وهو في الوقت ذاته موصول القلب بالله، حي القلب بهذا الاتصال، موصول الضمير بالمشاعر الأدبية الأخلاقية، التي ترفع العمر وتباركه وتزكيه، وتسمو بالحياة الإنسانية إلى أقصى الكمال المقدر لها في الأرض، وفي حدود طاقة الإنسان»<sup>(١)</sup>.

٧- في معرفة السنن والسير على هداها اجتماع للكلمة ووحدة للصف، لأن فيها استعلاءً على أسباب الخلاف الجزئية أو النفسية، للمحافظة على الكليات الأساسية المرتبطة بالسنن الإلهية.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنزَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ أَصْحَابُ الْأَنْفَالِ: [٨]. هذه سنة مطردة شاملة وأصل من أصول النصر، فلا يجوز أن نضيعه للمحافظة على فرع مختلف عليه.

وبعد هذه المقدمة عن السنن (تعريفها، أنواعها، الصيغ المختلفة لها، ثمرات معرفتها) أدخل في تعداد وشرح بعض السنن الإلهية

(١) «خصائص التصور الإسلامي» (ص ١٢٥-١٢٦)

التي تضمنتها سورة الأنعام، وسأذكرها إن شاء الله مرتبة من أول  
السورة إلى آخرها، إلا إذا وردت سنة معينة في عدة آيات فسأذكرها  
في موطن واحد، لأن الكلام عنهما سيكون واحداً وذلك لتلافي  
التكرار.

ومن أهم هذه السنن الإلهية ما يأتي:

## السُّنَّةُ الأُوْلَى سُنَّةُ اللهِ ﷻ فِي العَصَاةِ وَالمَكْذِبِينَ

سأذكر في هذا المقام إن شاء الله تعالى ما ورد من الآيات في سورة الأنعام، التي يجمعها الحديث عن هذه السنة، ثم أردفها بشرحها، وذكر الثمرات التي ينبغي أن نستثمرها من هذه السنة، وذلك في خضم ما نعيشه من نوازل وأحداث متسارعة.

الآية الأولى: قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهِمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ يُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عن هذه الآية: «ذكر سبحانه إهلاك من قبلنا من القرون، وبين أن ذلك كان لمعنى القياس، وهو ذنوبهم، فهم الأصل ونحن الفرع، والذنوب العلة الجامعة، والحكم الهلاك، فهذا محض قياس العلة»<sup>(١)</sup>.

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ١٣٤).

الآية الثانية: قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ  
بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ  
انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام: ١٠-١١].

الآية الثالثة: قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ  
وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ  
لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا دَسَوْا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ  
أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ  
الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٥].

الآية الرابعة: قوله سبحانه: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ  
وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعام: ١٢٤].

الآية الخامسة: قوله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا  
يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام: ١٢٩].

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى عن هذه الآية: «أي: وكذلك من  
سنتنا أن يوالي كل ظالم ظالماً مثله، يؤزره إلى الشر، ويحثه عليه، ويزهده في  
الخير، وينفره عنه... ومن ذلك أن العباد إذا كثرت عليهم وفسادهم ومنعهم  
الحقوق الواجبة وولى عليهم ظلماً يسومونهم سوء العذاب، ويأخذون منهم



بالظلم أضعاف ما منعوا من حقوق الله وحقوق عباده» (١).

الآية السادسة: قوله سبحانه: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ  
وَسِعَةِ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿١٤٧﴾ [الأنعام: ١٤٧].

الآية السابعة: قوله سبحانه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ  
عَنْهَا سَنَجَزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ ﴿١٥٧﴾  
[الأنعام: ١٥٧].

هذه هي مجمل الآيات التي ظهر لي فيها سنة الله ﷻ في العصاة  
والمكذبين في هذه السورة.

وحقيقتها: أن من سنة الله ﷻ التي لا تتخلف ولا تتبدل عقوبة  
الظالمين المكذبين لرسله، أو المصريين على ترك أو امره، المرتكبين لنواهيه  
ثم لم يتوبوا، وأن هذه العقوبات لها صور مختلفة، ولها أجل مضروب،  
يحدده الله ﷻ حسب علمه وحكمته، قد لا يراه الفرد في زمانه، ولكنه يظهر  
بعد ذلك، ولتفصيل هذه السنة الإلهية، والمراحل التي تتم بها أقف عند  
الآيتين المذكورتين آنفاً لشمولهما، وبيانهما لمراحل الهلاك.

(١) «تفسير السعدي» (ص ٢٧٣).

الآية الأولى: قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهَلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهِمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَاهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

وأكتفي بما كتبه سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية، قال رَحِمَهُ اللهُ: «ألم يروا إلى مصارع الأجيال الغابرة، وقد مكّنههم الله في الأرض، وأعطاهم من أسباب القوة والسلطان ما لم يعط مثله للمخاطبين من قريش في الجزيرة؛ وأرسل المطر عليهم متتابعًا، ينشئ في حياتهم الخصب والنماء، ويفيض عليهم من الأرزاق.. ثم ماذا؟ ثم عصوا ربهم، فأخذهم الله بذنوبهم، وأنشأ من بعدهم جيلًا آخر، ورث الأرض من بعدهم؛ ومضوا هم لا تحفل بهم الأرض! فقد ورثها قوم آخرون! فما أهون المكذبين المعرضين أصحاب القوة والتمكين من البشر! ما أهونهم على الله؛ وما أهونهم على هذه الأرض أيضًا! لقد أهلكوا وغبروا فما أحست هذه الأرض بالخلاء والخواء؛ إنما عمرها جيل آخر؛ ومضت الأرض في دورتها، كأن لم يكن هنا سكان؛ ومضت الحياة في حركتها كأن لم يكن هنا أحياء!...

إنها حقيقة ينساها البشر -إلا من عصم الله- وعندئذ ينحرفون عن عهد الله وعن شرط الاستخلاف؛ ويمضون على غير سنة الله؛ ولا يتبين لهم في

أول الطريق عواقب هذا الانحراف، ويقع الفساد رويدًا رويدًا وهم ينزلقون ولا يشعرون.. حتى يستوفي الكتاب أجله؛ ويحق وعد الله.. ثم تختلف أشكال النهاية: مرة يأخذهم الله بعذاب الاستئصال -بعذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم، كما وقع لكثير من الأقسام- ومرة يأخذهم بالسنين ونقص الأنفس والثمرات، كما حدث كذلك لأقسام، ومرة يأخذهم بأن يذيق بعضهم بأس بعض؛ فيعذب بعضهم بعضًا، ويدمر بعضهم بعضًا، ويؤذي بعضهم بعضًا، ولا يعود بعضهم يأمن بعضًا؛ فتضعف شوكتهم في النهاية؛ ويسلط الله عليهم عبادًا له -طائعين أو عصاة- يخضدون شوكتهم، ويقتلعونهم مما مكنوا فيه؛ ثم يستخلف الله العباد الجدد لبيتليهم بما مكنهم.. وهكذا تمضي دورة السنة.. السعيد من وعى أنها السنة، ومن وعى أنه الابتلاء؛ فعمل بعهد الله فيما استخلف فيه، والشقي من غفل عن هذه الحقيقة، وظن أنه أوتىها بعلمه، أو أوتىها بحيلته، أو أوتىها جزافًا بلا تدبير!

وإنه لمما يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغى، أو المستهتر الفاسد، أو الملحد الكافر، ممكنًا له في الأرض، غير مأخوذ من الله.. ولكن الناس إنما يستعجلون.. إنهم يرون أول الطريق أو وسطه؛ ولا يرون نهاية الطريق.. ونهاية الطريق لا تُرى إلا بعد أن تجيء! لا ترى إلا في مصارع الغابرين بعد

أن يصبحوا أحاديث.. والقرآن الكريم يوجه إلى هذه المصارع ليتنبه المخدوعون الذين لا يرون - في حياتهم الفردية القصيرة - نهاية الطريق؛ فيخدعهم ما يرون في حياتهم القصيرة، ويحسبونه نهاية الطريق!

إن هذا النص في القرآن: ﴿فَأَهْلَكْنَهُمْ يُذُوبُهُمْ﴾ وما يماثله، وهو يتكرر كثيراً في القرآن الكريم.. إنما يقرر حقيقة، ويقرر سنة، ويقرر طرفاً من التفسير الإسلامي لأحداث التاريخ..

إنه يقرر حقيقة أن الذنوب تهلك أصحابها، وأن الله هو الذي يهلك المذنبين بذنوبهم؛ وأن هذه سنة ماضية - ولو لم يرها فرد في عمره القصير، أو جيل في أجله المحدود - ولكنها سنة تصير إليها الأمم حين تفشو فيها الذنوب؛ وحين تقوم حياتها على الذنوب.. كذلك هي جانب من التفسير الإسلامي للتاريخ: فإن هلاك الأجيال واستخلاف الأجيال؛ من عوامله، فعل الذنوب في جسم الأمم؛ وتأثيرها في إنشاء حالة تنتهي إلى الدمار؛ إما بقارعة من الله عاجلة - كما كان يحدث في التاريخ القديم - وإما بالانحلال البطيء الفطري الطبيعي، الذي يسري في كيان الأمم - مع الزمن - وهي توغل في متاهة الذنوب!

وأماننا في التاريخ القريب -نسبيًا- الشواهد الكافية على فعل الانحلال الأخلاقي، والدعارة الفاشية، واتخاذ المرأة فتنة وزينة، والترف والرخاوة، والتلهي بالنعيم.. أماننا الشواهد الكافية من فعل هذا كله في انهيار الإغريق والرومان -وقد أصبحوا أحاديث- وفي الانهيار الذي تتجلى أوائله، وتلوح نهايته في الأفق في أمم معاصرة، كفرنسا وإنجلترا كذلك على الرغم من القوة الظاهرة والثراء العريض». (١).

الآية الثانية: قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٥].

ومن أحسن ما قرأته في شرح هذه الآية الكريمة وربطها بالواقع ما كتبه سيد قطب رحمه الله تعالى عندها، أنقله إلى القارئ الكريم على طوله لفائدته، وربطه بالسنة الإلهية التي نتحدث عنها.

(١) «في ظلال القرآن» (٢/ ١٠٣٨).

يقول رحمه الله تعالى: «إنها المواجهة بنموذج من بأس الله سبحانه، نموذج من الواقع التاريخي، نموذج يعرض ويفسر كيف يتعرض الناس لبأس الله، وكيف تكون عاقبة تعرضهم له، وكيف يمنحهم الله الفرصة بعد الفرصة، ويسوق إليهم التنبيه بعد التنبيه؛ فإذا نسوا ما ذكروا به، ولم توجههم الشدة إلى التوجه إلى الله والتضرع له، ولم توجههم النعمة إلى الشكر والحذر من الفتنة، كانت فطرتهم قد فسدت، والله يقول الحق؛ ويعلم ماذا كان، ولماذا كان، ويقص على عبده -رحمة منه وفضلاً- جانباً من أسرار سنته وقدره؛ ليأخذوا حذرهم ويتعظوا؛ وليدركوا كذلك ما وراء الواقع التاريخي من عوامل كامنة وأسباب ظاهرة؛ يفسرون بها هذا الواقع التاريخي تفسيراً كاملاً صحيحاً، ومن وراء هذه المعرفة يمكن أن يتوقعوا ما سيكون، استناداً إلى سنة الله التي لا تتبدل.. هذه السنة التي يكشف الله لهم عنها..

وفي هذه الآيات تصوير وعرض لنموذج متكرر في أمم شتى.. أمم جاءتهم رسلهم فكذبوا، فأخذهم الله بالبأساء والضراء، في أموالهم وفي أنفسهم، في أحوالهم وأوضاعهم.. البأساء والضراء التي لا تبلغ أن تكون «عذاب الله»، الذي تحدثت عنه الآية السابقة، وهو عذاب التدمير والاستئصال.

وقد ذكر القرآن نموذجًا محددًا من هذه الأمم، ومن البأساء والضراء التي أخذها بها.. في قصة فرعون وملئه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقِصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣٣].

وهو نموذج من نماذج كثيرة تشير إليها الآية..

لقد أخذهم الله بالبأساء والضراء ليرجعوا إلى أنفسهم؛ وينقبوا في ضمائرهم وفي واقعهم، لعلهم تحت وطأة الشدة يتضرعون إلى الله، ويتذللون له، وينزلون عن عنادهم واستكبارهم، ويدعون الله أن يرفع عنهم البلاء بقلوب مخلصة، فيرفع الله عنهم البلاء، ويفتح لهم أبواب الرحمة.. ولكنهم لم يفعلوا ما كان حريًا أن يفعلوا، لم يلجئوا إلى الله، ولم يرجعوا عن عنادهم، ولم ترد إليهم الشدة وعيهم، ولم تفتح بصيرتهم، ولم تلن قلوبهم، وكان الشيطان من ورائهم يزين لهم ما هم فيه من الضلال والعناد:

﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ..

والقلب الذي لا ترده الشدة إلى الله قلب تحجر، فلم تعد فيه نداوة تعصرها الشدة! ومات فلم تعد الشدة تثير فيه الإحساس! وتعطلت أجهزة الاستقبال الفطرية فيه، فلم يعد يستشعر هذه الوخزة الموقظة، التي تنبه القلوب الحية للتلقي والاستجابة، والشدة ابتلاء من الله للعبد؛ فمن كان حيًّا أيقظته، وفتحت مغاليق قلبه، وردّته إلى ربه؛ وكانت رحمة له من الرحمة التي كتبها الله على نفسه.. ومن كان ميتًا حسبت عليه، ولم تفده شيئًا، وإنما أسقطت عذره وحجته، وكانت عليه شقوة، وكانت موطئة للعذاب!

وهذه الأمم التي يقص الله سبحانه من أنبائها على رسوله ﷺ ومن وراءه من أمته.. لم تفد من الشدة شيئًا، لم تتضرع إلى الله، ولم ترجع عما زينه لها الشيطان من الإعراض والعناد.. وهنا يملي لها الله سبحانه ويستدرجها بالرخاء:

﴿ فَلَمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ..

إن الرخاء ابتلاء آخر كابتلاء الشدة، وهو مرتبة أشد وأعلى من مرتبة الشدة! والله يبتلي بالرخاء كما يبتلي بالشدة، يبتلي الطائعين والعصاة سواء،



بهذه وبذاك سواء.. والمؤمن يبتلى بالشدة فيصبر، ويبتلى بالرخاء فيشكر، ويكون أمره كله خيراً.. وفي الحديث: «عجباً للمؤمن! إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»<sup>(١)</sup>. رواه مسلم.

فأما هذه الأمم التي كذبت الرسل، والتي يقص الله من أنبائها هنا، فإنهم لما نسوا ما ذكروا به، وعلم الله سبحانه أنهم مهلكون، وابتلاهم بالبأساء والضراء فلم يتضرعوا.. فأما هؤلاء فقد فتح عليهم أبواب كل شيء للاستدراج بعد الابتلاء..

والتعبير القرآني: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.. يصور الأرزاق والخيرات، والمتاع، والسلطان.. متدفقة كالسيول؛ بلا حواجز ولا قيود! وهي مقبلة عليهم بلا عناء ولا كد ولا حتى محاولة إنه مشهد عجيب؛ يرسم حالة في حركة؛ على طريقة التصوير القرآني العجيب.

﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾..

وغمرتهم الخيرات والأرزاق المتدفقة؛ واستغرقوا في المتاع بها والفرح

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩).

لها - بلا شكر ولا ذكر- وخلت قلوبهم من الاختلاج بذكر المنعم، ومن خشيته وتقواه؛ وانحصرت اهتماماتهم في لذائد المتاع، واستسلموا للشهوات، وخلت حياتهم من الاهتمامات الكبيرة، كما هي عادة المستغرقين في اللهو والمتاع، وتبع ذلك فساد النظم والأوضاع، بعد فساد القلوب والأخلاق؛ وجرَّ هذا وذلك إلى نتائجه الطبيعية من فساد الحياة كلها.. عندئذ جاء موعد السنة التي لا تبدل:

﴿أَخَذْنَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ ..

فكان أخذهم على غرة؛ وهم في سهوة وسكرة، فإذا هم حائرون، منقطعوا الرجاء في النجاة، عاجزون عن التفكير في أي اتجاه، وإذا هم مهلكون بجملتهم حتى آخر واحد منهم..

﴿فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ..

ودابر القوم هو آخر واحد منهم يدبرهم؛ أي: يجيء على أدبارهم؛ فإذا قطع هذا فأوائلهم أولى!.. و﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ تعني هنا الذين أشركوا.. كما هو التعبير القرآني في أغلب المواضع عن الشرك بالظلم وعن المشركين بالظالمين..

﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ..

تعقيب على استئصال الظالمين (المشركين) بعد هذا الاستدراج الإلهي والكيد المتين.. وهل يحمد الله على نعمة أجل من نعمة تطهير الأرض من الظالمين، أو على رحمة أجل من رحمته لعباده بهذا التطهير؟

لقد أخذ الله قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط، كما أخذ الفراعنة والإغريق والرومان وغيرهم بهذه السنة؛ ووراء ازدهار حضارتهم ثم تدميرها، ذلك السر المغيب من قدر الله؛ وهذا القدر الظاهر من سنته؛ وهذا التفسير الرباني لهذا الواقع التاريخي المعروف.

ولقد كان لهذه الأمم من الحضارة؛ وكان لها من التمكين في الأرض؛ وكان لها من الرخاء والمتاع؛ ما لا يقل - إن لم يزد في بعض نواحيه - عما تتمتع به اليوم أمم؛ مستغرقة في السلطان والرخاء والمتاع؛ مخدوعة بما هي فيه؛ خادعة لغيرها ممن لا يعرفون سنة الله في الشدة والرخاء..

هذه الأمم لا تدرك أن هناك سنة، ولا تشعر أن الله يستدرجها وفق هذه السنة، والذين يدورون في فلكها يبهرهم اللألاء الخاطف، ويتعاضمهم الرخاء والسلطان، ويخدعهم إملاء الله لهذه الأمم، وهي لا تعبد الله أو لا تعرفه، وهي تتمرد على سلطانه، وهي تدعي لأنفسها

خصائص ألوهيته، وهي تعيث في الأرض فسادًا، وهي تظلم الناس بعد اعتدائها على سلطان الله..

ولقد كنت - في أثناء وجودي في الولايات المتحدة الأمريكية - أرى رأي العين مصداق قول الله سبحانه: ﴿فَلَمَّا دَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.. فإن المشهد الذي ترسمه هذه الآية.. مشهد تدفق كل شيء من الخيرات والأرزاق بلا حساب!.. لا يكاد يتمثل في الأرض كلها كما يتمثل هناك!

وكنت أرى غرور القوم بهذا الرخاء الذي هم فيه، وشعورهم بأنه وقف على «الرجل الأبيض» وطريقة تعاملهم مع الملونين في عجرفة مردولة، وفي وحشية كذلك بشعة! وفي صلف على أهل الأرض كلهم، لا يقاس إليه صلف النازية الذي شهر به اليهود في الأرض كلها، حتى صار علمًا على الصلف العنصري، بينما الأمريكي الأبيض يزاوله تجاه الملونين في صورة أشد وأقسى! وبخاصة إذا كان هؤلاء الملونون من المسلمين..

كنت أرى هذا كله فأذكر هذه الآية، وأتوقع سنة الله، وأكاد أرى خطواتها، وهي تدب إلى الغافلين: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ ..

وإذا كان الله قد رفع عذاب الاستئصال بعد بعثة رسول الله ﷺ، فهناك ألوان من العذاب باقية، والبشرية - وبخاصة الأمم التي فتحت عليها أبواب كل شيء - تذوق منها الكثير، على الرغم من هذا التناج الوفير، ومن هذا الرزق الغزير!

إن العذاب النفسي، والشقاء الروحي، والشذوذ الجنسي، والانحلال الخلقي.. الذي تقاسي منه هذه الأمم اليوم، ليكاد يغطي على الإنتاج والرخاء والمتاع؛ وليكاد يصبغ الحياة كلها بالنكد والقلق والشقاء! ذلك إلى جانب الطلائع التي تشير إليها القضايا الأخلاقية السياسية، التي تباع فيها أسرار الدولة، وتقع فيها الخيانة للأمة، في مقابل شهوة أو شذوذ.. وهي طلائع لا تخطئ على نهاية المطاف!

وليس هذا كله إلا بداية الطريق.. وصدق رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا - على معاصي - ما يحب، فإنما هو استدراج، ثم تلا: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (١).

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٤/١٤٥)، وفي «الزهد» (ص١٢)، والطبراني في «الأوسط» (١١٠/٩)، والبيهقي في «الشعب» (٤/١٢٨)، ورواه ابن جرير في «تفسيره»، وابن أبي حاتم (٤/١٢٩١).

غير أنه ينبغي، مع ذلك، التنبيه إلى أن سنة الله في تدمير (الباطل) أن يقوم في الأرض (حق) يتمثل في (أمة).. ثم يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.. فلا يقعدن أهل الحق كسالى يرتقبون أن تجري سنة الله بلا عمل منهم ولا كد، فإنهم حينئذ لا يمثلون الحق، ولا يكونون أهله.. وهم كسالى قاعدون.. والحق لا يتمثل إلا في أمة تقوم لتقر حاكمية الله في الأرض، وتدفع الرافضين لها من الذين يدعون خصائص الألوهية»<sup>(١)</sup>.

ويعلق ابن القيم رحمه الله تعالى على هذه الآيات فيقول: «فله سبحانه

عقوبتان:

إحداهما: جعله خاطئاً مذنباً لا يحس بألمها ومضرتها؛ لموافقته

شهوته، وإرادته، وهي في الحقيقة من أعظم العقوبات.

والثانية: العقوبات المؤلمة بعد فعله للسيئات.

وقد قرن الله تعالى بين هاتين العقوبتين في قوله: ﴿فَلَمَّا دَسُوا مَا

ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، فهذه العقوبة الأولى.

(١) «في ظلال القرآن» (٣/ ١٠٨٩، ١٠٩٠).

ثم قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾، فهذه العقوبة الثانية.

وأعط هذا الموضوع حقه من التأمل، وانظر كيف ترتبت هاتان العقوبتان إحداهما على الأخرى، لكن العقوبة الأولى عقوبة موافقة لهواه وإرادته، والثانية مخالفة لما يحبه ويتلذذ به، وتأمل عدل الرب تعالى في هذه وهذه، وأنه سبحانه إنما وضع العقوبة في محلها الأولى بها، الذي لا يليق بها غيره» (١).

مما سبق بداية في تفسير الآيات يتبين لنا أن مراحل جريان سنة الله تعالى في العصاة والمكذبين تمر عبر ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: إنزال الله عقوبته بالعصاة والمكذبين بعد إقامة الحجة عليهم، كأخذهم بالبأساء من الفقر وقلة الأرزاق، وظلم بعضهم لبعض، أو بالضراء كالأمرض والأوجاع وفقد الأموال والأولاد، وفي تقدير الله ﷻ لهذه العقوبات تنبيه وإنذار للعصاة لعلهم يتوبون ويرجعون إلى الله ﷻ، ويتضرعون إليه، ويسألونه رفع العقوبة بتركهم لموجباتها.

(١) «الضوء المنير على التفسير» (٣/٣٢).

وهذا معنى قوله سبحانه في الآيات السابقة: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ ﴿٤١﴾ [الأنعام: ٤٢]. فإن هم رجعوا إلى الله عِبْرَتًا بالتوبة رفع الله ما حل بهم من البأساء والضراء، وكانت هذه المصائب خيراً لهم.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٤١﴾ [الروم: ٤١].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ ﴿٩٤﴾ [الأعراف: ٩٤].

المرحلة الثانية: إن لم يعتبر العصاة بما يحل بهم من المصائب بسبب ذنوبهم وعصيانهم، ولم يردهم ذلك إلى الله عِبْرَتًا والتضرع إليه؛ فإن هذا يدل على قسوة في القلوب، زين الشيطان لهم بسببها أعمالهم السيئة وحسنها في قلوبهم وأعينهم، وفي هذه الحال يعاقبهم الله عِبْرَتًا بعقوبة أشد من الأولى، ألا وهي عقوبة السراء والرخاء، وفتح أبواب الدنيا عليهم، وفي هذا استدراج وإملاء ومكر بهم، نسأل الله العافية.

وهذا يعني قوله تعالى في هذه الآيات: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا



ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴿٤٤﴾ [الأنعام: ٤٣، ٤٤].

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزِدُوا إِثْمًا وَهُمْ وَعَدَابُ مُهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨].  
وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأعراف: ٩٥].

المرحلة الثالثة: وهي نتيجة طبيعية للمرحلة الثانية؛ لأن الابتلاء بالرخاء والنعم وانفتاح الدنيا لا يشعر المبتلى بها أنه في عقوبة، وغالبًا ما يغتر بذلك صاحبها ويظن أن ذلك لن يزول عنه فيبتر ويزداد عتوا وإثمًا، حتى يحق فيه خاتمة هذه السنة بالعقوبة المباحة، التي لا تمهله، نسأل الله العافية والسلامة.

قال الله ﷻ عن هذه المرحلة الأخيرة: ﴿فَلَمَّا دَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

وقد تكرر ذكر هذه السنة الإلهية الثابتة المطردة في كثير من سور القرآن الكريم، ومن هذه الآيات:

• قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدَّ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ إِنَّا هَذَا قُلُوبًا قَلِيلًا هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران: ١٦٥].

- وقوله سبحانه: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء: ٧٩].
- وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَبْتَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءَهُمْ وَمَكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا أَحْسَنًا وَتَوَفَّىٰهَا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء: ٦٢].
- وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا أَنْ نُصِيبَهُمْ مُصِيبَةً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [القصص: ٤٧].
- وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا أَدَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الروم: ٣٦].
- وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِلَّا أَلْبَلَعُ وَإِنَّا إِذَا أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾ [الشورى: ٤٨].
- وقوله تعالى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

- وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ ﴿٣٠﴾ [الشورى: ٣٠].
- وقوله سبحانه: ﴿وَكَذٰلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظٰلِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ ﴿١٠٢﴾ [هود: ١٠٢].
- وقوله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].
- وقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوٓءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَٔسٍۭ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ﴿١٦٥﴾ [الأعراف: ١٦٥].
- وقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ﴾ ﴿٢١﴾ [غافر: ٢١].
- وقوله سبحانه: ﴿وَيَنْقُورِ لَا يُجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لُّوطٍ مِّنكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ ﴿٨٩﴾ [هود: ٨٩].

• وقوله سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ۖ﴾ [محمد: ١٠].

• وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ عَالِ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ ﴿٤٢﴾ أَكْفَارَكُمْ حَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيَّتِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ [القمر: ٤١-٤٣].

• وقوله سبحانه: ﴿كَذَّابٍ عَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۖ﴾ [آل عمران: ١١].

• وقوله تعالى: ﴿يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣١﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣٢﴾﴾ [غافر: ٣٠، ٣١].

للم أنواع العقوبات التي ينزلها الله ﷻ على العصاة من عباده:

١- عقوبة المعصية الفردية: وهي المعصية التي تكون بين العبد وربه بفعلها مستتراً غير مجاهر بها، وغالباً ما يرتكبها العبد وهو معتقد حرمتها عاص لله تعالى بفعلها، وقد يتوب منها فيتوب الله ﷻ عليه.

فهذا النوع من المعاصي خطبه سهل، وسنة الله ﷻ فيها أن  
شؤمها وعواقبها وعقوبتها تقتصر على مرتكبها، ولا تتعدى إلى  
غيره، وهي للمؤمن تكفير وتطهير وتحذير.

٢- عقوبة المعصية الجماعية: وهي التي يتواطأ على فعلها عدد كثير من  
المجتمع، ولا يزال العدد يكبر مع السكوت عليها وعدم إنكارها  
حتى يشمل المجتمع كله، وتصبح مألوفة يجاهر بها وينكر على من  
ينكرها، بل قد يصبح فعلها بحال فخر واعتزاز وتناول على  
الآخرين..

وهذا النوع من المعصية خطير جداً وسنة الله ﷻ في عقوباتها أنها  
لا تحيط بمرتكبها فقط بل تعم المجتمع كله، حتى من يشمئز منها  
ولا يفعلها إذا لم ينكرها، ويكون أثرها مدمراً ومروعاً لشمولها  
واتساع مساحتها حتى يتعرض المجتمع الذي فشت فيه بأسره  
لعذاب الله ﷻ وسخطه، وقد قص الله ﷻ علينا قصص الأمم  
السابقة وما حل بها من العذاب، حينما كذبت رسلها، واستمرت  
الشرك والمعاصي، وأصبحت شعاراً عاماً لهم.

قال الله عز وجل: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ ﴿٥٩﴾ [الكهف: ٥٩].

وقال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ۗ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿٢٥﴾ [الأنفال: ٢٥].

وقال ﷺ لزوجته زينب بنت جحش رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عندما سألت: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث» (١).

وبين الله سبحانه لنا سنته المطردة في عقوبة المجتمعات التي تفشو فيها المعاصي، والتي يتواطأ عليها سواد المجتمع، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۗ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ ﴿١٠٢﴾ [هود: ١٠٢].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ ﴿١١٧﴾ [هود: ١١٧].

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «وعقوبات الذنوب نوعان: شرعية وقدرية فإذا أقيمت الشرعية رفعت العقوبات القدرية أو خففتها،

(١) البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠).

ولا يكاد الرب تعالى يجمع على عبده بين العقوبتين، إلا إذا لم يف أحدهما برفع موجب الذنب، ولم يكف في زوال دائه، وإذا عطلت العقوبات الشرعية استحالت قدرية! وربما كانت أشد من الشرعية وربما كانت دونها، ولكنها تعم والشرعية تخص، فإن الرب تبارك وتعالى لا يعاقب شرعاً إلا من باشر الجناية أو تسبب إليها، وأما العقوبة القدرية فإنها تقع عامة وخاصة فإن المعصية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها، وإذا أعلنت ضرت الخاصة والعامة، وإذا رأى الناس المنكر فاشتركوا في ترك إنكاره أو شك أن يعمهم الله تعالى بعقابه» (١).

ومن الآيات التي سبق ذكرها في الحديث عن هذه السنة قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعُضِّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

ولهذه السنة آثار عظيمة ظهرت وتظهر في المجتمعات والأمم، ولا سيما في واقعنا المعاصر؛ حيث ظهرت آثارها وتطبيقاتها بشكل جلي لمن وفقه الله ﷻ لمعرفة سننه وتفسير الأحداث بموجبها،

(١) «الجواب الكافي» (ص ١٧)

ونظرًا لما تعيشه مجتمعات المسلمين اليوم من ظلم وتسلط من حكامها عليها وعدم النظر إلى ذلك في ضوء الآية الكريمة ومعناها، وتفسير ما يحدث للمجتمعات من ضيق وظلم في ضوئها، فأقول وبالله التوفيق:

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى عند هذه الآية: «أي: كذلك من سنتنا أن نولي كل ظالم ظالمًا مثله يؤزه إلى الشر ويحثه عليه، ويزهده في الخير وينفره عنه، وذلك عقوبات الله العظيمة الشنيع أثرها، البليغ خطرها، والذنب ذنب الظالم فهو الذي أدخل الضرر على نفسه، وعلى نفسه جنى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، ومن ذلك أن العباد إذا كثر ظلمهم وفسادهم ومنعهم الحقوق الواجبة ولي عليهم ظلمة يسومونهم سوء العذاب، ويأخذون منهم بالظلم والجور أضعاف ما منعوا من حقوق الله وحقوق عباده على وجه غير ماجورين فيه ولا محتسبين.

كما أن العباد إذا صلحوا واستقاموا أصلح الله رعاتهم، وجعلهم أئمة عدل وإنصاف، لا ولاة ظلم واعتساف»<sup>(١)</sup>.

---

(١) «تفسير السعدي» (ص ٢٧٣).



من هذا الشرح لهذه الآية الكريمة يتبين لنا معناها، وذلك أن من سنن الله ﷻ الماضية في عباده، والتي لا تتبدل ولا تتحول: أن الأمة إذا فشا فيها الظلم والمعاصي بين أفرادها، ولاسيما المعاصي الظاهرة وقلَّ الإنكار لها، فإن الله ﷻ يسلط عليهم ظالمًا أقوى منهم، يظلمهم ويضيق عليهم في عيشتهم وأرزاقهم، ويمنع عنهم حقهم، ويضرب عليهم الضرائب والمكوس، التي تسبب لهم المشقة والعناء والعنت في حياتهم.

ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

ولا يعني هذا تبرئة الظالم المتسلط على الناس من حاكم أو وال أو رئيس ومدير، أو تبرير لظلمه فإنه ظالم آثم بمنعه الناس حقوقهم، وبفرضه عليهم ما لم يفرضه الله ﷻ عليهم، ولكن المراد تفسير ما يحدث وبيان سنة الله ﷻ في أن الظالمين

لأنفسهم بالمعاصي وللناس بمنعهم حقوقهم إذا أصروا على ذلك؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ يسلط عليهم مَنْ هو أظلم منهم، جزاء معاصيهم وظلمهم لعلهم يتوبون ويرجعون ﴿وَمَا كَانُ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

بل إن الله عَزَّوَجَلَّ وفي ضوء هذه السنة يسلط على الحاكم المستبد الذي يظلم رعيته وينشر فيهم الفساد ظالماً أظلم منه وأقوى، يستبيح البلاد، ويدمر اقتصادها، ويذل ولائها، وهكذا تعمل هذه السنة الإلهية في تسليط الظالمين بعضهم على بعض، وصدق الله العظيم: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤْتِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [١٢٩].

وصدق الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى حين قال: «إذا رأيت ظالماً ينتقم من ظالم فقف وتعجب!».

لله واقعنا في ضوء هذه السنة:

إنه لا يخفى ما تعانيه اليوم الشعوب المسلمة في بلدانها من نقص في الأموال والثمرات، وما يفرضه حكام هذه الشعوب عليهم من ضرائب ومكوس، وتضييق عليهم في أرزاقها ومعيشتها، فانتشرت البطالة والغلاء

الفاحش في الأرزاق، وأصبح الناس في ضيق من الحال، وعاشوا حياة العنت في أرزاقهم ومعاشهم، وانقسم الناس في مواقفهم من هذه المصائب ومواجهتهم لها إلى فريقين:

الفريق الأول: وهم الأكثرون، الذين نظروا إلى ما حل بهم من النقص في الأموال والأرزاق وغلاء المعيشة بأنه ظلم حل بهم من أصحاب القرار، ولا شك أنه ظلم، ولكن مصيبة هذا الفريق أنهم وقفوا عند الحديث عن مظلوميتهم وألقوا بالأسباب كلها على من ظلمهم، ولم يسألوا أنفسهم: لماذا حل بنا هذا الظلم، وما هي أسبابه؟ وهل نحن جزء من هذه الأسباب؟

إن هذا البُعد قد غيبه هذا الفريق عن عقولهم، ونظروا إلى أنفسهم وكأنهم أولياء الله صالحون، ليس لهم من الذنوب ما يعاقبون بسببها، وبسبب هذه النظرة المادية إلى ما يحدث من المصائب تخلف العلاج الصحيح لهذه المصيبة، وأخطئوا الطريق الصحيح الذي يرفع الله بها البلاء عن الناس، وكان من جرّاء ذلك أن بات الناس يدوكون ويخوضون في مجالسهم وفي مواقع التواصل الاجتماعي فيما حل بهم، ولماذا يكون كذا، ولماذا لا يكون كذا؟ وأخطأ فلان وأصاب فلان، وطرف يتظلم، وآخر يبرر، وظهر على

الناس الهلع والخوف على الأرزاق، وماذا يخفي المستقبل لهم، وغير هذا من التخوفات والتحليلات، وأكرر هنا ما ذكرته آنفاً من أن هذا ليس مبرراً ولا تبرئة لظلم المتسلطين، فهم جزء من أسباب المصيبة، وليس كلها.

الفريق الثاني: وهم الذين استضاءوا بنور القرآن الكريم، وما فيه من كلام رب العالمين، الذي هو الحق المبين، وتدبروا سنته سبحانه، التي قد خلت في عبادته، وساروا في ضوئها، وفسروا الأسباب والحوادث بمقتضاها، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعُضِّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٢٩)، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٣٠).

ورأوا أنه ما وقع بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبه.. وفي ضوء ذلك رأوا أن الظلم الذي يسلط على الناس من سلاطينهم لم يحصل عبثاً، ولا لمجرد خطأ وظلم فحسب من أصحاب القرار، وإنما هي سنة الله عَزَّ وَجَلَّ في تسليط الولاة على رعاياهم بأنواع من الظلم، بسبب ما أحدثوه من المعاصي والبدع والمظالم بينهم، جزاءً وفاقاً، وذلك بسبب ظلمهم لأنفسهم ولغيرهم، كما مر بنا آنفاً في تفسير الآية الكريمة، وإن هذه النظرة الشرعية الصحيحة من هذا الفريق تقودهم بإذن الله عَزَّ وَجَلَّ إلى معرفة المخرج والطريق

الذي يسلكونه ليرفع الله ما حل بهم من المصائب، ألا وهي التوبة إلى الله تعالى والإنابة إليه، والإقلاع عن موجبات العقوبة والبلاء.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «وتأمل حكمته تعالى في أن جعل ملوك العباد وأمراءهم وولاتهم من جنس أعمالهم، بل كأن أعمالهم ظهرت في صور وولاتهم وملوكهم، فإن استقاموا استقامت ملوكهم، وإن عدلوا عدلت عليهم، وإن جاروا جارت ملوكهم وولاتهم، وإن ظهر فيهم المكر والخديعة فولاتهم كذلك، وإن منعوا حقوق الله لديهم وبخلوا بها منعت ملوكهم وولاتهم ما لهم عندهم من الحق وبخلوا بها عليهم، وإن أخذوا ممن يستضعفونه ما لا يستحقونه في معاملتهم أخذت منهم الملوك ما لا يستحقونه وضربت عليهم المكوس والضرائب، وكل ما يستخرجونه من الضعيف يستخرجه الملوك منهم بالقوة، فعمَّالهم ظهرت في صور أعمالهم، وليس في الحكمة الإلهية أن يولي على الأشرار الفجار إلا من يكون من جنسهم، ولما كان الصدر الأول خيار القرون وأبرها كانت وولاتهم كذلك، فلما شابوا شابت لهم الولاية، فحكمة الله تأبى أن يولي علينا في مثل هذه الأزمان مثل معاوية وعمر بن عبد العزيز، فضلاً عن مثل أبي بكر وعمر، بل

ولاتنا على قدرنا، وولاية من قبلنا على قدرهم، وكل من الأمرين موجب الحكمة ومقتضاها»<sup>(١)</sup>.

لله من ثمرات المعرفة بهذه السنة الإلهية:

من خلال الآيات الكثيرة من كتاب الله ﷻ، ومنها الآيات التي ذكرتها آنفاً والمتضمنة لهذه السنة العظيمة، يتبين لنا أهمية هذه السنة، وأحسب -وبالاستقراء- لكتاب الله ﷻ: أن هذه السنة من أكثر السنن وروداً في كتاب الله ﷻ إن لم تكن أكثرها، وذلك من خلال تكرارها في مواطن كثيرة من القرآن، كما أحسب أن هذه السنة تعد أصلاً لكثير من السنن ترجع إليها، أو تعد من ثمراتها ولوازمها.

ولهذه السنة ثمرات وآثار ينفع الله بها من يشاء من عباده، فيوفقهم بمعرفتها إلى المنهج الصحيح للتعامل مع الأحداث، وإلى المخرج المنجي من الفتن والمصائب، وإلى الميزان العدل في المواقف والأحكام، ولاسيما في زماننا اليوم، الذي قل فيه من يذكر بهذه السنة، ويفسر بها الأحداث، وأسوق فيما يأتي أهم هذه الثمرات.

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/٢٥٤).



سنة الله ﷻ في عقوبة أهل المعاصي تجعل المؤمن يعرف سبب العقوبة وسبب رفعها، فما وقع بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام: ٤٣].

رابعًا: ومن ثمرات المعرفة بهذه السنة العظيمة: أن في ذلك بابًا من أبواب محاسبة العبد المؤمن لنفسه، وذلك بأن يبحث المسلم في نفسه عندما يحل به ضرر في نفسه أو ماله أو أهله، وذلك ليقينه بأن ذلك بما كسبت يده من ذنوب، وفي هذا منفعة للعبد بأن يتوب إلى الله ﷻ، ويتضرع إليه لرفع ما أصابه بسبب ذنوبه، وفي هذا تطهير من الذنوب وندم على فعلها، والحذر من الوقوع فيها بعد ذلك، وكلما زادت درجة التقوى في قلب المؤمن ازداد عنده هذا الشعور وهذه المحاسبة، وفور ما يشعر بضرر المصيبة التي تحل به، فإنه يحاسب نفسه، وأنه أتى من قبلها، قبل أن يلقي باللائمة على الأسباب الخارجية الأخرى.

خامسًا: ثمرة معرفة هذه السنة على الدعاة إلى الله ﷻ والمجاهدين في سبيله، ومحاسبتهم لأنفسهم حينما يتأخر نصر الله ﷻ، أو تحل المصائب والهزائم بهم، وأن ذلك بسبب الذنوب ما ظهر



منها وما بطن، والتي تؤدي إلى الفرقة والتناحر والتدابر وحينها يحل الفشل وذهاب الريح، ماذا وإذا أراد الله عِبَادَتَهُ بالدعاة والمجاهدين خيرًا بَصَّرَهُم بعيوبهم وذنوبهم، ورزقهم التوبة منها والإقلاع عنها، وحينها ينزل نصره سبحانه الذي وعده لعباده المؤمنين؛ ولذا كانت وصية الأمراء لأجنادهم: التحذير من الذنوب والمعاصي، وأنها من أسباب الفشل والهزائم، ومن أخطر الذنوب التفرق والتنازع، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُهُمْ وَتَذَهَبَ رِيحُهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وحين يدرك الدعاة والمجاهدون هذه السنة وموجباتها، فإنهم يرجعون عند المصيبة باللائمة على أنفسهم، ويتفقدونها من الذنوب والمعاصي قبل أن يلقوا باللائمة على أسباب خارجية من مؤامرات أو كثرة أعداد وعدد الكفار أو نحو ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَأَيُّضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠]. ومفهوم الآية أنه حينما يصل كيد الأعداء وضرره إلى المسلمين فإنما هو بضعف التقوى، التي هي فعل المأمور وترك المنهي، أو ضعف الصبر أو ضعفهما جميعًا.

فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما أتاه خبر فتح خراسان قال للناس في المدينة: «لا تبدلوا ولا تغيروا، فيستبدل الله بكم غيركم، فإني لا أخاف على هذه الأمة إلا أن تؤتى من قبلكم»<sup>(١)</sup>.

سادساً: ومن ثمار معرفة هذه السنة الإلهية العظيمة أنها تقود لمعرفة سنة الله عز وجل في تغيير الأحوال على الفرد والمجتمع من الشدة إلى الرخاء، ومن الرخاء إلى الشدة، قال الله عز وجل: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عند هذه الآية: «أخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمته التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه، فيغير طاعة الله بمعصيته وشكره بكفره وأسباب رضاه بأسباب سخطه، فإذا غيّر غير غير عليه جزاء وفاقاً ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، فإن غير المعصية بالطاعة غير الله عليه العقوبة بالعافية، والذل بالعز، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ

(١) «تاريخ الطبري» (٤/ ١٧٣).

مَا يَقُومُ حَتَّى يَغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۗ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾ [الرعد: ١١] (١).

وفي فهم سنة الله ﷻ في التغيير فائدة للمُصلِحين والمجاهدين في هذه الأمة في معرفة الميزان الشرعي والتفسير الصحيح لحدوث المصائب وطريق الخروج منها، وكيف نغير من أحوالنا، ومن هذا يبرز أثر أهل العلم والدعاة والمُصلِحين في إيقاظ الأمة ونهضتها، ببيان أسباب الهلاك والنجاة لها.

سابعًا: ومن ثمار العلم بهذه السنة وآثارها الطمأنينة النفسية للعالم بها، وانضباط موازينه وتفكيره ومواقفه وأحكامه، وعلى العكس من ذلك عندما يجهلها أو يستخف بها، فلا تجد عنده إلا الحيرة والاضطراب في الموازين والتفكير والمواقف والأحكام، وعدم الاهتداء إلى الطريق الصحيح للخروج من الأزمات، فإنهم يصابون ولا يدرون من أين أتوا.

ونظرة سريعة إلى هؤلاء الذين خلت قلوبهم من معرفة الله ﷻ وأسمائه وصفاته الحسنی وستته الثابتة المطردة، كيف أننا

(١) «الجواب الكافي» (ص ٤٩).

نجدهم في تفسيراتهم المادية يعمهون، وفي تحليلاتهم وتوقعاتهم يتخبطون، وفي أحكامهم ومواقفهم يائسون محبطون ومتناقضون متخرصون، وقريباً من هؤلاء من يعطلُّ سنة الأخذ بالأسباب، بحجة الإيمان بالقضاء والقدر والتوكل على الله عَزَّوَجَلَّ، أو يتعلق بها ناسياً خالقها ومسببها، وهو الله عَزَّوَجَلَّ.

ثامناً: التفاؤل بنصر هذا الدين وإهلاك أعدائه الكفرة، الذين بارزوا الله عَزَّوَجَلَّ بكفرهم وفسادهم وظلمهم لعباده المؤمنين، فهم ليسوا بمنأى عن هذه السنة العظيمة، فكما أهلك الله عَزَّوَجَلَّ من قبلهم من المكذبين والكافرين والظالمين؛ فإن سننه سبحانه مطردة وشاملة، ولا يخرج عنها فرد ولا مجتمع ولا أمة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا شَيْعَاكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٥١﴾﴾  
[القمر: ٥١].

وعليه؛ فإن ما يسمى بالحضارة الغربية أو الشرقية ليس لها استثناء من الإهلاك أو حصانة من الزوال والعقاب، لاسيما أنها بلغت الذروة في الظلم والكفر والاستكبار، ولقد اجتمع فيها ما تفرَّق في الأمم السابقة من الكفر والظلم والانحلال الخلقي،

حتى وصل في هذه الحضارة الممسوخة أن يعطى تصريح بأن ينكح الذكر الذكر، وأن يكون لهم أحزاب وهيئات تمثلهم، إن أمة وصلت إلى هذا الدرك من الانحطاط الخلقى الذي تربأ العجماوات من البهائم أن تصل إليه لَحْرِيَّةً بالهلاك العاجل والسقوط الذريع والله غالب على أمره وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير، ولا يعني هذا التفاؤل الاستئامة والكسل والقعود عن نصره الحق ومدافعة الباطل، بل لابد من القيام بذلك.

وهذا هو ما سأحدث عنه في السنة التالية (سنة المدافعة) إن شاء الله تعالى.

﴿ شبهة وجوابها: ﴾

قد يشكك بعض الناس في هذه السنة، حينما يرى أن بعض الظالمين أو الكافرين قد مكَّن لهم في الأرض، يفسدون فيها، ويظلمون الناس، ثم هو لا يرى عقوبة الله فيهم بالهلاك والدمار، بل قد يموت جيل بأكمله وهو لم ير تحقق مشيئة الله عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي إِهْلَاكِهِمْ.

وفي الجواب على هذه الشبهة يمكن أن يقال: إن السنة أثرها بعيد، وقد يطول الفارق والزمن الفاصل بين السبب والنتيجة، قد لا يدركه الإنسان في

عمره المحدود، إنما يدركه الذين ينظرون إلى مساحة واسعة، ربما امتدت لزمن طويل من الظلم الذي يقع ومن عقوبته وربما امتدت إلى عمر جيل بأكمله، الله أعلم وأحكم في تقديره، فهو سبحانه مقدر الأقدار، وهو علام الغيوب.

وفي ذلك يقول د، السلمي: «السنة الربانية قد تستغرق وقتاً طويلاً لكي ترى متحققة في حين أن عمر الفرد محدود، ولذلك قد لا يمكنه رؤية السنن متحققة في حياته، بينما يظهرها الله ﷻ في جيل آخر بعلمه وحكمته... فالسنة الربانية لأبد أن تقع، ولكن لما كان عمرها أطول من عمر الفرد - بل ربما أطول من أعمار أجيال - فإنها تُرى متحققة من خلال التاريخ الذي يثبت أن سنة الله ﷻ ثابتة لا تتبدل» (١).

وسياتي مزيد من معالجة هذه الشبهة في الحديث عن سنة الإماء إن شاء الله تعالى.



(١) «منهج دراسة التاريخ الإسلامي» (ص ٦١)

## السُّنَّةُ الثَّانِيَّةُ سُنَّةُ اللَّهِ ﷻ فِي الْمَدَافِعَةِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ

ومن الآيات التي تتحدث عن هذه السنة وتبرزها في سورة الأنعام ما يأتي:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

وقد جاء ذكر هذه السنة في آيات مماثلة في سور أخرى من القرآن منها:

• قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

• وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ هَدَمْتَ صَوْمِعُ وَيَعُ﴾

وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ  
يَنْصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ [الحج: ٤٠].

• وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَى بِرَبِّكَ  
هَادِيًّا وَنَصِيرًا﴾ ﴿٣١﴾ [الفرقان: ٣١].

• وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنصُرَهُ مِنْهُمْ وَلَٰكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ  
بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

• وجاء في الحديث القدسي قول الله ﷻ: «إِنَّمَا  
بِعَثِّكَ لِأَبْتَلِيكَ، وَأَبْتَلِي بِكَ»<sup>(١)</sup>.

يقول الشيخ السعدي في تفسير آية الأنعام: «يقول الله مسلماً لرسوله  
ﷺ: وكما جعلنا لك أعداء يردون دعوتك ويحاربونك، ويحسدونك، فهذه  
ستتنا أن نجعل لكل نبي نرسله إلى الخلق أعداء من شياطين الإنس والجن،  
يقومون بضد ما جاءت به الرسل. ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ  
عُزْمُورًا﴾. أي: يزين بعضهم لبعض الأمر الذي يدعون إليه من الباطل،  
ويزخرفون له العبارات حتى يجعلوه في أحسن صورة، ليغتر به السفهاء،

(١) صحيح مسلم (٢٨٦٥).



وينقاد له الأغبياء الذين لا يفهمون الحقائق، ولا يفقهون المعاني، بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة، والعبارات المموهة، فيعتقدون الحق باطلاً والباطل حقاً، ولهذا قال: ﴿وَلِنَصِّغَنَّ إِلَيْهِ﴾. أي: ولتتميل إلى ذلك الكلام المزخرف ﴿أَفَعِدَّةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾، لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر وعدم عقولهم النافعة، يحملهم على ذلك، ﴿وَلَيَرْضَوْهُ﴾ بعد أن يصغوا إليه، فيصغون إليه أولاً فإذا مالوا إليه ورأوا تلك العبارات المستحسنة رضوه، وزين في قلوبهم، وصار عقيدة راسخة، وصفة لازمة، ثم ينتج من ذلك أن يقترفوا من الأعمال والأقوال ما هم مقترفون، أي: يأتون من الكذب بالقول والفعل، ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة، فهذه حال المغترين بشياطين الإنس والجن، المستجيبين لدعوتهم، وأما أهل الإيمان بالآخرة، وأولو العقول الوافية والألباب الرزينة، فإنهم لا يغترون بتلك العبارات، ولا تخلبهم تلك التمويهات، بل همتهم مصروفة إلى معرفة الحقائق، فينظرون إلى المعاني التي يدعو إليها الدعاة، فإن كانت حقاً قبلوها، وانقادوا لها، ولو كسيت عبارات ردية، وألفاظاً غير وافية، وإن كانت باطلاً ردوها على من قالها، كائناً من كان، ولو ألبست من العبارات المستحسنة ما هو أرق من الحرير.

ومن حكمة الله تعالى، في جعله للأنبياء أعداء، وللباطل أنصارًا قائمين بالدعوة إليه، أن يحصل لعباده الابتلاء والامتحان، لتمييز الصادق من الكاذب، والعاقل من الجاهل، والبصير من الأعمى.

ومن حكمته أن في ذلك بيانًا للحق، وتوضيحًا له؛ فإن الحق يستتير ويتضح إذا قام الباطل يصرعه ويقاومه. فإنه - حينئذ - يتبين من أدلة الحق، وشواهد الدالة على صدقه وحقيقته، ومن فساد الباطل وبطلانه، ما هو من أكبر المطالب، التي يتنافس فيها المتنافسون»<sup>(١)</sup>.

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية: «والمشهد الذي يرسمه القرآن الكريم للمعركة بين شياطين الإنس والجن من ناحية، وكل نبي وأتباعه من ناحية أخرى، ومشية الله المهيمنة وقدره النافذة من ناحية ثالثة.. هذا المشهد بكل جوانبه جدير بأن نقف أمامه وقفة قصيرة:

إنها معركة تتجمع فيها قوى الشرف في هذا الكون.. شياطين الإنس والجن.. تتجمع في تعاون وتناسق لإمضاء خطة مقرر.. هي عداة الحق الممثل في رسالات الأنبياء وحربه.. خطة مقرر فيها وسائلها

---

(١) «تفسير السعدي» (١/١٦٩، ٢٧٠).

﴿يُوحَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ عُرُورًا﴾، يمد بعضهم بعضًا بوسائل الخداع والغواية، وفي الوقت ذاته يغوي بعضهم بعضًا! وهي ظاهرة ملحوظة في كل تجمع للشر في حرب الحق وأهله.. إن الشياطين يتعاونون فيما بينهم، ويعين بعضهم بعضًا على الضلال أيضًا! إنهم لا يهدون بعضهم البعض إلى الحق أبدًا، ولكن يزين بعضهم لبعض عداء الحق وحربه، والمضي في المعركة معه طويلاً.

ولكن هذا الكيد كله ليس طليقاً.. إنه محاط به مشيئة الله وقدره.. لا يقدر الشياطين على شيء منه، إلا بالقدر الذي يشاؤه الله وينفذه بقدره، ومن هنا يبدو هذا الكيد -على ضخامته وتجمع قوى الشر العالمية كلها عليه- مقيداً مغلولاً! إنه لا ينطلق كما يشاء بلا قيد ولا ضابط، ولا يصيب من يشاء بلا معقب ولا مراجع، كما يحب الطغاة أن يلقوا في رُوع مَنْ يعبدونهم من البشر، ليعلقوا قلوبهم بمشيئتهم وإرادتهم.. كلا! إن إرادتهم مقيدة بمشيئة الله وقدرتهم محدودة بقدر الله، وما يضررون أولياء الله بشيء إلا ما أَرَادَهُ اللهُ -في حدود الابتلاء- ومرد الأمر كله إلى الله.

ومشهد التجمع على خطة مقررة من الشياطين جدير بأن يسترعي وعي أصحاب الحق؛ ليعرفوا طبيعة الخطة ووسائلها.. ومشهد إحاطة مشيئة

الله وقدره بخطة الشياطين وتديبرهم جدير كذلك بأن يملأ قلوب أصحاب الحق بالثقة والطمأنينة واليقين، وأن يعلق قلوبهم وأبصارهم بالقدرة القاهرة والقدر النافذ، وبالسلطان الحق الأصيل في هذا الوجود، وأن يطلق وجدانهم من التعلق بما يريد أو لا يريد الشياطين! وأن يمضوا في طريقهم بينون الحق في واقع الخلق، بعد بنائه في قلوبهم هم وفي حياتهم، أما عداوة الشياطين، وكيد الشياطين، فليدعوها للمشيمة المحيطة والقدر النافذ، لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَّهُمْ وَمَا يَقْتُوبُونَ﴾ (١).

معنى التدافع والمدافعة:

جاء في «لسان العرب»: «الدفع الإزالة بقوة، والمدافعة: المزاحمة، والاندفاع المضي في الأمر، وجاء في «المعجم الوسيط»: دفع الشيء إذا نحاه وأزاله بقوة».

وفي القرآن الكريم: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾. ودفع القول: رده بالحجة، ودفع فلاناً إلى كذا: اضطره، دافع عنه: حامى عنه وانتصر له، ودافع: زاحمه، ويقال هو سيد قومه غير مدافع:

(١) «في ظلال القرآن» (٣/ ١١٩١).

أي: غير مزاحم وتدافع القوم: دفع بعضهم بعضًا» (١).

المقصود بالحق والباطل والتدافع بينهما: يراد بالحق هنا ما هو ثابت وصحيح وواجب فعله أو بقاءه من اعتقاد أو قول أول فعل بحكم الشرع، ويراد بالباطل نقيض الحق، أي: ما لا ثبات له ولا اعتبار، ولا يوصف بالصحة، ويستوجب الترك، ولا يستحق البقاء، بل يستوجب القلع والإزالة، وكل ذلك بحكم الشرع، وعلى هذا فالحق يشمل كل ما أمر الله، والباطل يشمل كل ما نهى الله عنه، ويراد (بالتدافع بين الحق والباطل) تنحية أحدهما للآخر، أو إزالته ومحوه بالقوة عند الاقتضاء.

وقد قضت سنة الله تعالى في تدافع الحق والباطل: أن الغلبة للحق وأهله، وأن الاندحار والمحق للباطل وأهله، قال تعالى: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [الشورى: ٢٤].

وقال سبحانه: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١].

وقال سبحانه: ﴿بَلْ نَقَدِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾

[الأنبياء: ١٨].

(١) انظر: «لسان العرب» (٨/ ٨٧).

وجاء في تفسير الرازي بشأن قوله تعالى: ﴿وَمَحُّ اللَّهِ الْبَاطِلَ وَحُجُّ الْحَقِّ بِكَلِمَتِهِ﴾: «أي: ومن عادة الله إبطال الباطل وتقرير الحق».

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾، وجاء في تفسيرها: «وهذه قاعدة عامة مبينة لسنة الله في تنازع الحق والباطل والصلاح والفساد، ويدخل فيه سحر سحرة فرعون فإنه باطل وفساد؛ أي: لا يجعل عمل المفسدين صالحًا».

وكما سبق فإن كلمة (تدافع) تعني في اللغة الإزالة بقوة، فتدافع الحق والباطل؛ أي: تدافع أصحابهما يكون بقوة، حيث يسعى كلٌّ من أهل الحق والباطل إلى تنحية الآخر عن مكانه ومركزه والغلبة عليه، فأهل الباطل لا يكفيهم بقاؤهم على باطلهم، وإنما يسعون إلى محق الحق وأهله، وإزالة هذا الحق بالقوة، وصد الناس عنه ببذل المال وبالقتال، وبكل ما يرون فيه قوة وقدرة لتحقيق ما يريدون.

قال تعالى عن قوم شعيب عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨].

وهذا هو شأن الباطل وقوته، تطغيه هذه القوة فتدفعه إلى إزالة الحق وأهله ولو بالقوة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ<sup>ع</sup> فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴿٣٦﴾ [الأنفال: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقْتَلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا ﴿٢١٧﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقتل الكفرة للمؤمنين قتال لنصرة باطلهم فهو في سبيل الطاغوت، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ<sup>ط</sup> وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ الْأَطْغُوتِ ﴿٧٦﴾ [النساء: ٧٦].

والتدافع بين الحق والباطل؛ أي: بين أصحابهما أمر لا بد منه وحتمي، لأنهما ضدان، والضدان لا يجتمعان، ولأن تطبيق أحدهما يستلزم مزاحمة الآخر وطرده ودفعه وإزالته، أو في الأقل إضعافه ومنعه من أن يكون له تأثير في واقع الحياة، فلا يتصور إذن أن يعيش الحق مع الباطل في سلم من دون غلبة أحدهما على الآخر، إلا بضعف أصحابهما أو جهلهم بمعاني الحق والباطل، ومقتضيات ولوازم هذه المعاني<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: «السنن الإلهية»، د. عبد الكريم زيدان (ص ٤٣) باختصار وتصرف يسير.

والمدافعة تكون باليد والسنان، كما تكون بالقلم واللسان، مدعومة بالمال والنفقات، قال ﷺ: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأيديكم وألستكم»<sup>(١)</sup>.

للمن من ثمرات المعرفة بهذه السنة العظيمة «سنة المدافعة»:

الثمرة الأولى: معرفة الحكم العظيمة لهذه السنة:

إن تدبر الآيات الكريمت التي سبق ذكرها وما يماثلها في القرآن الكريم ليقودنا إلى التعرف على بعض الحكم الإلهية، من وجود الصراع بين الحق والباطل، وابتلاء عباد الله المؤمنين بعباده وأعدائه الكافرين.

وقبل ذكر هذه الحكم التي لا نقطع بها يحسن ذكر ما كتبه سيد قطب رحمه الله تعالى مجيباً على من يسأل عن حكمته سبحانه في كون هذا الدين لا ينتشر إلا بجهد البشر، ومدافعة أهل الحق لأهل الباطل، ولو شاء الله ﷻ لأهلك أعداءه وأعداء أوليائه دون هذا البلاء كله.

يقوله ﷻ: «وليس لأحد من خلقه أن يسأله: لماذا شاء هذا؟ ما دام أن أحداً من خلقه ليس إلهاً! وليس لديه العلم ولا إمكان العلم بالنظام الكلي

(١) صححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٢٦٢).



للكون، وبمقتضيات هذا النظام في طبيعة كل كائن في هذا الوجود،  
وبالحكمة المغيبة وراء خلق كل كائن بهذا (التصميم) الخاص!

ولكن قد يسأل ذلك جاهل بحقيقة الألوهية.. فالسبيل لإجابة هذا  
الجاهل ليس هو الجواب المباشر، إنما هو تعريفه بحقيقة الألوهية حتى  
يعرفها فهو مؤمن، أو ينكرها فهو ملحد.. وبهذا ينتهي الجدل إلا أن يكون  
مراء!

ليس لأحد من خلق الله إذن يسأله - سبحانه - لماذا شاء أن يخلق  
الكائن الإنساني بهذه الفطرة؟ ولماذا شاء أن تبقى فطرته هذه عاملة لا تمحى  
ولا تعدل ولا تعطل؟ ولماذا شاء أن يجعل المنهج الإلهي يتحقق في حياته  
عن طريق الجهد البشري وفي حدود الطاقة البشرية؟

ولكن لكل أحد من خلقه أن يدرك هذه الحقيقة؛ ويراها وهي تعمل في  
واقع البشرية، ويفسر التاريخ البشري على ضوءها؛ فيفقه خط سير التاريخ  
من ناحية، ويعرف كيف يوجه هذا الخط من ناحية أخرى.

لقد اقتضت حكمة الله ﷻ ومشيئته أن هذا المنهج الإلهي الذي يمثله  
الإسلام - كما جاء به محمد ﷺ - لا يتحقق في الأرض في دنيا الناس بمجرد

تنزله من عند الله، ولا يتحقق بمجرد إبلاغه للناس وبيانه، ولا يتحقق بالقهر الإلهي على نحو ما يُمضي الله ناموسه في دورة الفلك وسير الكواكب، وترتب النتائج على أسبابها الطبيعية، إنما يتحقق بأن تحمله مجموعة من البشر تؤمن به إيماناً كاملاً وتستقيم عليه بقدر طاقاتها وتجعله وظيفة حياتها وغاية آمالها، وتجتهد لتحقيقه في قلوب الآخرين.. وتجاهد لهذه الغاية بحيث لا تستبقي جهداً ولا طاقة.. وتجاهد الذين يدفعهم الضعف والهوى للوقوف في وجه هذا المنهج»<sup>(١)</sup>.

ومن الحكم التي نلتمسها في سنة المدافعة ما يلي:

أولاً: حكمة الابتلاء والتمحيص وتمييز الخبيث من الطيب، التي لا تحصل إلا بصراع الحق مع الباطل، وقد مر بنا قول الله **عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾** [محمد: ٤].

وكذلك قوله **ﷺ** في الحديث القدسي: «وإنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك»<sup>(٢)</sup>.

---

(١) «في ظلال القرآن» (١/ ٥٢٧).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٨٦٥).

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى بعض الحكم والغايات التي كانت في موقعة غزوة أحد، التي ابتلي فيها المؤمنون بلاءً عظيمًا، فقال: «ومنها: أن حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم جرت بأن يُدألوا مرة ويُدال عليهم أخرى، لكن يكون لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائمًا دخل معهم المؤمنون وغيرهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انتصر عليهم دائمًا لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة، فاقترضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين، ليميز من يتبعهم ويطيعهم للحق وما جاءوا به، ممن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة.

ومنها: أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب؛ فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر وطار لهم الصييت، دخل معهم في الإسلام ظاهرًا من ليس معهم فيه باطنًا، فاقترضت حكمة الله ﷻ أن سبب لعباده محنة ميزت بين المؤمن والمنافق، فأطلع المنافقون رءوسهم في هذه الغزوة، وتكلموا بما كان يكتمونونه، وظهرت مخبأتهم، وعاد تلويحهم تصريحًا، وانقسم الناس إلى كافر ومؤمن ومنافق انقسامًا ظاهرًا، وعرف المؤمنون أن لهم عدوًّا في نفس دورهم وهم معهم لا يفارقونهم، فاستعدوا

لهم وتحرزوا منهم» (١).

وهاهي الأحداث المعاصرة والنوازل المزلزلة في بلدان المسلمين في سوريا والعراق وأفغانستان وغيرهم كم كشفت من المنافقين والرافضة الباطنيين وعملاء الكافرين؛ حيث تساقطت الأقنعة عن وجوه هؤلاء، وأظهرت هذه الابتلاءات نفاقهم وزندقتهم وخبث طوبيتهم وعداءهم للإسلام وأهله، وتمييز الخبيث من الطيب، وفي ذلك خير ومصلة عظيمة لم تكن لتتحقق لولا هذه الابتلاءات والنوازل، والمدافعات، وسبحان الله العليم الحكيم العزيز الرحيم!

ثانياً: ما في ذلك الخير الذي يسوقه الله عَزَّوَجَلَّ إلى أوليائه بالابتلاء في استخراج عبوديتهم وظهور صدقها في السراء والضراء، وظهور من ينصره ورسله بالغيب، وهذا لا يكون إلا بتسليط أعدائه سبحانه على أوليائه.

وفي ذلك يقول ابن القيم -رحمه الله تعالى-: «ومنها: استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السراء والضراء وفيما يحبون وما

(١) «زاد المعاد» (٣/١٩٧).

يكرهون، وفي حال ظفرهم وظفر أعدائهم بهم؛ فإذا ثبتوا على الطاعة والعبودية فيما يحبون وما يكرهون فهم عبيده حقاً، وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد من السراء والنعمة والعافية»<sup>(١)</sup>.

ويقول في موطن آخر: «والمقصود بالقصد الأول إتمام نعمته تعالى على أوليائه ورسله وخاصته، فاستعمال أعدائه فيما تكمل به النعمة على أوليائه غاية الحكمة، وكان في تمكين أهل الكفر والفسق والعصيان من ذلك إيصال إلى الكمال، الذي يحصل لهم بمعادة هؤلاء وجهادهم والإنكار عليهم والموالاتة فيه والمعادة فيه، وبذل نفوسهم وأموالهم وقواهم له، فإن تمام العبودية لا يحصل إلا بالمحبة الصادقة، وإنما تكون المحبة صادقة إذا بذل فيها المحب ما يملكه من مال ورياسة وقوة في مرضاة محبوبه والتقرب إليه، فإن بذل له روحه كان هذا أعلى درجات المحبة، ومن المعلوم أن من لوازم ذلك التي لا يحصل

(١) «زاد المعاد» (٣/ ١٩٨).

إلا بها أن يخلق ذواتاً وأسباباً وأعمالاً وأخلاقاً وطبائع تقتضي معاداة من يحبه ويؤثر مرضاته لها، وعند ذلك تتحقق المحبة الصادقة من غيرها، فكل أحد يحب الإحسان والراحة والدعة واللذة، ويحب من يوصل إليه ذلك ويحصله له، ولكن الشأن في أمر وراء هذا وهو محبته سبحانه، ومحبة ما يحبه مما هو أكره شيء إلى النفوس، وأشق شيء عليها مما لا يلائمها، فعند حصول أسباب ذلك يتبين من يحب الله لذاته، ويحب ما يحب ممن يحبه لأجل مخلوقاته فقط من المأكل والمشرب والمنكح والرياسة؛ فإن أعطي منها رضي، وإن منعها سخط وعتب على ربه، وربما شكاه، وربما ترك عبادته، فلولا خلق الأضداد وتسلط أعدائه وامتحان أوليائه لم يستخرج خاص العبودية من عبيده الذين هم عبيده، ولم يحصل لهم عبودية الموالاة فيه والمعاداة فيه، والحب فيه والبغض فيه، والعطاء له والمنع له، ولا عبودية بذل الأرواح والأموال والأولاد والقوى في جهاد أعدائه ومضرتهم، ولا عبودية مفارقة الناس أحوج ما يكون إليهم عنده لأجله في مرضاته، ولا يتحيز إليهم وهو يرى محاباً نفسه

وملاذها بأيديهم، فيرضى مفارقتهم ومشاققتهم، وإيثار موالاة الحق عليهم، فلولا الأضداد والأسباب التي توجب ذلك لم تحصل هذه الآثار» (١).

ثالثاً: تعريف عباده سوء عاقبة الذنوب والمعاصي، والركون إلى الحياة الدنيا والاعتزاز بها، ونسيان الآخرة وما فيها، وهذه من رحمة الله ﷻ وحكمته؛ حيث يكون الابتلاء بتسليط الكافرين على المؤمنين تمحيصاً لهم، وسبباً في رجوعهم إلى الله ﷻ، ومعرفة لهم لعيوبهم وذنوبهم فيقلعوا عنها ويتوبوا إلى الله ﷻ، وينكسروا له، ويرجعوا إليه، ويغيروا ما بأنفسهم، ويشهد على ذلك ما حصل للمسلمين في العراق وسوريا وأفغانستان والبوسنة من الرجوع إلى دين الله ﷻ بسبب ما حل بهم من المصائب وتسليط الأعداء عليهم.

رابعاً: إن في الصراع بين الحق والباطل بياناً للحق وإظهاراً لسبيل المؤمنين، وبياناً لسبيل المجرمين.

(١) «طريق الهجرتين» (ص ٢٠٢).

سبق قول الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «ومن حكمة الله تعالى في جعله  
للأنبياء أعداء، وللباطل أنصارًا قائمين بالدعوة إليه أن يحصل  
لعباده الابتلاء والامتحان.. ومن حكمته أن في ذلك بيانًا للحق  
وتوضيحًا له؛ فإن الحق يستنير ويتضح إذا قام الباطل يصارعه  
ويقاومه، فإنه -حينئذ- يتبين من أدلة الحق وشواهد الدالة على  
صدقه وحقيقته، ومن فساد الباطل وبطلانه ما هو من أكبر  
المطالب التي يتنافس فيها المتنافسون»<sup>(١)</sup>.

وهذا ما نشهده اليوم من بيان دين الإسلام الحق، واعتناق كثير  
من الكفار لعقيدة الإسلام، بعدما سمعوا ورأوا حقيقة هذا  
الدين، وصدق أهله المجاهدين في سبيله، وما كان لهم أن  
يعرفوا ذلك لولا صراعه مع الباطل ومدافعتة له.

وكذلك ما نشهده اليوم من اليقظة الشاملة في أوساط المسلمين  
بحقيقة أعدائهم، وتعرية باطلهم، وتقوية عقيدة الولاء والبراء،  
وشحذ الهمم لنصرة دين الله عَزَّوَجَلَّ والجهاد في سبيله، وفي هذا  
مكاسب كبيرة ومصلحة عظيمة، لاسيما إذا قارنًا أحوال الأمة

(١) «تفسير السعدي» (ص ٢٧٠).



ویقظتها اليوم مما كانت تعيشه سابقاً قبل هذه الأحداث من غفلة وانخداع بما يروجه الكفار والمنافقون بأنهم دعاة سلام وأمن وحرية، وهذا من ثمار المدافعة وصراع الحق مع الباطل.

خامساً: في صراع الحق مع الباطل ومدافعته له إيقاف للفساد الذي يسعى الباطل وأهله لنشره وإغواء الناس به، وهذا ما بينه الله ﷻ من أثر مدافعة الباطل وثمرته، حيث قال سبحانه: ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَسْجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

سادساً: ومن الحكم الربانية في سنة المدافعة ما ذكره سيد قطب رحمه الله تعالى في تعليقه على آية الأنعام: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۗ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [١١٢] وَلِيَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْعَدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣].

حيث يقول: «وهناك حكمة أخرى غير ابتلاء الشياطين، وابتلاء المؤمنين.. ولقد قدر الله أن يكون هذا العداء، وأن يكون هذا

الإيحاء، وأن يكون هذا الغرور بالقول والخداع.. لحكمة أخرى: ﴿وَلِنَصِّغَنَّ إِلَيْهِ أَفْعَدَةَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ﴾ (١١٣) أي: لتستمع إلى ذلك الخداع والإيحاء قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة.. فهؤلاء يحصرون همهم كلهم في الدنيا، وهم يرون الشياطين في هذه الدنيا يقفون بالمرصاد لكل نبي، وينالون بالأذى أتباع كل نبي، ويزين بعضهم لبعض القول والفعل، فيخضعون للشياطين، معجبين بزخرفهم الباطل، معجبين بسلطانهم الخادع، ثم يكسبون ما يكسبون من الإثم والشر والمعصية والفساد في ظل ذلك الإيحاء، وبسبب هذا الإصغاء» (١).

#### الثمرة الثانية:

بعد أن تبين بعض الحكم الربانية من سنة المدافعة، وأن تسليط الله ﷻ أعدائه على أوليائه إنما هو بأمره سبحانه وإذنه القدري وحكمته، ولو شاء الله ﷻ لما كان ذلك، لأن جميع الخلق في قبضته، ونواصيهم بيده، إذا تبين لنا ذلك فإن هذا يثمر في القلب الاطمئنان إلى قدر الله وحكمته، واليقين

(١) «في ظلال القرآن» (٣/ ١١٩٠).

بأن ما يحصل من تقلب الكافرين في البلاد، وتغلبهم في بعض الأحيان على المسلمين إنما هو بقدره سبحانه ومقتضى حكمته البالغة: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۗ فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ﴾، وهذه المعرفة يعظم العبد ربه، ويستهن بأعدائه من شياطين الجن والإنس.

وبهذا الإيمان واليقين يستعلي المؤمن بإيمانه، ويطمئن إلى ربه، ويحسن الظن به، ويستقر في قلبه أن الأمر كله لله، كي لا يشوب القلب ما يشوب ضعاف الإيمان من إساءة الظن بالله ﷻ وبوعده، وكي لا يتعلق بالأسباب والوسائل، وإنما يفعل الأسباب الممكنة من أسباب المدافعة، ولا يركن إليها، وإنما يركن إلى مسببها وخالقها ومدبرها وحده سبحانه، ويعتقد أن له سبحانه الحكمة البالغة في تدبير الأمور، ومنها إدالة الكافرين على المسلمين في بعض الأزمنة والأمكنة.

وقد مر بنا ذكر بعض هذه الحكم كما يكسب المؤمن ثقة في وعد الله ﷻ بنصره لعباده المؤمنين، وأن العاقبة للمتقين في نهاية المطاف.

وهنا تنبيه مهم لا بد من ذكره، ألا وهو: التأكيد على أن يقيننا بأن كل شيء يحدث في هذا الكون إنما هو بقدر الله ﷻ وإرادته وحكمته، إن هذا لا يعني الاستكانة لتسلط الأعداء واحتلالهم للبلاد بحجة الرضا بقدر الله ﷻ، كما

يراه غلاة المتصوفة الجبرية، وإنما الواجب الذي تقتضيه سنة المدافعة في مثل هذه النوازل والأحوال مدافعة قدر الله عَزَّوَجَلَّ في تسليط الأعداء بقدره سبحانه بجهادهم ودفعهم عن ديار المسلمين، كما يكون في مدافعة قدر المرض بالتداوي والحريق بإطفائه، وكل مصيبة يمكن مدافعتها، وهذا ما أوضحه الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ بقوله: «ودفع القدر بالقدر نوعان:

أحدهما: دفع القدر الذي قد انعقدت أسبابه - ولما يقع - بأسباب أخرى من القدر تقابله؛ فيمتنع وقوعه كدفع العدو بقتاله، ودفع الحر والبرد ونحوه.

الثاني: دفع القدر الذي قد وقع واستقر بقدر آخر يرفعه ويزيله، كدفع قدر المرض بقدر التداوي، ودفع قدر الذنب بقدر التوبة، ودفع قدر الإساءة بقدر الإحسان، فهذا شأن العارفين، وشأن الأقدار، لا الاستسلام لها، وترك الحركة والحيلة؛ فإنه عجز، والله تعالى يلوهم على العجز، فإذا غلب العبد، وضاعت به الحيل، ولم يبق مجال؛ فهناك الاستسلام للقدر، والانطراح كالमित بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء»<sup>(١)</sup>.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/٢٠٠).

## الثمرة الثالثة:

إن الوعي لهذه السنة العظيمة وما تقتضيه ناشئ من العلم بالله ﷻ، وبأسمائه الحسنی ومقتضياتها وآثارها والتعبد لله ﷻ بها، ومن هنا ندرك أهمية الاعتناء بعلم الأسماء والصفات وآثارها، ومن ثمرات ذلك أن يدرك العبد هذه المسلّمات، وينطلق ويسير في ضوئها منسجماً معها، غير مستغرب ولا متفاجئ لها، وغير متصادم معها، وبهذا ينطلق في تفسيره للحوادث والنوزال، والموقف منها من هذا الفهم الصحيح لأسماء الله الحسنی وصفاته العلی، المقتضيه لسننه سبحانه في الخلق والأمر، ومن ذلك العلم بهذه السنة في الصراع والتغيير، ومن هذا شأنه نجده يسير متزن التفكير والخطأ والأحكام غير مضطرب، ولا شاك، ولا متخبط في أحكامه ومواقفه وموازينه، كما هو شأن الجاهل بربه سبحانه وبأسمائه وسننه، فهؤلاء جنود طالوت لما غفل بعضهم عن سنة الله ﷻ في النصر والهزيمة، هالهم كثرة عددهم، فقالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾، فردت عليهم الطائفة التي فهمت عن الله سننه، فقال الله ﷻ عنهم: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَت فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

## الثمرة الرابعة:

شعور المسلم بالغبطة والحبور عندما يجد أن الله ﷻ قد هداه، وجعله في صف الحق وأهله، الذي يدفع الله ﷻ بهم الباطل وأهله، وهذا الشعور لا يقف بصاحبه عند الشعور النفسي فحسب، بل يفرض عليه - شكرًا لله ﷻ أن هداه إلى الحق - بأن يكون من حماة الحق والمدافعين عنه، مجاهدًا في نشره ليصل إلى الناس الذين حرموا من معرفته واتباعه، سائلًا ربه ﷻ كما هداه للحق أن يشتهه ويتوفاه عليه.

والله ﷻ يحب من عبده المؤمن مراغمة عدوه وإغاضته، ومدافعة باطله بما يستطيع، إن كان من أهل القتال فييده وسانه، وإن كان من أهل العلم والبيان فبلسانه وقلمه وبيانه، وإن كان من أهل السعة والمال فبماله، وقد يمن الله ﷻ على من يشاء من عباده، فيصارع الباطل وأهله بنفسه ويده وبلسانه وبيانه وقلمه وبماله وإنفاقه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

قال الله ﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ۗ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا

يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُنِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ  
 الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًّا إِلَّا  
 كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿التوبة: ١٢٠، ١٢١﴾.

وقال تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي  
 سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة: ٤١].

وقال ﷺ: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأيديكم وأستتكم»<sup>(١)</sup>.

إن المدافعة بين الحق الباطل سنة حتمية، لا بد من وقوعها لنشر الحق  
 ودفع الفساد والكفر والفتنة عن الناس، وحتى لو أراد أهل الحق أن ينزلوا  
 عن الباطل وأهله فإن الباطل وطواغيته لا يقبلون بذلك؛ لأن الطواغيت لا  
 يرضيهم أن يكون للإيمان وأهله وجود على الأرض فلذلك يفرضون  
 المعركة فرضاً على الحق وأهله، وهذه سنة الله ﷻ الحكيمة المطردة  
 الثابتة.

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى في تعليقه على قصة شعيب مع قومه في  
 سورة الأعراف: «إن الطاغوت يفرض المعركة فرضاً على الجماعة المسلمة

(١) سبق تخريجه.

- حتى لو آثرت هي ألا تخوض معه المعركة - إن وجود الحق في ذاته يزعج الباطل، وهذا الوجود ذاته هو الذي يفرض عليه المعركة مع الباطل.. إنها سنة الله لا بد أن تجري..

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ نَكُودٌ كَرِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨].

هكذا في تبجح سافر، وفي إصرار على المعركة لا يقبل المهادنة والتعايش...» (١).

ثم يمضي رحمه الله تعالى وبأسلوبه البديع يبين أن تكاليف وضريبة مدافعة الباطل والخروج من عبودية الطاغوت أقل من تكاليف ترك مدافعته والسكوت عليه.

يقول رحمه الله تعالى: «إن تكاليف الخروج من العبودية للطاغوت والدينونة لله وحده مهما عظمت وشقت - أقل وأهون من تكاليف العبودية للطواغيت! إن تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة - مهما لاح فيها من السلامة والأمن والطمأنينة على الحياة والمقام والرزق! - إنها تكاليف بطيئة طويلة مديدة! تكاليف في إنسانية الإنسان ذاته.

(١) «في ظلال القرآن» (٣/ ١٣١٨).



فهذه (الإنسانية) لا توجد، والإنسان عبد للإنسان - وأي عبودية شر من خضوع الإنسان لما يشرعه له إنسان؟! .. وأي عبودية شر من تعلق قلب إنسان بإرادة إنسان آخر به ورضاه أو غضبه عليه؟! .. وأي عبودية شر من أن تتعلق مصائر إنسان بهوى إنسان مثله ورغباته وشهواته؟! وأي عبودية شر من أن يكون للإنسان خطام أو لجام يقوده منه كيفما شاء إنسان على أن الأمر لا يقف عند حد هذه المعاني الرفيعة.. إنه يهبط ويهبط حتى يكلف الناس - في حكم الطواغيت - أموالهم التي لا يحميها شرع ولا يحوطها سياج، كما يكلفهم أولادهم، إذ ينشئهم الطاغوت كما شاء على ما شاء من التصورات والأفكار والمفهومات والأخلاق والتقاليد... والذي يتصور أنه ينجو بماله وعرضه وحياته وحياة أبنائه وبناته في حكم الطواغيت من دون الله إنما يعيش في وهم، أو يفقد الإحساس بالواقع»<sup>(١)</sup>.

الثمرة الخامسة:

ومن ثمرات المعرفة بهذه السنة لاسيما للدعاة والمجاهدين: أن الله عَزَّوَجَلَّ يمنحهم بمعرفتها سعة في النظر إلى الأمور، وعدم الاستعجال في تحصيل النتائج أو استبطائها، لأنهم بهذه المعرفة لربهم سبحانه وسننه

(١) «في ظلال القرآن» (٣/ ١٣١٩) باختصار.

يدركون أنه سبحانه بحكمته وعلمه ولطفه قد يطيل أمد المدافعة، بحيث لا يشهد بعض الناس نهايتها ونتائجها الحتمية من ظهور الحق وزهوق الباطل.

يقول الدكتور محمد السلمي: «والسنة الربانية قد تستغرق وقتاً طويلاً لكي ترى متحققة في حين أن عمر الفرد محدود؛ ولذلك فلا يمكنه رؤية السنة متحققة، بل قد يرى الإنسان جانباً من السنة الربانية، ثم لا تتحقق لها فيها في حياته، مما قد يدفعه إلى التشكيك أو التكذيب بها... والسنة الربانية لا بد أن تقع، ولكن لما كان عمرها أطول من عمر الفرد، فإنها ترى متحققة من خلال التاريخ»<sup>(١)</sup>.



(١) «منهج دراسة التاريخ الإسلامي» (ص ٦١).

## السُّنَّةُ الثَّالِثَةُ سُنَّةُ الْإِبْتِلَاءِ وَالْإِيذَاءِ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ

هذه السنة من موجبات المدافعة، وهي من أعظم السنن وأشهرها، وأشدّها اطرادًا وثباتًا، يشهد لذلك كلام الله ﷻ في كتابه الكريم، وكلام رسوله ﷺ في سنته، كما يشهد لذلك واقع المؤمنين الموحدين في تاريخهم الطويل وما تعرضوا له من الإيذاء والابتلاءات الشديدة، فصبروا وثبتوا حتى أتاهم نصر الله ﷻ، وجعل العاقبة والتمكين لهم في الأرض.

ومن الآيات المتضمنة لهذه السنة في سورة الأنعام:

• قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا

مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ [الأنعام: ١٠].

• وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأُذُوا حَتَّىٰ

أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۗ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾

[الأنعام: ٣٤].

• وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَن آتَاهُ

عَلَيْهِمْ مَنْ بَيْنَنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ [الأنعام: ٥٣].

وقد نبهنا الله ﷻ إلى هذه السنة العظيمة في آيات كثيرة من كتابه العزيز، ومن ذلك:

• قوله سبحانه: ﴿لَمَّا أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ١-٣].

• وقوله تعالى في أعقاب غزوة أحد: ﴿وَلَيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤١، ١٤٢].

• وقوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخٰبِثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴿١٧٩﴾﴾ [آل عمران: ١٧٩].

• وقوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيْ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ١٨٦].

• وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ ﴿١٦٤﴾ [البقرة: ٢١٤].

وسبق قوله ﷺ في الحديث القدسي: «وإنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك» (١).

هذه بعض الآيات من كتاب الله ﷻ التي ينبهنا الله ﷻ فيها إلى هذه السنة المطردة الثابتة.

تفسير قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنظَّهُمْ نَصْرًا ۗ وَلَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۗ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ [الأنعام: ٣٤].

في هذه الآية الكريمة ينبه الرب ﷻ نبيه محمداً ﷺ وأتباعه من بعده على هذه السنة التي لا تتبدل ولا تتخلف (ولا مبدل لكلماته)، وهي تعزية وتسلية من الله ﷻ لنبيه ﷺ، ولكل من ابتلي في طريق الدعوة والجهاد في سبيل الله تعالى، وتتضمن هذه السنة تقريرين:

(١) «صحيح مسلم» (٢٨٦٥).

الأول: أنه لا بد من الابتلاء والأذى لكل من ادعى الإيمان، وانضم إلى سلك الداعين إلى سبيل الله ﷻ، وأن القدوة في ذلك ما أصاب الأنبياء المصلحين من قبل.

الثاني: أن العاقبة والنصر والتمكين بعد هذه الابتلاءات لعباد الله ﷻ، وأوليائه، الذين ثبتوا أمام هذه الابتلاءات وصبروا.

ومن النتائج المترتبة على سنة الابتلاء لاحقاً سنة التمحيص، ثم سنة التمكين، حيث اقتضت حكمة الله تعالى أن يتلي عباده المؤمنين، وذلك ليمحصهم ويهذبهم، حتى إذا اجتازوا هذه المحن بصبر وثبات ولجوء إلى الله وحده حاءت سنة التمكين، أي: أن التمكين والنصر للحق وأهله لا بد أن يسبقه الابتلاء ثم التمحيص ﴿وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، قال الله ﷻ: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١].

وقد أدرك أهل العلم والبصيرة هذه الحقيقة والسنة الربانية، فعندما سئل الشافعي رحمه الله تعالى: أيما أفضل للعبد أن يمكّن أو يتلى؟ قال: «لا يمكّن حتى يتلى»<sup>(١)</sup>.

(١) «الفوائد»، لابن القيم (ص ٢٢٧).

ومحصلة هذه السنن: أن بعضها ماسك برقاب بعض، كحلقات السلسلة، يشد بعضها بعضاً، فلا تمكين بلا تمحيص، ولا تمحيص بلا ابتلاء، إذ متى تحققت مقدماتها تحققت نتائجها، ومما يؤكد ثبات هذه السنة: أنها كانت معلومة عند الأمم السابقة، لاسيما أهل الكتاب، فهذا ورقة بن نوفل الذي كان لديه علم بما عند أهل الكتاب، قال للرسول ﷺ بعد سماعه خبر نزول الوحي لأول مرة: يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك؛ فيسأله النبي ﷺ في تعجب: «أو مخرجي هم؟! قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي...» الحديث (١).

وهذا قيصر ملك الروم يقول في حديثه مع أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «سألتك كيف كان قتالكم إياه، فزعمت أن الحرب سجال ودول، فكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة» (٢).

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى عند قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ﴾: «هذه تسلية النبي ﷺ وتعزية له فيمن كذبه من قومه، وأمر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ووعد له بالنصر كما نصرُوا، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة، بعدما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى

(١) البخاري (٦٩٨٢) ط. طوق النجاة، ومسلم (١٦٠).

(٢) البخاري (٢٨٠٤)، ومسلم (١٧٧٣).

البلوغ، ثم جاءهم النصر في الدنيا، كما لهم النصر في الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾، أي: التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين.

كما قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّا جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾. أي: من خبرهم كيف نُصروا وأيدوا على من كذبهم من قومهم، فلك فيهم أسوة وبهم قدوة» (١).

ويقول الأستاذ محمد رشيد رضا رحمه الله تعالى عند هذه الآية: «أكد الله تعالى لرسوله ﷺ بصيغة القسم: أن الرسل الذين أرسلوا قبله قد كذبتهم أقوامهم فصبروا على تكذيبهم وإيذائهم لهم إلى أن نصرهم الله تعالى عليهم، أي: فإن كذبت فلك أسوة بمن قبلك، فلست بدعاً من الرسل، وقد صرح بالشرطية في آيات أخرى، كقوله تعالى في سورة الحج: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [الحج: ٤٢] إلخ.

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٥٢).



وقوله في سورة فاطر: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [فاطر: ٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [فاطر: ٢٥].

إلخ.

والآية تسلية للرسول ﷺ بعد تسلية، وإرشاد له إلى سنته تعالى في الرسل والأمم، أو هي تذكير بهذه السنة، وما تتضمنه من حسن الأسوة؛ إذ لم تكن هذه الآية أول ما نزل في هذا المعنى، وقد صرح بوجوب هذا الصبر عليه تأسيًا في قوله: ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْرِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، واستقلالًا في آيات كثيرة، منها ما نزل قبل هذه السورة كقوله تعالى في سورة المزمّل: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمّل: ١٠]، وقد ثبت بالتجارب أن التأسي يهون المصائب، ويفيد شيئًا من السلوة...

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ أَنهَمُ نَصْرَنَا﴾ غاية للصبر، أي: صبروا على التكذيب، وما قارنه من الإيذاء إلى أن جاءهم نصرنا العظيم بالانتقام من أقوامهم، وإنجائنا إياهم هم ومن آمن معهم من أذاهم وكيدهم، وفيه بشارة للرسول مؤكدة للتسلية بأنه سينصره على المكذبين الظالمين من قومه، وعلى كل من يكذبه ويؤذيه من أمة البعثة، وإيماء إلى حسن عاقبة الصبر، فمن كان أصبر كان أجدر بالنصر إذا تساوت بين الخصمين سائر أسباب

الغلب والقهر، وإضافة النصر إلى ضمير العظمة العائد على العزيز القدير تشعر بعظمة شأنه، وتشير إلى كونه من الآيات المؤيدة لرسله.

﴿وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ في وعده ووعيده، التي منها وعده للرسول

بالنصر.

وتوعده لإعدادهم بالغلب والخذلان، ولا -مبدل لها- في غير ذلك من الشرائع والسنن التي اقتضتها الحكمة، والمراد من هذه الكلمات هنا قوله في سورة الصافات: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧١) ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ (١٧٢) ﴿وَإِنْ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (١٧٣) [الصافات: ١٧١-١٧٣].

ومن العبرة في الآية: أن الله تعالى وعد المؤمنين ما وعد المرسلين من النصر، فقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧) [الروم: ٤٧].

وهي نص في تعليل النصر بالإيمان، ولكننا نرى كثيرًا من الذين يدعون الإيمان في القرون الأخيرة غير منصورين، فلا بد أن يكونوا في دعوى الإيمان غير صادقين، أو يكونوا ظالمين غير مظلومين، ولأهوائهم لا لله ناصرين،

ولسُننه في أسباب النصر غير مُتبعين، وأن الله لا يخلف وعده ولا يبطل سننه، وإنما ينصر المؤمن الصادق، وهو من يقصد نصر الله وإعلاء كلمته، ويتحرى الحق والعدل في حربه»<sup>(١)</sup>.

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية: «إن موكب الدعوة إلى الله موغل في القدم، ضارب في شعاب الزمن، ماض في الطريق اللّاحب، ماض في الخط الواصب.. مستقيم الخطا، ثابت الأقدام، يعترض طريقه المجرمون من كل قبيل، ويقاومه التابعون من الضالين والمتبوعون، ويصيب الأذى من يصيب من الدعاة، وتسيل الدماء وتمزق الأشلاء.. والموكب في طريقه لا ينحني، ولا يثنى، ولا ينكص، ولا يحميد.. والعاقبة هي العاقبة، مهما طال الزمن، ومهما طال الطريق.. إن نصر الله دائما في نهاية الطريق: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنهَم نَصْرًا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾..»

كلمات يقولها الله سبحانه لرسوله ﷺ.. كلمات للذكرى، وللتسرية وللمواساة، والتأسية.. وهي ترسم للدعاة إلى الله من بعد رسول الله ﷺ

(١) «تفسير المنار» (٧/٣١٧).

طريقهم واضحًا، ودورهم محددًا، كما ترسم لهم متاعب الطريق وعقباته، ثم ما ينتظرهم بعد ذلك كله في نهاية الطريق...

إنها تعلمهم أن سنة الله في الدعوات واحدة، كما أنها كذلك وحدة واحدة لا تتجزأ.. دعوة تتلقاها الكثرة بالتكذيب، وتتلقى أصحابها بالأذى.. وصبر من الدعاة على التكذيب، وصبر كذلك على الأذى.. وسنة تجري بالنصر في النهاية.. ولكنها تجيء في موعدها، لا يعجلها عن هذا الموعد أن الدعاة الأبرياء الطيبين المخلصين يتلقون الأذى والتكذيب، ولا أن المجرمين الضالين والمضلين يقدرّون على أذى المخلصين الأبرياء الطيبين! ولا يعجلها كذلك عن موعدها أن صاحب الدعوة المخلص المتجرد من ذاته ومن شهواته إنما يرغب في هداية قومه حبًا في هدايتهم، ويأسى على ما هم فيه من ضلال وشقوة، وعلى ما ينتظرهم من دمار وعذاب في الدنيا والآخرة.. لا يعجلها عن موعدها شيء من ذلك كله، فإن الله لا يعجل لعجلة أحد من خلقه، ولا مبدل لكلماته، سواء تعلقت هذه الكلمات بالنصر المحتوم، أم تعلقت بالأجل المرسوم، إنه الجد الصارم، والحسم الجازم، إلى جانب التطمين والتسرية والمواساة والتسلية...»<sup>(١)</sup>.

(١) «في ظلال القرآن» (٣/ ١٠٧٧-١٠٧٨).

وصور الأذى والابتلاء التي ذكرها الله ﷻ في كتابه الكريم، والتي تعرض لها أنبياءه وأولياؤه كثيرة منها:

أولاً: الأذى بالسخرية والاستهزاء والاتهام بالجنون والسحر:

• قال ﷻ عن قوم هود عليهم السلام: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٦].

• وقال تعالى عن قوم صالح عليه السلام لنيهم: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٣].

• وقال تعالى عن مشركي العرب مع رسول الله ﷺ: ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَثُ أَحْلَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥].

• وقال ﷻ مخبراً عن هذا الموقف الموحد من المشركين مع أنبيائهم عليهم السلام: ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ ﴾ [التوحيات: ٥٢-٥٣].

وصدق الله العظيم؛ فإن هذا الأسلوب الرخيص من الأذى والسخرية يتكرر في كل زمان يتواجه فيه الحق والباطل؛ حيث نجد

سخرية الطواغيت وأتباعهم من أهل الحق وأتباع الأنبياء فيرمونهم بسفاهة العقل، وسذاجة التفكير، وسطحية الرؤية... إلخ هذه التهم التي يقذفونها بها زورًا وبهتانًا، ويملئون بها وسائل إعلامهم المختلفة؛ ليشوهوهم عند الناس وينفروهم منهم.

ثانيًا: اتهام الأنبياء عليه الصلاة والسلام وأتباعهم بأنهم طلاب دنيا وملك، وليسوا مخلصين فيما ينادون به.

ومن ذلك:

• قوله تعالى عن قوم نوح عليه السلام أنهم قالوا: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَنْفِضَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

• وقوله تعالى عن فرعون وقومه مع موسى وهارون عليه السلام: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨].

هذا ما يقوله الأفاكون عن صفوة الناس، وأزهد الناس، وأخلص الناس لرب العالمين! لكنه الأذى، ولبس الحق بالباطل، وإثارة الدهماء على أنصار الحق بمثل هذه الافتراءات، التي يعلم أصحابها أن الأنبياء وأتباعهم أبعد ما يكونون عنها.

وهذا الأسلوب الاستهلاكي الرخيص هو نفسه الذي يُتبع من أعداء الحق في كل زمان ومكان؛ فكمن سمعنا وقرأنا عن مثل هذه التهم الباطلة التي يروجها زنادقة العصر بوسائلهم الإعلامية المختلفة من أن الدعاة إلى الله ﷻ والمنادين بتحكيم شرعه يستترون بالدين لمآرب يخفونها، أو أنهم طلاب حكم وسلطة فحسب! وكم تردد في وسائل الإعلام الظالمة في أكثر بلدان المسلمين مثل هذه الافتراءات، وهذه تهويشات يراد منها التشويه وإثارة دهماء الناس على أهل الخير ودعاة الحق، وهي بعينها تلك التي قالها الجاهليون الأولون لأنبيائهم من قبل.

ثالثاً: اتهام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالفساد والإفساد وإثارة الفتن:

ويتضح هذا جلياً من قوله تعالى عن المقولة الجائرة لفرعون اللعين: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

وقال تعالى عن الملأ من قوم فرعون: ﴿وَقَالَ المَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذُرَكَ وَءالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

يعلق صلاح الخالدي حفظه الله على آية غافر، فيقول: «ما هي الأسباب التي سيقدمها فرعون إلى قومه؟ ويبرر بها قتل موسى؟ إنها في قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾. هما سببان:

الأول: الحفاظ على الدين، فموسى عدو للدين، وفرعون حريص عليه.

الثاني: الحفاظ على الأمن، فموسى ضد الأمن، وفرعون هو حامي الأمن!

فرعون الكافر، الذي قال لقومه: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾، وقال لهم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾، أصبح غيورا على الدين، حارسا له من التغيير والتبديل الذي يتهدهه على يد موسى! وفرعون المفسد بطغيانه وكفره المخرب بتجبره وتكبره أصبح داعية إصلاح وخير وأمن ورفاه!

وهذا التعليل الفرعوني هو الذي يلجأ إليه الظالمون في محاربة الحق وأهله؛ يقدم الظالم نفسه للناس على أنه: المؤمن المتدين، الحريص على الإيمان، الحريص على الفضائل، الغيور على الأخلاق، الراغب في التعمير والتقدم والأمن والازدهار، بينما يقدم هذا الطاغية الدعاة إلى الله على أنهم: مفسدون مخربون، ضالون مضلون، أعداء الله والأمة والوطن، وحلفاء الشيطان ورءوس الفتنة،



ودعاة الضلال، ولهذا يجب القضاء عليهم قبل تحقيق أهدافهم  
الشيطنية». اهـ (١).

رابعًا: اعتماد أساليب الضغط الخسيصة على الدعاة في أهلهم وأولادهم:

وهذا واضح في آية القصص السابقة؛ حيث ذكر الله ﷻ عن فرعون  
اللعين: أنه كان يقتل أبناء المسلمين ويستحيي نساءهم، وفي هذا من  
الضغط النفسي على الآباء الشيء العظيم؛ لأن الداعية قد يتحمل  
الأذى في نفسه، ولكن القليل هم الذين يتحملونه في أبنائهم وبناتهم،  
وهذا من أخس أساليب الجاهلية في أذى الدعاة والصد عن سبيل  
الله، ومع خستها ومخالفتها لكل دين وعرف ومروءة وإنسانية إلا أنّنا  
نجدها اليوم تجري على أيدي الطواغيت وأتباعهم الممسوخين،  
فكم سمعنا عن ممارسات هابطة يُضغَطُ بها على الداعية في أولاده  
أو زوجته أو بناته أو غيرهم من الأبرياء.

يقول صلاح الخالدي حفظه الله: «وهم يفعلون هذا ليضغطوا على  
المؤمنين ضغطًا مؤلمًا، ومن النقطة التي تؤلمهم أكثر من غيرها،

(١) «مع قصص السابقين» (ص ١٠٤-١٠٥) باختصار وتصرف يسير.

والتي يظنونها نقطة ضعف عندهم، وقد تقودهم إلى التخلي عن الدعوة والداعية، إنها نقطة الأسرة والعائلة والأولاد والبنات، وهي نقطة ضعف حقاً، والضغط عليها مؤلم جداً، وقد يفضي بأناس إلى التخلي عن الحق فعلاً، لكن اتجاهم لمحاربة أناس أبرياء -هم الأولاد والنساء- يمثل ظلماً وعدواناً منهم؛ لأنهم يأخذون الأبرياء بشيء لم يفعلوه، كما يمثل حقداً وكيداً وقسوة؛ لأنهم يحاربون أطفالاً صغاراً ضعافاً لا طاقة لهم بالحرب»<sup>(١)</sup>.

خامساً: التضييق على الأنبياء وأتباعهم في الرزق وانتهاج سياسة التجويع والحصار الاقتصادي:

ويتضح هذا مما قام به المشركون في مكة من مقاطعة الرسول ﷺ ومن آمن معه مقاطعة اقتصادية في البيع والشراء وغير ذلك، ومحاربتهم في شعب أبي طالب، حتى مسهم الضر وبلغ منهم الجوع مبلغاً شديداً، وكذلك ما نادى به المنافقون في المدينة من

(١) المصدر السابق.

محاولة لتضييق سبل الرزق لمن حول الرسول ﷺ حتى يتفرقوا عنه، وينشغلوا في طلب المعاش، قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا ۗ وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۗ﴾ [المنافقون: ٧].

يعلق سيد قطب رحمه الله تعالى على هذه المقولة من المنافقين، فيقول: «وهي قولة يتجلى فيها خبث الطبع ولؤم النحيزة؛ ذلك أنهم لخسة مشاعرهم يحسبون لقمة العيش هي كل شيء في الحياة، كما هي في حسهم، فيحاربون بها المؤمنين، وهي خطة الشيعيين في حرمان المتدينين في بلادهم من بطاقات التموين، ليموتوا جوعاً، أو يكفروا بالله ويتركوا الصلاة، وهي خطة غيرهم ممن يحاربون الدعوة إلى الله ﷻ من قديم الزمان إلى هذا الزمان، ناسين الحقيقة البسيطة التي يذكرهم القرآن بها قبل ختام هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۗ﴾ (١).

(١) «في ظلال القرآن» (٦/ ٣٥٧٩) باختصار وتصرف يسير.

## سادسًا: القتل والسجن والإخراج من الأرض:

وهذا هو آخر ما في جعبة الباطل، وأقصى ما يملكونه من إيذاء أنبياء الله ﷺ وأوليائه، وذلك حين تُعوزهم الحجة وتبطل كل وسائلهم السابقة في إسكاتهم أو إضعاف عزائمهم؛ عندئذ يلجئون إلى التصفية الجسدية، أو تغييبهم في السجون، أو إخراجهم من ديارهم وأبنائهم، وهذا كله عاناه أنبياء الله ﷺ ورسله عليهم الصلاة والسلام: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿١٤٦﴾ [آل عمران: ١٤٦].

والشواهد على هذا كثيرة في كتاب الله ﷻ، منها ما يلي:

- إخباره تعالى عن تهديد قوم نوح لنوح ﷺ بقوله: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَنْبُوحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ ﴿١١٦﴾ [الشعراء: ١١٦].
- وقوله تعالى عن قوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ﴿٦٨﴾ [الأنبياء: ٦٨].
- إخباره تعالى عن تهديد قوم شعيب لنبيه عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ

ءَامِنُوا مَعَكُمْ مِنْ قَرِیْبَتِنَا أَوْ لَتَعُوْدَنَّ فِی مِلَّتِنَا ﴿ [الأعراف: ٨٨].

• وقول قوم لوط لنبیهم علیه الصلاة والسلام وأهله فی قوله تعالى:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوْنَا أَلْ لُوطِ مِنْ قَرِیْبَتِكُمْ

إِنَّهُمْ أَنَاسٌ یَنْطَهَرُونَ ﴿٥٦﴾ [النمل: ٥٦].

• ولما قص الله ﷻ علينا خبر قوم نوح وهود وصالح مع رسلهم

فی سورة إبراهیم قال بعد ذلك: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ

لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوْدَنَّ فِی مِلَّتِنَا ﴿ [إبراهیم: ١٣].

• وقوله تعالى عن تهديد فرعون لموسى علیه الصلاة والسلام بالقتل:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِی أَقْتُلْ مُوسَى وَلِیَدْعُرْ رَبَّهُ ﴿ [غافر: ٢٦].

• وقوله تعالى عن التسعة الذین تأمرو علی قتل صالح علیه الصلاة

والسلام: ﴿ وَكَانَ فِی الْمَدِیْنَةِ سَعَةُ رَهْطٍ یُفْسِدُونَ فِی الْأَرْضِ وَلَا

یُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَیِّتَنَّهٗ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَنقُولَنَّ لِوَلِيِّهٖ مَا

شَهِدْنَا مَهْلَاکَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ [النمل: ٤٨، ٤٩].

• وما تعرض له الرسول ﷺ من التهديد بالسجن أو الإخراج أو

القتل، والذي ذكره الله ﷻ فی قوله: ﴿ وَإِذْ یَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا

لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ  
الْمَكْرِينَ ﴿[الأنفال: ٣٠].

هذه صور من إيذاء الجاهلية لأنبياء الله ﷺ ورسله عليهم الصلاة والسلام وهذا هو هديهم عليهم الصلاة والسلام في مقابلة ذلك بالصبر والعزائم القوية، وقبل ذلك وبعده بالاستعانة بالله وحده، قال الله ﷻ عن موسى عليه الصلاة والسلام بعد تهديد فرعون له بالقتل: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ﴿[غافر: ٢٧].

وبعد ذكر النماذج السابقة من صور الأذى والصد، التي تعرض لها صفوة البشر وأحبهم إلى الله تعالى هل لقائل أن يقول: إنه يجب الابتعاد في الدعوة إلى الله سبحانه عن كل ما من شأنه أن يجر على الداعية الأذى والمحن؟ إن صاحب هذا القول قد نسي أو تناسى سنة الله ﷻ في الصراع بين الحق والباطل، وسنته سبحانه في الابتلاء.

ولا يعني ما سبق من الكلام: أن يبحث الداعية عن الأذى والابتلاء؛ كلا، فالمطلوب سؤال الله العافية وعدم تمنى البلاء،

كما لا يفهم منه أيضًا الدعوة إلى التهور والطيش، معاذ الله فلا بد من المنطلقات الشرعية في كل التصرفات، لكن المراد أن لا نغفل عن سنة الله ﷻ في ابتلاء المؤمنين، وأن توطن النفس على هذه الأمور؛ لأنه لا بد منها لكل من ادعى الإيمان، وتصدر الدعوة والجهاد، ولا بد منها لتمييز الخبيث من الطيب، ولا بد منها لتمحيص القلوب والصفوف.

ومن خلال الدراسة السابقة لحياة الأنبياء ﷺ، وتقليبنا لتاريخ المجددين والمصلحين، نرى ذلك المَعْلَمَ ظاهرًا وقاسمًا مشتركًا عندهم جميعًا؛ حيث لم تخل حياة رسول ولا مصلح مجدد من الأذى والمحن والابتلاء، بل لم يحصل التمكين لهم وإقامة دين الله سبحانه في الأرض على أيديهم، إلا بعد الصبر والمصابرة على صنوف الأذى والمحن في سبيل الله سبحانه.

لله أنواع الابتلاء الذي يبتلي الله ﷻ به عباده المؤمنين:

○ النوع الأول: ابتلاء عقوبة وتكفير للسيئات:

وهذا من جنس ما يصيب المؤمنين من مصائب ومكروهات بسبب بعض ذنوبهم، ليكفرها الله ﷻ عنهم، ولتكون بمثابة تحذير وتنبية

لآثار المعصية، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقوله سبحانه: ﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُّصِيبَةً قَدِ أَصَبْتُمْ مِّثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وقوله سبحانه: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

○ النوع الثاني: ابتلاء اختبار وتمحيص لقلوب المؤمنين:

قال تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فبالابتلاء يصقل قلب المؤمن، ويصلب عوده، وينقي الله ﷻ به ما في القلوب من الدغل والأمراض، ويختبر الله ﷻ به إيمان المؤمن.

ومثال ذلك: ما تعرض له المسلمون في مكة مع الرسول ﷺ من الأذى والحصار والهجرة، وكذلك ما تعرض له المسلمون من الخوف وتكالب الأعداء والأحزاب، الذي قال الله ﷻ في وصفه: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١].



○ النوع الثالث: ابتلاء يُمَيِّزُ به الصف المسلم وَيُنْقِي من المنافقين وأصحاب القلوب المريضة:

وذلك حتى يعرفهم الناس ويحذروهم ويفضحوهم ويبعدوهم عن جسد الأمة، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۗ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَصْبَحْتُمْ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ فَيَا ذُنَّ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [آل عمران: ١٦٦، ١٦٧].

من ثمرات المعرفة بهذه السنة الشريفة:

الثمرة الأولى:

التعرف على آثار ومقتضيات أسماء الله الحسنی في الأحكام القدريّة والشرعية، ولاسيما أسمائه سبحانه العليم والحكيم والعزيز الرحيم، ومن ذلك ما في سنة الابتلاء والتمحيص من الحكم الربانية تجعل العبد يزداد معرفة بربه سبحانه وأسمائه وصفاته الحسنی، وبهذا يزداد لربه محبة وخوفاً ورجاءً وتعظيمًا، وحسن ظن وأنس بالله عَزَّ وَجَلَّ.

ويحسن هنا ذكر ما أورده الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى من بعض

حكم الابتلاء، وذلك في تعقيبه على غزوة أحد، وما فيها من الدروس والعبر.

قال رحمه الله تعالى: «(فمنها: تعريفهم سوء عاقبة المعصية والفشل والتنازع، وأن الذي أصابهم إنما هو بشؤم ذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أُرْسِلْتُمْ تَحِبُّونَ ۗ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۗ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۗ ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول وتنازعهم وفشلهم، كانوا بعد ذلك أشد حذرًا ويقظةً وتحذرًا من أسباب الخذلان: ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُلَهَا بَيْنَ النَّاسِ ۗ ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

○ ومنها: أنه سبحانه هياً لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيتها إلا بالبلاء والمحنة، فقيض لهم الأسباب التي توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها.

○ ومنها: أن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى طغياناً وركوناً إلى العاجلة، وذلك مرض يعوقها عن جدها في سيرها إلى

الله والدار الآخرة، فإذا أراد بها ربهها ومالكها وراحمها كرامته قيض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه.

○ ومنها: استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السراء والضراء، وفيما يحبون وما يكرهون، وفي حال ظفرهم وظفر أعدائهم بهم.

○ ومنها: أن يتميِّز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب؛ فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر، وطار لهم الصيت دخل معهم في الإسلام ظاهرًا من ليس معهم فيه باطنًا؛ فاقتضت حكمة الله ﷻ أن سبب لعباده محنة ميزت بين المؤمن والمنافق.

○ ومنها: أن الله سبحانه إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم، قيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم، ومن أعظمها بعد كفرهم بغيهم وطغيانهم ومبالغتهم في أذى أوليائه، ومحاربتهم وقتالهم والتسلط عليهم، فيتمحص بذلك أولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم، ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقهم وهلاكهم، وقد ذكر ﷻ في قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٩) إِنْ يَمَسَّكُمْ فَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرْحٌ مِثْلُهُ، وَتِلْكَ

الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ  
شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ  
الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤١].

○ ومنها: أنه إذا امتحنهم بالغلبة والكسرة والهزيمة ذلوا وانكسروا  
وخضعوا، فاستوجبوا منه العز والنصر، فإن خلعة النصر إنما تكون  
مع ولاية الذل والانكسار.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ  
عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥]؛ فهو - سبحانه - إذا أراد أن يعز عبده  
ويجبره وينصره كسره أولاً، ويكون جبره له ونصره على مقدار ذلّه  
وانكساره» (١).

وفي ذلك يقول سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ: «وقد يبطن النصر حتى تجرب  
الأمة المؤمنة آخر قواها، فتدرك أن هذه القوى وحدها دون سند من  
الله لا تكفل النصر.. إنما يتنزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما

(١) «زاد المعاد» (٣/١٩٧-٢٠٠) باختصار وتصرف يسير.

في طوقها، ثم تكل الأمر بعدها إلى الله...

وقد يبسط النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله، وهي تعاني وتتألم وتبذل، ولا تجد لها سندًا إلا الله، ولا متوجهًا إلا إليه وحده في الضراء.. وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله.. فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها الله به»<sup>(١)</sup>.

#### الثمرة الثانية:

لما كان من أنواع الابتلاء الذي يصيب المؤمن: ابتلاء العقوبة بسبب المعصية؛ فإن العلم بهذه السنة يجعل العارف بها حذرًا من المعاصي والذنوب، التي هي من أسباب الابتلاء بالمصائب فيتقيها فلا يقارفها، وإذا وقع فيها سارع إلى التوبة منها والاستغفار.

قال الله ﷻ في أوليائه العارفين العالمين به سبحانه وبسته: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَآئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، ولا يرفع البلاء إلا التوبة النصوح، وكما أن الذنوب هي من

(١) «طريق الدعوة في ظلال القرآن» (ص ٣٥٩).

أسباب الابتلاء بالمصائب على مستوى الأفراد، فكذلك هي من أعظم الأسباب في المصائب الجماعية والهزائم المؤلمة، التي تحل بالجماعة المسلمة في دعوتها إلى الله ﷻ وجهادها في سبيله.

والمعرفة بهذه السنة تجعل الدعوة والمجاهدين في سبيل الله ﷻ حذرين من الذنوب والمعاصي، التي هي سبب الهزائم والفرقة وتسلط الأعداء، وإذا وقعت بهم المصائب والابتلاءات بادروا إلى محاسبة أنفسهم وفتشوا في داخلهم من أين أتوا، وهذا يدفعهم إلى المسارعة في الإقلاع عن الذنوب والتوبة إلى الله ﷻ منها، وفي هذا خير عظيم، وباب من أبواب النصر والتمكين.

ولما تساءل بعض المسلمين عن سبب هزيمتهم يوم أحد جاء الجواب من العليم الحكيم العزيز الرحيم: ﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران: ١٦٥]؛ فتعلم الصحابة رضي الله عنهم بعد هذه الآية درساً استفادوا منه في معاركهم بعد ذلك، حيث حذروا الذنوب، ولم يعودوا ينظرون إلى الأرض وغنائمها، فنصرهم الله ﷻ ولم يهزموا بعد ذلك في معركة قط مع الكفار.

### الثمرة الثالثة:

ولما كان من أنواع الابتلاء الذي يقدره الله ﷻ على عباده المؤمنين ابتلاء التمحيص والتمييز، فإن العلم بهذا الجانب من جوانب الابتلاء يجعل المؤمن مطمئن القلب إزاء هذه الابتلاءات موقناً أن فيها الخير والمصلحة العظيمة له ولإخوانه المؤمنين، حيث إن من منافعها وخيريتها تطهير قلوب المؤمنين بمثل هذه الابتلاءات، مما قد يلبسها من الأدران والآفات حيث تتمحص القلوب وتتطهر، وتصبح صالحة لأن ينزل الله ﷻ نصره عليها.

كما أن العلم بهذه السنة وآثارها سبب في طمأنينة القلب إلى تقدير الله ﷻ لهذه الابتلاءات على عباده المؤمنين، وذلك بإدراكه الحكمة الباهرة منها، وحينها يوطن العبد نفسه عليها ولا يستغربها؛ فيثبت بإذن الله تعالى فيها، ولا تساوره الشكوك والظنون السيئة، التي قد تعتري من كان جاهلاً بها.

### الثمرة الرابعة:

ولما كان من أنواع الابتلاء الذي يسلطه الله ﷻ على عباده المؤمنين تمييز المؤمن الصادق عن المنافق الكاذب؛ فإن العلم بهذه

السنة وحكمة الله ﷻ فيها يجعل المؤمن لا يستغرب حدوثها بل يراها نعمة من الله ﷻ على عباده المؤمنين، حيث يعرفهم بالابتلاء على المنافقين المندسين في الصف المؤمن فيفضحهم بالابتلاء، وبذلك يعرفهم المؤمنون ويحذرونهم، ويسعون لتنقية الصف منهم، لأنهم بطانة الكافرين وسبب في تأخر النصر عن المسلمين.

وهذا يثمر في قلب المؤمن الطمأنينة إلى ربه سبحانه، وإحسان الظن به، وشكره على قضاائه وقدره، الذي كله خير ومصلحة للمؤمنين؛ كما أن هذه المعرفة بهذه السنة تجعل المؤمن خائفاً راجياً لربه، يخاف ويحاذر أن يكون من المنافقين في صفاتهم، كما يرجو من ربه سبحانه أن يجعله في صف المؤمنين وخذقهم عند التمايز الذي يظهر عند الابتلاء.

#### الثمره الخامسة:

إن العلم بهذه السنة الشريفة يجعل المؤمن لا يستعجل نصر الله ﷻ أو يستبطئه أو يحدده بأجل؛ فإن هذا كله بيد الله ﷻ وتدبيره؛ حيث إن الأمور عند الله ﷻ تسير ضمن سنته سبحانه الدقيقة الصارمة الثابتة الشاملة، التي لا تتبدل ولا تتحول.



والمعرفة بهذا يجعل المؤمن متأدبًا مع ربه سبحانه العليم الحكيم، وهو عَلَّامُ الْغُيُوبِ يعلم ولا نعلم، ويقدر ولا نقدر، وعندما يتأخر نصر الله ﷻ عن عباده المؤمنين، فإن هذا التأخير له أسبابه وحكمته، وما أخره سبحانه عن عباده إلا لمصلحتهم، وعدم توفر أسبابه وشروطه، وفي هذا خير لهم.

إن مَنْ يستعجل نصر الله ﷻ والتمكين لعباده قبل سنة الابتلاء والتمحيص جاهل بهذه السنة غير عالم بها، لأن المعلوم من سنة الله ﷻ في صراع الحق مع الباطل: أن التمكين لأهل الحق لا يتحقق إلا بعد سنة الابتلاء والتمحيص، وقبل أن تظهر سنة الابتلاء في تمحيص المؤمنين وتميز الصف المؤمن من المنافق لا ينزل نصر الله ﷻ.

والحاصل: أن أمر النصر والتمكين بيد الله ﷻ يدبره بستته التي لا تتبدل، ولذا ينبغي للمسلم العارف لربه وستته ألا يشغل نفسه بمعرفة متى نصر الله أو يستعجل ذلك، وإنما الذي ينبغي أن ينشغل به المؤمنون هو ما مدى تمسكهم بالحق، وقيامهم بطاعة الله ﷻ وتركهم لمعاصيه الموجبة لنصره سبحانه وما مدى أخذهم بالأسباب الشرعية والمادية الضرورية، لتحقيق نصره سبحانه.

وأستأنس في تقرير المعنى السابق بأيتين من كتاب الله ﷻ يوجه الله ﷻ فيهما نبيه ﷺ وأتباعه من بعده إلى عدم استعجال محق الكافرين ونصر المؤمنين، وتفويض أمر ذلك إلى الله ﷻ العليم الحكيم.

- الآية الأولى: قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَفْضُلُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَن عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقَضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنعام: ٥٧، ٥٨].

- الآية الثانية: قوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿فَإِنَّمَا نَذَرْنَا بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الزخرف: ٤١-٤٣].

#### الثمرة السادسة:

إن سنة الله ﷻ بابتلاء المؤمنين الذي يعقبه نصرهم والتمكين لهم في الأرض تطلع المؤمن على حقيقة مهمة، إلا وهي أن هذا الدين العظيم لا بد لمن أراد الجنة باعتناقه وسعى في نشره والتمكين له: أن يواجه في ذلك العقبات والمحن والأخطار، لأن سلعة الله غالية ومحفوفة بالمكاره.

قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وعلى هذا يوطن المسلم نفسه ولا يفاجأ أو يستغرب بالابتلاء والشدائد لأنها سنة من سنن الله الثابتة، وإنما يكون همه وشغله الشاغل التضرع بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ وسؤاله سبحانه الصبر والثبات على الدين، والنجاة من الفتن ومن السقوط في الابتلاء، اللهم ثبتنا على دينك، واسترنا بعافيتك، ولا تفضحنا بابتلائك.

#### الثمرة السابعة:

إن العلم بهذه السنة يثمر عند الدعاة والمجاهدين في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ العلم بأسباب النصر بالعلم وأن العاقبة للمتقين، كما قال سبحانه في آية الأنعام عن رسله عليهم الصلاة والسلام: ﴿ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْذُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأُمْرُسَلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٤].

وإذا تأخر النصر فإنهم يعلمون في ضوء السنة: أن شروط النصر بعضها أو كلها قد تخلفت فيسعون إلى تحقيقها وتغيير ما بأنفسهم لأنهم يعلمون أن

نصر الله آت، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٤٧] [الروم: ٤٧]، ولكن حكمة الله ﷻ وعلمه وعزته اقتضت أن يكون ذلك بجهد البشر من عباده المؤمنين، الذين أخذوا بشروط النصر وأصوله.

ومن هذه الأصول ما يلي:

الأصل الأول: القيام بالحق بصحة الفهم والموافقة للشرع:

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾

[يوسف: ١٠٨].

ويُعنى بهذا الأصل أن تقوم الدعوة وينطلق التغيير من فهم صحيح، وعقيدة صافية، وبصيرة واضحة في الدين، كما جاء في كتاب الله ﷻ، وسنة رسول الله ﷺ وفهم الصحابة رضوان الله عليهم، لأن أي دعوة أو جهاد تقوم على غير هذا بأن يزيد على ذلك أو ينقص، فإنها قد فرطت في هذا الأصل العظيم من أصول التمكين والنصر.

ويلحق بالفهم الصحيح ما يجب أن يكون عليه أصحاب الدعوة من عمل صحيح موافق لما كان عليه الرسول ﷺ، وذلك في عباداتهم ومعاملاتهم وسلوكهم وعدم معصيتهم لله تعالى.

ومما يلحق بصحة الفهم: فهم الواقع والمحيط الذي يحيط بالدعاة والمجاهدين وطبيعته واستبانة سبيل المجرمين ومخططاتهم وكيدهم.

الأصل الثاني: حسن القصد:

وَيُعْنَى بِهَذَا الْأَصْل: إخلاص المقاصد لله عَزَّوَجَلَّ وصدق النية في الدعوة والتغيير بأن يكون القصد من ذلك التَعَبُّدُ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ وابتغاء وجهه ورضاه وجتته، وإنقاذ الناس بإذن ربهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن الشقاء والعذاب في الدنيا والآخرة إلى السعادة فيهما.

ويتفرع عن هذا الأصل أصل ثالث هو ثمرة من ثمار القصد الحسن والإخلاص، ألا وهو:

الأصل الثالث: اجتماع الكلمة ووحدة الصف ونبذ الفرقة:

إن حرص الدعوة والمجاهدين وحبهم للاجتماع والائتلاف، وكرههم للفرقة والاختلاف لهو دليل على الإخلاص وحسن القصد، والعكس بالعكس؛ ذلك لأن حسن القصد والتجرد لله عَزَّوَجَلَّ ينفي الهوى وحظوظ النفس، واللذان هما من أكبر أسباب الفرقة والبغضاء؛ فإنه لا يمكن

لأصحاب الفهم الصحيح الواحد أن يتفرقوا، ويبغي بعضهم على بعض لاختلافهم في بعض الاجتهادات، إلا إذا وجد الهوى وسوء القصد.

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «إن الاجتهاد السائغ لا يبلغ مبلغ الفتنة والفرقة إلا مع البغي، لا لمجرد الاجتهاد»<sup>(١)</sup>.

ويكفي في التدليل على أن اجتماع الكلمة ووحدة الصف أصل من أصول النصر والتمكين بقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

الأصل الرابع: التوكل على الله والاستعانة به وحده مع الأخذ بالأسباب:

وهذا أصل مهم من أصول النصر والتمكين، وهو في حقيقته داخل في الأصل الأول والثاني؛ لأن صحة الفهم والمعتقد يجعل أصحاب الدعوة فاهمين لحقيقة التوكل، وأنه يعني تمام الثقة بالله عَبَّادًا وغاية الاعتماد عليه مع فعل الأسباب المأمور بها وعدم الاعتماد عليها؛ لأن خالق الأسباب

(١) «الاستقامة» (١/٣٠).

ومسبباتها هو الله ﷻ، كما أن حسن القصد والإخلاص يجعلهم لا يتعلقون بالأسباب، ولا يعجبون بأنفسهم وإيمانهم وكثرة أتباعهم، وإنما يوقنون بأنهم ضَعْفَةٌ عاجزون، لا حول لهم ولا قوة إذا لم يعنهم الله ﷻ ويقويهم.

وإفراد هذا الأصل هنا في أصل مستقل مع دخوله فيما سبق للتأكيد على أهميته، ولوجود مَنْ يغفله في كثير من الأحيان وفي زحمة الأخذ بالأسباب.

وإنَّ الْأَخْذَ بهذا الأصل يعني تقوية اللجوء إلى الله ﷻ، ودعائه والتضرع بين يديه في استجلاب النصر ودفع الشر، مما يكون له الأثر في إضفاء الطمأنينة واليقين والثبات، ومن اليقين والثقة بوعد الله ﷻ: اليقين الذي لا يتزعزع بأن لله ﷻ جنود السموات والأرض، وأنه سبحانه ينصر عباده المؤمنين الذين أخذوا بأسباب النصر بجند من جنوده ويظهر ذلك للعيان ولو كان عباده في قلة من العدد والعتاد، ولو كان أعداؤهم في قوة عظيمة من العدد والسلاح وأدوات الدمار.

إنه لا يجوز لأصحاب الدعوة أن ينسوا نصر الله ﷺ لأبيائه عليهم الصلاة والسلام بجنوده الذين سخرهم لنصرة عباده، الذين بذلوا ما في وسعهم من العبودية له سبحانه والدعوة إلى دينه وإبلاغه للناس والصبر على ابتلاءات الطريق، فلقد نُصر نوح صلى الله عليه وسلم بالطوفان، ونصر هود صلى الله عليه وسلم بالريح، وصالح صلى الله عليه وسلم بالصيحة، ومحمد عليه الصلاة والسلام بالرعب، والملائكة التي قاتلت معه في بدر وأحد وحنين وغيرها من الغزوات، بل إن الناظر في انتصارات المسلمين بعد ذلك وفتوحاتهم ليلحظ أنهم كانوا دائماً في قلة من العدد والعتاد، مقابل أعدائهم من الفرس والروم وغيرهم، ومع ذلك انتصروا بنصر الله ﷺ لهم.

إذن من لوازم التوكل على الله ﷺ اليقينُ بتدخل قوة الله ﷺ لنصر عباده المؤمنين بآيات ومعجزات، وتثبيت المؤمنين، وبث الرعب في قلوب أعدائهم، وغير ذلك مما يقدره سبحانه في وقته المناسب وفق علمه سبحانه وحكمته.



والناس في نصر الله ﷻ لعباده المؤمنين بالآيات والمعجزات طرفان  
ووسط.

• **الطرف الأول:** الذين يرون أن الله ﷻ ينصر المسلمين بالآيات  
والجنود الذين يسخرهم للقضاء على أعداء الدين، ولو لم  
يأخذوا بأسباب النصر أو لم يكملوها فما داموا مسلمين  
وأعداؤهم من الكافرين فإن نصر الله ﷻ سينزل عليهم لأنهم  
مسلمون وكفى، وهذا الفريق من الناس يفرط في العادة في الأخذ  
بأسباب النصر، أو يستطول الطريق فلا يكملها، وإنما ينتظر  
خارقة وآية من الله ﷻ.

ولا يخفى ما في هذا القول من التفريط والغفلة عن سنن الله ﷻ في  
النصر والتمكين.

• **الطرف الثاني:** وهو مقابل للطرف الأول وقد يكون ردة فعل له، وذلك  
بقولهم بأنه لكي ينتصر المسلمون على أعدائهم ويمكن لهم في  
الأرض، فلا بد أن يكونوا مكافئين لعدوهم في العدد والعتاد والسلاح

والأخذ بالأسباب المادية، ولا يلتفتون إلى الآيات والمعجزات والإعانات التي ينصر الله سبحانه بها عباده المحققين لأسباب النصر، متى شاء سبحانه وعلم أن عباده المؤمنين قد استفرغوا ما في جهدهم من الأخذ بأصول النصر وأسبابه.

ومعلوم أن المسلمين في كل وقت، وبخاصة في هذا الوقت لم يصلوا ولن يصلوا، ولم يكلفهم الله سبحانه بأن يصلوا إلى مستوى أعدائهم في القوة والصناعة والسلاح؛ لأنه ليس شرطاً في نزول النصر.

ولا يخفى ما في هذا القول من تطرف وغفلة عن أسباب النصر الشرعية ونسيان لقوة الله تعالى والتي لا يقف أمامها أي قوة في الأرض ولا في السماء، والتي ينصر بها عباده المؤمنين الذين أخذوا بأسباب النصر فاستحقوا أن يسخر لهم جنود السموات والأرض.

• الوسط: وهو الحق إن شاء الله تعالى، وهم الذين بذلوا كل ما في وسعهم في الأخذ بأسباب النصر السالفة الذكر؛ حيث بذلوا ما في

وسعهم في الأخذ بالعلم النافع والعمل الصالح وحسن القصد، وربّوا أنفسهم على ذلك، وبلغوه للأمة قدر استطاعتهم، حتى عرفتهم الأمة وما هم عليه من الحق، وعرفت أعداءها وما هم عليه من كفر وفساد، وأخذوا بالأسباب المادية المباحة المتاحة لهم، ومع أخذهم بهذه الأسباب فلم يعتمدوا عليها، بل تبرءوا من الحول والقوة وتوكلوا على مسبب الأسباب ومن بيده ملكوت السموات والأرض، ومن له جنود السموات والأرض، وانتظروا نصره المبين الذي وعد به عباده المؤمنين الذين أخذوا بأسباب النصر، وبدلوا ما في وسعهم في ذلك وانتظروا تأويل قوله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

ولم ينسوا قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، بل هم موقنون بتدخل قوة الله عَزَّوَجَلَّ وظهور الآيات بعد أن يبذلوا

وُسْعهم في الأخذ بالأسباب وإعداد العدة للجهاد ولم يرهبهم حينئذ  
قوة أعدائهم من الكفرة والمنافقين مهما بلغت من القوة والدمار، لأن  
قوة الله عَزَّوَجَلَّ فوق قوتهم ونواصيهم بيده سبحانه ولو شاء الله تعالى  
لَدَمَّرَهَا عَلَيْهِمْ وَأَبْطَلَ مَفْعُولَهَا، ولكن هذا لا يكون إلا لمن حقق  
أسباب النصر والتمكين.



## السُّنَّةُ الرَّابِعَةُ

### سُنَّةُ الْإِمْلَاءِ وَالِاسْتِدْرَاجِ

### لِلْكَافِرِينَ وَالظَّالِمِينَ

وشاهد هذه السنة من سورة الأنعام قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤].

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى عند هذه الآية: «﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾. أي: أعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾، أي: فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون، وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم، عياداً بالله من مكروه؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ أي: من الأموال والأولاد والأرزاق. ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ أي: على غفلة. ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من كل خير..

وقال قتادة: بَغَتَ الْقَوْمَ أَمْرُ اللَّهِ، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغررتهم ونعيمهم، فلا تغتروا بالله، إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون، رواه ابن أبي حاتم أيضاً.

وقد مالك عن الزهري: ﴿فَتَحَنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قال: إرخاء الدنيا وسترها.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رشدين -يعني ابن سعد الحجاج المهري- عن حرملة بن عمران التَّجِيبِي، عن عُقْبَةَ بن مسلم، عن عقبه بن عامر، عن النبي ﷺ قال: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَىٰ مَعْاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم عن عقبه بن عامر به (١) «(٢)».

ويعلق سيد قطب رحمه الله تعالى على هذه الآية فيقول: «ولقد كنت - في أثناء وجودي في الولايات المتحدة الأمريكية - أرى رأي العين مصداق قول الله سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فإن المشهد الذي ترسمه هذه الآية.. مشهد تدفق كل شيء من الخيرات والأرزاق بلا حساب!.. لا يكاد يتمثل في الأرض كلها كما يتمثل هناك!

(١) «مسند أحمد» (٤/ ١٥٤)، و«تفسير الطبري» (١١/ ٣٦١).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٥٦).

وكنت أرى غرور القوم بهذا الرخاء الذي هم فيه، وشعورهم بأنه وَقَفَّ على «الرجل الأبيض»، وطريقة تعاملهم مع الملونين في عجرفة مردولة، وفي وحشية كذلك بشعة! وفي صَلَف على أهل الأرض كلهم لا يقاس إليه صلف النازية، الذي شهر به اليهود في الأرض كلها، حتى صار علماً على الصلف العنصري، بينما الأمريكي الأبيض يزاوله تجاه الملونين في صورة أشد وأقسى! وبخاصة إذا كان هؤلاء الملونون من المسلمين..

كنت أرى هذا كله فأذكر هذه الآية، وأتوقع سنة الله، وأكاد أرى خطواتها وهي تدب إلى الغافلين: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

وإذا كان الله قد رفع عذاب الاستئصال بعد بعثة رسول الله ﷺ، فهناك ألوان من العذاب باقية، والبشرية - وبخاصة الأمم التي فتحت عليها أبواب كل شيء - تذوق منها الكثير، على الرغم من هذا النتاج الوفير، ومن هذا الرزق الغزير!

إن العذاب النفسي، والشقاء الروحي، والشذوذ الجنسي، والانحلال الخلقي.. الذي تقاسي منه هذه الأمم اليوم، ليكاد يغطي على الإنتاج والرخاء والمتاع؛ وليكاد يصبغ الحياة كلها بالنكد والقلق والشقاء! ذلك إلى

جانب الفصائح التي تشير إليها القضايا الأخلاقية السياسية، التي تباع فيها أسرار الدولة، وتقع فيها الخيانة للأمة، في مقابل شهوة أو شذوذ»<sup>(١)</sup>.

والآيات الواردة في ذكر هذه السنة في القرآن الكريم كثيرة منها:

• قوله تعالى: ﴿فَذَرَّهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنين: ٥٤-٥٦].

• وقوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَلِّبُ بِهِذَا الْحَدِيثَ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٤﴾ وَأَمْ لِي لَهُمْ إِن كِيدِي مَتِينٌ ۝٤٥﴾ [القلم: ٤٤-٤٥].

• وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٧٨﴾ [آل عمران: ١٧٨].

يلحق سيد قطب رحمه الله تعالى على هذه الآية فيقول: «وفي هذه الآية

يصل السياق إلى العقدة التي تحيك في بعض الصدور، والشبهة التي تجول في بعض القلوب، والعتاب الذي تجيش به بعض الأرواح، وهي ترى أعداء الله وأعداء الحق متروكين لا يأخذهم العذاب، ممتعين في ظاهر الأمر بالقوة والسلطة والمال والجاه! مما يوقع الفتنة في قلوبهم وفي قلوب الناس من

(١) «في ظلال القرآن» (٢/١٠٩١).



حولهم؛ ومما يجعل ضعاف الإيمان يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية؛ يحسبون أن الله -حاشاه- يرضى عن الباطل والشر والجحود والطغيان، فيملي له ويرخي له العنان! أو يحسبون أن الله سبحانه لا يتدخل في المعركة بين الحق والباطل، فيدع للباطل أن يحطم الحق ولا يتدخل لنصرته! أو يحسبون أن هذا الباطل حق، وإلا فَلِمَ تركه الله ينمو ويكبر ويغلب؟! أو يحسبون أن من شأن الباطل أن يغلب على الحق في هذه الأرض، وأن ليس من شأن الحق أن يتتصر! ثم.. يدع المبطلين الظلمة الطغاة المفسدين يلجون في عتوهم، ويسارعون في كفرهم، ويلجون في طغيانهم، ويظنون أن الأمر قد استقام لهم! وأن ليس هنالك من قوة تقوى على الوقوف في وجههم.

وهذا كله وهم باطل، وظنُّ بالله غير الحق، والأمر ليس كذلك، وهاهو ذا الله ﷻ يحذر الذين كفروا أن يظنوا هذا الظن: إنه إذا كان الله لا يأخذهم بكفرهم الذي يسارعون فيه، وإذا كان يعطيهم حظاً في الدنيا، يستمتعون به ويلهون فيه.. إذا كان الله يأخذهم بهذا الابتلاء فإنما هي الفتنة؛ وإنما هو الكيد المتين، وإنما هو الاستدراج البعيد! ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرًا لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا﴾.

ولو كانوا يستحقون أن يخرجهم الله من غمرة النعمة بالابتلاء الموقظ لابتلاهم.. ولكنه لا يريد بهم خيراً وقد اشتروا الكفر بالإيمان وسارعوا في الكفر واجتهدوا فيه! فلم يعودوا يستحقون أن يوظفهم الله من هذه الغمرة - غمرة النعمة والسلطان - بالابتلاء، والإهانة هي المقابل لما هم فيه من مقام ومكانة ونعماء.

وهكذا يتكشف أن الابتلاء من الله نعمة لا تصيب إلا من يريد له الله به الخير؛ فإذا أصابت أوليائه فإنما تصيبهم لخير يريد الله لهم - ولو وقع الابتلاء مترتباً على تصرفات هؤلاء الأولياء - فهناك الحكمة المغيبة والتدبير اللطيف، وفضل الله على أوليائه المؤمنين، وهكذا تستقر القلوب وتطمئن، وتستقر الحقائق الأصيلة البسيطة في التصور الإسلامي الواضح المستقيم»<sup>(١)</sup>.

من ثمرات العلم بهذه السنة:

الثمرة الأولى:

زيادة العلم بالله ﷻ وبأسمائه وصفاته وآثارها ومقتضياتها؛ لأن سنة الإيماء وما يعقبها من العقوبة والانتقام من الظالمين تُطلع العبد على قوة

(١) «في ظلال القرآن» (١/٥٢٤، ٥٢٥).

اللهِ عَزَّوَجَلَّ وعزته وحكمته ولطفه وقهره وسعة علمه وحلمه، وبهذه المعرفة تزداد محبة الله عَزَّوَجَلَّ في القلوب ويزداد بذلك المؤمنون إيماناً.

### الثمرة الثانية:

الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ وعقوبته ومكره بمن عصاه وخالف أمره، وهذا الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ إنما ينشأ من شعور المسلم حين يعصي ربه، وهو في رغد من العيش بالخوف من أن يكون هذا من باب الإملاء والاستدراج، الذي تعقبه العقوبة الشديدة إما في الدنيا أو في الآخرة.

وهذا من الابتلاء بالنعم والرخاء؛ حيث إن هذا النوع من الابتلاء أخطر وأشد من الابتلاء بالضراء والمصائب؛ فقليل هم الذين يصبرون على فتنة السراء فلا يبطرون ولا يتمادون في المعاصي.

وكما مر بنا في الحديث الذي رواه أحمد وغيره: «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج».

ويشتد هذا الخوف ويعظم إذا ظهرت المعاصي في المجتمعات وقَلَّ إنكارها، ثم هم في نفس الوقت في نعمة ورخاء.

والوقوف مع سنة الإملاء للظالمين أيضاً تجعل المسلم لا يغتر بما هم

فيه من رخاء وتمكين، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ [آل عمران: ١٩٦].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]. وقد جعل الله لهم بحكمته وعلمه وحلمه أجلاً لإهلاكهم لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون.

#### الثمرة الثالثة:

وهي نتيجة للثمره السابقة؛ حيث إن العالمين بهذه السنه من الدعاه والمصلحين حينما يرون أن الله ﷻ يسبغ نعمه على عباده وهم يعصونه فإنهم لخوفهم من كون هذا إملاءً واستدراباً يسعون في إصلاح ما أفسده الناس، ويحذرونهم من عاقبة المعاصي، فيتضاعف جهدهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونشر الخير، ومحاربة الفساد، حتى لا تحل بالناس عقوبة الله ﷻ بغته وهم لا يشعرون.

#### الثمرة الرابعة:

الاطمئنان إلى وعد الله ﷻ وحكمته وعلمه، الذي يثمر في قلب المؤمن العالم بهذه السنه حسن ظنه بربه وزياده معرفته بكمال علمه وحكمته في جميع أفعاله، فهو سبحانه وإن أملى للظالمين مدة من الزمن طالت

أو قصرت، فإنه له سبحانه الحكمة في ذلك..

وهذا الإيماء له أجل مضروب عند الله ﷻ يعقبه التمكين لعباده المؤمنين والمحق لأعدائه من الظالمين، وإن الجهل بهذه السنة هو الذي ينشأ عنه الشكوك في وعد الله ﷻ، وسوء الظن به وأفعاله سبحانه، أو اليأس من نصره؛ فمثلاً حين يرى الجاهلون بهذه السنة أحداث هذا الزمان وما فيه من الظلم، ثم تظل الجهة التي قامت بالظلم ومارسته وتسلّطت على البلاد والعباد، وظلمت الناس في أنفسهم، وفي أرزاقهم، وفي حقوقهم، وفي أعراضهم، تظل هذه الجهة الظالمة لحقبة ما، ممكنة في الأرض، منهمة في قهرها للناس، وتسلطها وطغيانها، فحينئذ قد يشك بعض الناس أصحاب النظر التقصير في هذه السنن ويقولون: أين السنة الإلهية من هذا الظلم الفادح الواقع الذي لم يأت عقوبته؟ وحين تقع عقوبة هذا الظلم بعد زمان يطول أو يقصر -الله تعالى أعلم به، فهو مقدر الأقدار سبحانه، بعلمه وحكمته وعزته- فكلُّبما أدرك بعض الناس هذه السنة ووعوا أن هذه العقوبة نتيجة ظلم قديم يتذكرونه، ويبقى آخرون على جهلهم أو تجاهلهم لهذه السنة، محتجين بواقع آخر ظالم لم تجر عليه السنة؛ فإذا قلت لهم اليوم مثلاً: إن ما حصل لهذه الجهة أو تلك بسبب الظلم الذي حصل قبل عشر أو

عشرين أو ثلاثين أو مائة سنة، قالوا: لو كان هذا كذلك، فلماذا تجد المكان الآخر فيه ظلم، ومع ذلك لم تحقَّ عليه السنة الإلهية، ولم يؤاخذ الله تعالى بظلمه؟!!

مثل هذا الظن الفاسد لا علاج له إلا بالوقوف مع هذه السنة الشريفة وفهمها يقول الدكتور السلمي حفظه الله تعالى: «قد يرى الناس موجبات العذاب والانهيار قد حلت بأمة من الأمم، ثم لا يرون زوالها بأنفسهم.. وسنة الله لا تتخلف، لكن عمرها أطول من عمر الأفراد، ولا تقع إلا بأجل محدد لا بد من استيفائه، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ [الأعراف: ٣٤]» (١).

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى: «وإنه لَمِمَّا يَخْدَعُ النَّاسَ أَنْ يَرَوْا الْفَاجِرَ الطَّاعِيَّ أَوْ الْمَلْحَدَ الْكَافِرَ مُمْكِنًا لَهُ فِي الْأَرْضِ غَيْرَ مَاخُودٍ مِنَ اللَّهِ، وَلَكِنَّ النَّاسَ إِنَّمَا يَسْتَعْجِلُونَ، إِنَّهُمْ يَرُونَ أَوَّلَ الطَّرِيقِ أَوْ وَسْطَهُ، وَلَا يَرُونَ نَهَايَةَ الطَّرِيقِ، لِأَنَّ السَّنَةَ تَسْتَعْرِقُ وَقْتًا طَوِيلًا، لَكِنَّا تَلَاخُظُ مِنْ خِلَالِ التَّارِيخِ» (٢).

(١) «منهج كتابة التاريخ الإسلامي» (ص ٦٦).

(٢) «في ظلال القرآن» (٢/ ١٣٠٨).

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفْرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٥-٢٧].

وقال سبحانه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج: ٤٧].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِنْدِي مَا نَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يُقْضَىٰ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنعام: ٥٧].

الثمره الخامسة:

إدراك حقيقة مهمة تظهر للمتأمل في سنة الإملاء، وما يعقبها من تمكين للمؤمنين ومَحَقِّ للكافرين، وذلك أنه باستقراء تاريخ الصراع بين الحق والباطل وما فيه من المدافعة بين الفريقين، يظهر للمتأمل في ذلك: التلازم والتزامن بين سبتي الابتلاء للمؤمنين والإملاء للكافرين والظالمين والمتسلطين؛ أي: أن كلاً السبتيين تعملان في وقت واحد، ففي الوقت الذي يتبلي الله عَزَّوَجَلَّ عباده المؤمنين ليطهرهم ويمحصهم ويميز فيه المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، فإن هذا يتزامن مع إملاء الله عَزَّوَجَلَّ للظالمين المستكبرين واستدراجهم، ليزدادوا إثماً، ويسارعوا إلى نهايتهم المحتومة، التي فيها هلاكهم ومحققهم، والتي تحق عليهم حينما توتى سنة الابتلاء

أكلها، وتظهر حكمة الله ﷻ منها، ويتميز الصف المؤمن الصادق الذي يستحق أن ينصره الله ﷻ، ويمحق من أجله الكافرين الظالمين، ويورثهم الأرض من بعدهم، وقبل أن تحقق سنة الابتلاء أثرها من التمحيص والتمييز؛ فإن سنة الإملاء للظالمين قد تطول، ويتأخر محققهم وأخذهم، قال الله ﷻ: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١].

ولعل في هذه الآية ما يفهم من أن المحقق للكافرين بعد الإملاء لهم لا يكون إلا بعد تمحيص المؤمنين وتطهير صفوفهم من الخبث، ولعل أيضًا في مجيء الآية التي فيها تمييز الخبيث من الطيب بالابتلاء بعد الآية التي فيها ذكر الإملاء للكافرين في سورة آل عمران ما يُستأنس به، ويُستدل على ما سبق ذكره من ظهور الحكمة في التلازم والتزامن بين سنتي الابتلاء والإملاء.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (١٧٨) [آل عمران: ١٧٨]. ثم قال تعالى بعدها: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩].





## السُّنَّةُ الْخَامِسَةُ سُنَّةُ اللَّهِ ﷻ فِي الْهُدَايَةِ وَالْإِضْلَالِ

قال الله ﷻ في سورة الأنعام: ﴿مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٣٩﴾ [الأنعام: ٣٩].

وقال ﷻ في السورة نفسها: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلُوبٌ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٠٩﴾ وَنُقِلَبُ أَفْئِدَتِهِمْ وَأَبْصَرُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿١١٠﴾ [الأنعام: ١٠٩-١١٠].

وقال تعالى في السورة نفسها: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعْدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٢٥﴾ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ ﴿١٢٦﴾ [الأنعام: ١٢٥، ١٢٦].

وقال تعالى في السورة نفسها: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١٤٩﴾ [الأنعام: ١٤٩].

وقال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ ﴿٥٣﴾ [الأنعام: ٥٣].

هذه بعض الآيات من سورة الأنعام التي يبين فيها ربنا ﷻ سنته في الهداية والإضلال، ولتفصيل هذه السنة أذكر هنا ما كتبه بعض المفسرين حول هذه الآيات:

قال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِعَايُنِنَا صُومُوا وَيُكْمُّ فِي الظُّلْمَتِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَاءُ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٣٩﴾: «هذا بيان لحال المكذبين بآيات الله المكذبين لرسوله، أنهم قد سدوا على أنفسهم باب الهدى، وفتحوا باب الردى، وأنهم ﴿صُومُوا﴾ عند سماع الحق ﴿وَبُكْمٌ﴾ عن النطق به فلا ينطقوا إلا بباطل. ﴿فِي الظُّلْمَتِ﴾ أي: منغمسون في ظلمات الجهل والكفر والظلم والعناد والمعاصي، وهذا من إضلال الله إياهم، و﴿مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَاءُ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، لأنه المنفرد بالهداية والإضلال بحسب ما اقتضاه فضله وحكمته» (١).

(١) «تفسير السعدي» (ص ٢٥٦).

وقال رحمه الله تعالى عند قوله سبحانه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١١٣): «أي: ونعاقبهم إذ لم يؤمنوا أول مرة يأتيهم فيها الداعي، وتقوم عليهم الحجة، بتقليب القلوب والحيلولة بينهم وبين الإيمان وعدم التوفيق لسلوك الصراط المستقيم، وهذا من عدل الله وحكمته بعباده؛ فإنهم الذين جنوا على أنفسهم، وفتح لهم الباب فلم يدخلوا وبين لهم الطريق فلم يسلكوا، فبعد ذلك إذا حرموا التوفيق، كان مناسباً لأحوالهم» (١).

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية: «والأمر كله مرهون بمشيئة الله، هو الذي شاء ألا يهديهم؛ لأنهم لم يأخذوا بأسباب الهدى، وهو الذي شاء أن يدع لهم هذا القدر من الاختيار على سبيل الابتلاء، وهو الذي يهديهم إذا جاهدوا للهدى، وهو الذي يضلهم إذا اختاروا الضلال.. فلا تعارض في التصور الإسلامي بين طلاقة المشيئة الإلهية، وهذا المجال الذي ترك للبشر لابتلائهم فيه بهذا القدر من الاختيار...»

إن الإيمان حدث والضللال حدث، وما يقع في هذا الوجود حدث إلا

(١) المصدر نفسه (ص ٢٦٩).

بقدر من الله ينشئه ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾؛ فأما السنة التي يجري على أساسها ذلك القدر بوقوع إيمان فلان وضلال فلان فهي التي تبينها مجموعة النصوص.

وهي: أن الإنسان مبتلى بقدر من الاختيار في الاتجاه؛ فإذا اتجه إلى الهدى وجاهد فيه هداه الله، ووقع هداه وتحقق بقدر، وإذا اتجه إلى الضلال وكره الهدى أضله الله، ووقع ضلاله، وتحقق بقدر من الله، وهو على الحالين في قبضة الله وسلطانه، وحياته تجري بقدر الله، وفق مشيئته الطليقة، وستته التي وضعتها مشيئته الطليقة»<sup>(١)</sup>.

ويقول رحمه الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾: «من يقدر الله له الهداية - وفق سنته الجارية من هداية من يرغب في الهدى، ويتجه إليه بالقدر المعطى له من الاختيار بقصد الابتلاء - ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾؛ فيتسع له، ويستقبله في يسر ورغبة، ويتفاعل معه ويطمئن إليه، ويستروح به ويستريح له.

---

(١) «في ظلال القرآن» (٣/ ١١٨٨).

ومن يقدر له الضلال - وفق سنته الجارية من إضلال من يرغب عن الهدى ويغلق فطرته عنه - ﴿يَجْعَلُ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ .. فهو مغلق مطموس، يجد العسر والمشقة في قبوله، ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ .. وهي حالة نفسية تجسم في حالة حسية، من ضيق النفس وكربة الصدر، والرهبق المضني في التصعد إلى السماء! وبناء اللفظ ذاته ﴿يَصَّعَّدُ﴾ - كما هو في قراءة حفص - فيه هذا العسر والقبض والجهد، وجرسه يخيل هذا كله، فيتناسق المشهد الشاخص، مع الحالة الواقعة، مع التعبير اللفظي في إيقاع واحد، وينتهي المشهد بهذا التعقيب المناسب» (١).

ويفصل رحمه الله تعالى في سنته سبحانه في الهداية والإضلال، فيقول: «إن قدر الله في الناس هو الذي ينشئ ويخلق كل ما ينشأ وما يُخلق من الأحداث والأشياء والأحياء.. وهو الذي يصرف حياة الناس ويكيّفها، شأنهم في هذا شأن هذا الوجود كله.. كل شيء فيه مخلوق بقدر، وكل حركة تتم فيه بقدر.. ولكن قدر الله في الناس يتحقق من خلال إرادة الناس وعملهم في ذات أنفسهم، وما يحدثون فيها من تغيرات ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].»

(١) «في ظلال القرآن» (٣/ ١٢٠٣، ١٢٠٤).

وكون مرد الأمر كله إلى المشيئة الإلهية المطلقة، لا يبطل هذا ولا يعطله، فالأميرين يجيئان مجتمعين أحياناً في النص القرآني الواحد...

ونحن إنما نفترض التعارض والتناقض حين ننظر إلى القضية بتصور معين نصوغه من عند أنفسنا، عن حقيقة العلاقة بين المشيئة الكبرى، وحركة الإنسان في نطاقها، إلا أن المنهج الصحيح: هو ألا نستمد تصوراتنا في هذا الأمر من مقررات عقلية سابقة، بل أن نستمد من النصوص مقرراتنا العقلية في مثل هذه الموضوعات، وفيما تقصه علينا النصوص من شأن التقديرات الإلهية، في المجال الذي لا دليل لنا فيه، غير ما يطلعنا الله عليه منه..

فهو سبحانه قال: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾.

وهو قال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

وهو قال: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾.

وهو قال: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعْدُ فِي السَّمَاءِ﴾.

وهو سبحانه قال في الوقت نفسه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٤٦)

فلا بد إذن - وفق تصور المسلم لإلهه وعدله في جزائه، وشمول مشيئته وقدره - من أن تكون حقيقة النسب بين مدلولات هذه النصوص في حساب الله، من شأنها أن تسمح للإنسان بقدر من الإيجابية في الاتجاه والعمل، يقوم عليه التكليف والجزاء، دون أن يتعارض هذا القدر مع مجال المشيئة الإلهية المطلقة، المحيطة بالناس والأشياء والأحداث، كيف؟

كيفيات فعل الله كلها، وكيفيات اتصال مشيئته بما يراد خلقه وإنشاؤه كلها.. ليس في مقدور العقل البشري إدراكها، والتصور الإسلامي يشير بتركها للعلم المطلق، والتدبير المطلق - مع الطمأنينة إلى تقدير الله وعدله ورحمته وفضله - فالتفكير البشري المحدود بحدود الزمان والمكان، وبالتأثرات الوقتية والذاتية، ليس هو الذي يدرك مثل هذه النسب وهذه الكيفيات، وليس هو الذي يحكم في العلاقات والارتباطات بين المشيئة الإلهية والنشاط الإنساني، إنما هذا كله متروك للإرادة المدبرة المحيطة والعلم المطلق الكامل.. متروك لله الذي يعلم حقيقة الإنسان، وتركيب كينونته، وطاقت فطرته وعمله الحقيقي، ومدى ما فيه من الاختيار، في نطاق المشيئة المحيطة، ومدى ما يترتب على هذا القدر من الاختيار من جزاء.

وبهذا وحده يقع التوازن في التصور، والتوازن في الشعور، والاطمئنان إلى الحركة وفق منهج الله والتطلع معها إلى حسن المصير...

أما وجود الشر في ذاته، وما ينشأ عنه من الألم في كل صورة، ولماذا يوجد والله قادر على ألا يوجد ابتداء، ولو شاء لهدى الناس جميعًا، ولو شاء لخلق الناس كلهم مهتدين ابتداء؟! أما هذا السؤال فلا موضع له ألبتة في التصور الإسلامي!

إن الله قادر طبعًا على تبديل فطرة الإنسان - عن طريق هذا الدين أو عن غير طريقه - أو خلقه بفطرة أخرى، ولكنه شاء أن يخلق الإنسان بهذه الفطرة، وأن يخلق الكون على هذا النحو الذي نراه، وليس لأحد من خلقه أن يسأله: لماذا شاء هذا؟ لأن أحدًا من خلقه ليس إلهًا! وليس لديه العلم والإدراك - ولا إمكان العلم والإدراك - للنظام الكلي للكون، ولمقتضيات هذا النظام في طبيعة كل كائن في هذا الوجود، وللحكمة الكامنة في خلقه كل كائن بطبيعته التي خلق عليها.

والله وحده هو الذي يعلم؛ لأنه وحده هو الذي خلق الكون ومن فيه وما فيه وهو وحده الذي يرى ما هو خير فينشئه ويبقيه، وهو وحده الذي



يقدر أحسن وضع لما خلق فينشئه فيه: ﴿قَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (١٤) ﴿[المؤمنون: ١٤].﴾ ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥]» (١).

خلاصة ما سبق: نخلص من هذه النقول عن سنة الله ﷻ في الهداية والإضلال إلى ما يلي:

أولاً: إن الإضلال والهداية من الله سبحانه لعباده هي من مقتضى علمه سبحانه وحكمته وعزته ورحمته، فالله ﷻ يهدي من يشاء بفضله ورحمته وعلمه وحكمته، ويضل من يشاء بعدله وعلمه وحكمته، وليس لمجرد المشيئة الخالية من العلم والحكمة - كما تقوله الأشاعرة ومن نهج نهجهم - فالله ﷻ يهدي من علم منه سبحانه حبه للهداية وخضوعه وإنابته للحق إذا تبين له، ويعينه ويوفقه لذلك، بينما من أعرض عنه سبحانه وعن الهداية التي أرسل من أجلها الرسل، وأنزل الكتب واستكبر على الحق؛ فإن الله ﷻ يخذله ويكبله إلى نفسه، ومن تخلى الله ﷻ عنه، ولم يمد به عنونه هلك وضل، وطبع على قلبه وسمعه فمن يهديه من بعد الله؟!!

(١) «خصائص التصور الإسلامي» (١٢٨-١٣١) باختصار.

فالهداية والإضلال التي هي من فعل الله ﷻ تقع جزاء لفعل العبد باختياره وسلوكه طريق الهدى وقبوله له أو اختيار طريق الضلال وقبوله له.

قال الله ﷻ في سورة الأنعام: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣].  
وقال سبحانه: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: ١٣]. وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآثَانَهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧]. وقال ﷻ: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٦]. وقال ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [الرعد: ٢٧].

وعن أسباب إضلال من ضل وحكمته سبحانه في ذلك: فيقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف: ٥].  
وقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [التوبة: ١٩]. وقال ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [النحل: ١٠٤]. وقال ﷻ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [آل عمران: ٨٦]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر: ٣].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُومًا وَبُكْمًا فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَاءُ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَن يُشَاءُ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام: ٣٩].

ثانيًا: إن سنة الله ﷻ في الهداية والإضلال هي من مقتضى أسمائه الحسنی وصفاته العلی، فَيَمُنُّ عَلَى مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ وَأَنَابَ إِلَيْهِ بفضلِهِ ورحمته وعلمه وحكمته، ويضل من أعرض عنه بعلمه وحكمته وعزته وعدله، وله سبحانه الحمد التام على ذلك كله. والله تعالى حكم عدل لا يظلم أحدًا من عباده، ولا يضل إلا من علم منه سبحانه تكبره وإعراضه، والله ﷻ له الحمد التام في أسمائه وصفاته وأفعاله؛ حيث لا يضع الهداية إلا في قلب من يستحقها، ولا الإضلال إلا في قلب من يستحقه.

ثالثًا: إن قدر الله ﷻ وحكمه النافذ في خلقه هو سر الله ﷻ، ولا قدرة للعقول على إدراك هذا السر؛ لأن كفيات أفعال الله ﷻ فوق مُدْرَكَاتِ العقول، قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِـ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: ١١٠].

لذا؛ فالمطلوب من المسلم أن يهتم وينهض بأداء ما كلفه الله ﷻ به من الأوامر والنواهي، وأن يكف ولا ينشغل ولا يبحث في شيء وراء الغاية التي خلق من أجلها، ولا يبحث في شيء وراء ذلك من أمر الغيب المحجوب عن إدراكه المحدود، وأن يوقن بأن الله ﷻ ما كان ليكلفه بأمر يعلم أن لا طاقة له به أو أنه ممنوع بمانع قهري عنه، وما كان الله ﷻ لينهاه عن شيء يعلم أن لا طاقة بالامتناع عنه أو أنه مدفوع بدافع قهري لارتكابه، قال سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] (١).

من ثمرات العلم بهذه السنة:

الثمرة الأولى:

سؤال الله ﷻ والتضرع بين يديه في طلب الهداية بنوعيتها: هداية الدلالة والإرشاد إلى الحق، وهداية التوفيق باتباع الحق والانقياد له، وسؤاله مع ذلك الثبات على الحق والهدى والموت عليه؛ لأنه ليس كل من

(١) انظر: «خصائص التصور الإسلامي» (ص ١٣٦).

رُزِقَ الهداية يموت عليها، والتوفيق للحق واتباعه، والموت والثبات عليه حتى الممات لا يوفق إليه إلا مالك القلوب ومصرفها علام الغيوب.

ولقد كان النبي - يكثر في دعائه من قول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» فقالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: يا رسول الله دعوة كثيرًا ما تدعو بها قال: «إنه ليس من عبد إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله، فإذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاعه»<sup>(١)</sup>.

والله عَزَّوَجَلَّ لا يضل من استهداه، ولا يخيب من رجاه، ولا يخذل من أناب إليه بصدق وإخلاص؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ إذا علم من عبده الصدق في طلب الهداية والإذعان للحق إذا تبين له وفقه وسدده وأعانه، وإذا علم منه الإعراض والإباء والاستكبار أعرض عنه وخذله ووكله إلى نفسه وشيطانه.

والمقصود: أن الهداية من الله عَزَّوَجَلَّ، فتطلب من مالكتها ومسديها سبحانه، وعلى أن يكون الدعاء مصحوبًا بصدق الطلب، وذلك ببذل الجهد في الأخذ بأسباب الهداية، والإذعان للحق إذا تبين، والبعد عن أهل الضلال

(١) رواه ابن ماجه (١٩٩)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١٦٥).

وطلب الصحبة الصالحة، التي تذكّر بالحق وتعين عليه، ويرى فيها القدوات التي تؤدي إلى الاقتداء بهداهم، كما قال ﷺ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَتْهُمْ أَقْتَدَةٌ﴾ [الأنعام: ٩٠].

#### الثمرة الثانية:

إذا علم العبد أن سنة الله ﷻ في هداية عباده إلى الحق أو الإضلال عنه تنفذ في عباده، حسب ما يعلمه سبحانه من قلوبهم من محبة بعضهم للحق والانقياد له، أو تكبر بعضهم على الحق ورده؛ إذا علم العبد ذلك، فإن هذا الشعور يجعله على حذر من رد الحق، إذا بان له، لأن الله ﷻ يعاقب من تكبر على الحق بصرفه عنه، وترك إعانته، ومن تخلى الله ﷻ عنه ولم يعنه هلك وضل ضلالاً مبيئاً.

قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّآءَآءَ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «احذر حذار من أمرين لهما

عواقب سوء:

أحدهما: رد الحق لمخالفته هواك؛ فإنك تعاقب بتقليب القلب، وردّ ما يردُّ عليك من الحق رأساً، ولا تقبله إلا إذا برز في قالب هواك، قال تعالى: ﴿وَنَقَلِبُ أَفْعَدْتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَّ مَرَّةٍ﴾؛ فعاقبهم على رد الحق أول مرة: بأن قلب أفعدتهم وأبصارهم بعد ذلك.

والثاني: التهاون بالأمر إذا حضر وقته؛ فإنك إن تهاونت به ثبطك الله وأقعدك عن مرضيه وأوامره؛ عقوبة لك، قال تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَدْنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَّنْ نَّخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن نُّقْتَلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوْلَّ مَرَّةٍ فَأَقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣]، فمن سلّم من هاتين الآفتين والبلّيتين العظيمتين؛ فليهنه السلامة<sup>(١)</sup>.

(١) «بدائع الفوائد» (٣/١٨٠).

## الثمرة الثالثة:

محبتة سبحانه، وإحسان الظن به، وإجلاله وتعظيمه، وتعظيم أسمائه الحسنی وصفاته العلی، حيث إن كل ما خلق الله ﷻ أو أمر به فهو مقتضى أسمائه الحسنی التي لا تقتضي إلا الأفعال الحسنی، التي لا يتطرق لها نقص ولا ظلم ولا جهل ولا هوى، ومن ذلك هدايته سبحانه لمن يشاء من عباده وإضلاله لمن يشاء، وذلك بحكمته وعدله وعزته وعلمه سبحانه، فهو سبحانه -وكما ذكرت سابقاً- لا يُضل إلا مَنْ يعلم سبحانه أنه مستحق للإضلال بإعراضه وتكبره على الحق، ولا يهدي إلا مَنْ يعلم استحقاقه للهداية والتوفيق بما يعلم منه سبحانه من إرادته للحق وانقياده له.

وهذا علم غيبي لا يعلمه إلا الله ﷻ، العالم بما في السرائر والضمائر، أما البشر فلا يعلمون من الإنسان إلا ما ظهر منه، فعلمنا بأسماء الله الحسنی ومقتضياتها يجعلنا نوقن ونطمئن أن الله ﷻ لا يهدي ولا يضل إلا من علم منه سبحانه أنه مستحق للهداية أو الإضلال، وهذا يفسر لنا قوله ﷺ: «وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس حتى لا يكون بينه وبينها إلا



ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»... الحديث (١).

وبمعرفة سنة الله ﷻ في الهداية والإضلال يزول الإشكال الذي قد يعلق ببعض الأذهان من كون الله ﷻ يضل من عمل بعمل أهل الجنة، وأوشك على دخولها، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وزوال الإشكال يكون بعلمنا أن الله ﷻ يعلم من قلب هذا العبد ما لم يعلمه الناس، الذين لا يرون إلا ظاهر أعماله التي تبدو للناس، أما علم الله ﷻ المطلع على أسرار قلب هذا العبد وما فيه من الكبر والإعراض والإباء؛ فهو الذي ترتب عليه سوء خاتمته وإضلاله ودخوله النار.

وفي إدراك هذه الحقيقة ثمرة أخرى ألا وهي التطمئن في الحكم على الآخرين، سواء بالتركيبية أو التَّدسية، فَلَربَّما ضلَّ مَنْ كُنَّا نرى أنه من المهتمدين، واهتدى من نرى أنه من الفاسقين.

وبمعرفة هذه الحقيقة يزول عن المسلم شعوره باليأس من هداية الضالين أو الحزن والحسرة على ضلالهم، أو انتكاستهم بعد هدايتهم بعد

(١) البخاري (٤٢٠٢) عن سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ومسلم (٢٦٥١) (١١٢).

بذل أسباب الهداية لهم؛ فالله عَزَّوَجَلَّ بعلمه وحكمته وعزته وعدله يضل مَنْ يشاء ويهدي مَنْ يشاء.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٨) [فاطر: ٨].

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يتوفانا مسلمين، وأن يلحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين.



## الفصل الثاني

### ذكر بعض الرقائب العقديَّة والتربويَّة

### المستفادة من بعض الآيات في سورة الأنعام

#### • الوقفة الأولى •

عند قوله تعالى في فاتحة السورة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۚ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

يقول السعدي رحمه الله تعالى عند هذه الآية: «هذا إخبار عن حمده والثناء عليه بصفات الكمال، ونعوت العظمة والجلال عمومًا، وعلى هذه المذكورات خصوصًا، فحمد نفسه على خلقه السموات والأرض، الدالة على كمال قدرته، وسعة علمه ورحمته، وعموم حكمته، وانفراده بالخلق والتدبير، وعلى جعله الظلمات والنور، وذلك شامل للحسي من ذلك، كالليل والنهار، والشمس والقمر، والمعنوي، كظلمات الجهل، والشك، والشرك، والمعصية، والغفلة، ونور العلم والإيمان، واليقين، والطاعة، وهذا

كله يدل دلالة قاطعة أنه تعالى هو المستحق للعبادة، وإخلاص الدين له، ومع هذا الدليل بوضوح البرهان ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿١﴾ أي: يعدلون به سواه، يسوونهم به في العبادة والتعظيم، مع أنهم لم يساواوا الله في شيء من الكمال، وهم فقراء عاجزون ناقصون من كل وجه...

وذكر الله الظلمات بالجمع لكثرة موادها وتنوع طرقها، ووحد النور لكون الصراط الموصلة إلى الله واحدة لا تعدد فيها وهي الصراط المتضمنة للعلم بالحق والعمل به، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] (١).

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية: «إنها اللمسات الأولى.. تبدأ بالحمد لله ثناء عليه، وتسيبًا له، واعترافًا بأحقيته للحمد والثناء، على ألوهيته المتجلية في الخلق والإنشاء.. بذلك تصل بين الألوهية المحمودة وخصيبتها الأولى الخلق.. وتبدأ بالخلق في أضخم مجالي الوجود.. السموات والأرض.. ثم في أضخم الظواهر الناشئة عن خلق السموات والأرض وفق تدبير مقصود.. الظلمات والنور.. فهي اللمسة العريضة التي تشمل الأجرام الضخمة في الكون المنظور، والمسافات الهائلة

(١) «تفسير السعدي» (ص ٢٥٠)، باختصار.

بين تلك الأجرام، والظواهر الشاملة الناشئة عن دورتها في الأفلاك.. لتعجب من قوم يرون صفحة الوجود الضخمة الهائلة الشاملة تنطق بقدرة الخالق العظيم، كما تنطق بتدبيره الحكيم، وهم بعد ذلك كله لا يؤمنون ولا يوحدون ولا يحمدون؛ بل يجعلون لله شركاء يعدلونهم به ويساؤونه»<sup>(١)</sup>.

ويشرح ابن القيم رحمه الله تعالى معنى (جعل) في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ فيقول:

وأما الجعل فقد أطلق على الله سبحانه بمعنيين:

أحدهما: الإيجاد والخلق.

والثاني: التصيير.

فالأول: يتعدى إلى مفعول كقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

والثاني: أكثر ما يتعدى إلى مفعولين كقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾

[الزخرف: ٣].

وأطلق على العبد بالمعنى الثاني خاصة كقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ

مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦].

وأغلب ما يستعمل في حق العبد في جعل التسمية والاعتقاد؛

(١) «في ظلال القرآن» (٢/١٠٣١).

حيث لا يكون له صنع في المَجْعول كقوله: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا ﴾ [الزخرف: ١٩]، وقوله: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ﴾ [يونس: ٥٩]. وهذا يتعدى إلى واحد، وهو جعل اعتقاد وتسمية» (١).

﴿ الدروس المستنبطة من هذه الآية:

بعد الوقوف على معنى الآية من خلال النقلين السابقين نستطيع أن نستنبط من تفسيرها الدروس التالية:

١- طريق الحق المؤدي إلى الله ﷻ واحد وطرق الضلال المنحرفة عن صراط الله كثيرة.

٢- (الحمد) معنى جامع لمحبة الله ﷻ وتعظيمه والثناء عليه بما هو أهله من صفات الكمال والجلال، وهذا يتضمن تنزيهه سبحانه عن كل سوء ونقص.

٣- استفتح الله ﷻ هذه السورة العظيمة بحمده والثناء عليه وتعظيمه لما تضمنته هذه السورة من أصول الهداية إلى الحق ودحض حجج الملاحدة والمشركين وإبطالها فهو سبحانه المحمود على هذه الآلاء والنعم وبما له من صفات الكمال والجلال.

(١) «شفاء العليل» (ص ١٣٣).

٤- تضمنت هذه الآية الكريمة على قصرها الرد على ثلاث طوائف كفرية.

ففي قوله سبحانه: ﴿الَّذِیْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ﴾ رد على الملاحدة الدهريين، الذين يقولون بقديم العالم، وأن ليس هناك خالق ولا مدبر. وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمٰتِ وَالنُّوْرَ﴾، رد على المجوس المشركين القائلين بأن للكون خالقين، إله النور وإله الظلمة، فبين سبحانه أنه خالق السموات والأرض والظلمات والنور.

يقول ابن عطية في تفسيره: «ولفظ الآية أيضًا يشير إلى المانوية، ويقال المانوية العابدين للنور، القائلين أن الخير من فعل النور، وأن الشر من فعل الظلام... والمانوية مجوس»<sup>(١)</sup>.

وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِیْنَ كَفَرُوْا بِرَبِّهْمْ یَعْدِلُوْنَ﴾ رد على المشركين الذين يؤمنون بأن الله خالق كل شيء ثم هم يشركون معه أصنامًا وأربابًا مربوبة مخلوقة فيعدلونها برب الأرض والسموات.

٥- في قوله تعالى: ﴿الَّذِیْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمٰتِ وَالنُّوْرَ﴾ دليل في مواجهة المشركين لتقرير الوجدانية، وفي الوقت نفسه فيه

(١) «المحرر الوجيز» (٣/٣١١).

دليل لمواجهة موجة الإلحاد وإنكار الله ﷻ، مع أن من وقع في الإلحاد من أمم الأرض، فإن أغلبهم ليسوا صادقين ولا مقتنعين بالإلحاد، لأن الفطرة ترفضه، ولكن قد تفسد الفطرة، وتتعلل فيها أجهزة الاستقبال والاستجابة؛ فيكون منها الإلحاد وإنكار الله ﷻ، ولكن هؤلاء قلة قليلة، وهم الذين نجح دعاة الإلحاد من اليهود والشيوعيين في استهدافهم بنفي وجود الله ﷻ.

وأما السواد الأعظم من المسلمين فقد فشلت محاولات اليهود والصليبيين في تحويلهم إلى الإلحاد أو إلى ديانات أخرى، ويئسوا من ذلك، فلجأوا إلى طريقة خبيثة لحرف المسلمين عن دينهم.

وقد بين هذه الطريقة الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى بقوله: «وأحسب - والله أعلم - أن اليهود الصَّهْيُونِيِّينَ، والنصارى الصليبيين كليهما، قد يئسوا من هذا الدين في هذه المنطقة الإسلامية الواسعة في إفريقية وآسيا وأوربا، كذلك يئسوا من أن يحولوا الناس فيها إلى الإلحاد - عن طريق المذاهب المادية - كما يئسوا كذلك من تحويلهم إلى ديانات أخرى عن طريق التبشير أو الاستعمار.. ذلك أن الفطرة البشرية بذاتها تنفر من الإلحاد وترفضه، حتى بين الوثنيين - فضلاً على المسلمين - وأن



الديانات الأخرى لا تجرؤ على اقتحام قلب عرف الإسلام، أو حتى ورث الإسلام.

وأحسب -والله أعلم- أنه كان من ثمرة اليأس من هذا الدين: أن عدل اليهود الصهيونيين والنصارى الصليبيين عن مواجهة الإسلام جهرة عن طريق الشيوعية أو عن طريق التبشير؛ فعدلوا إلى طرائق أخبث، وإلى حبائل أمكر.. لجئوا إلى إقامة أنظمة وأوضاع في المنطقة كلها تنزياً بزي الإسلام؛ وتمسح في العقيدة؛ ولا تنكر الدين جملة.. ثم هي تحت هذا الستار الخادع، تنفذ جميع المشروعات التي أشارت بها مؤتمرات التبشير وبروتوكولات صهيون، ثم عجزت عن تنفيذها كلها في المدى الطويل!

إن هذه الأنظمة والأوضاع ترفع راية الإسلام -أو على الأقل تعلن احترامها للدين- بينما هي تحكم بغير ما أنزل الله؛ وتقصي شريعة الله عن الحياة، وتحل ما حرم الله، وتنشر تصورات وقيماً مادية عن الحياة والأخلاق تدمر التصورات والقيم الإسلامية، وتسلب جميع أجهزة التوجيه والإعلام لتدمير القيم الأخلاقية الإسلامية، وسحق التصورات والاتجاهات الإسلامية، وتنفذ ما نصت عليهم مؤتمرات المبشرين وبروتوكولات الصهيونيين، من ضرورة

إخراج المرأة المسلمة إلى الشارع، وجعلها فتنه للمجتمع، باسم التطور والتحضر ومصلحة العمل والإنتاج، بينما ملايين الأيدي العاملة في هذه البلاد متعطلة لا تجد الكفاف! وتيسر وسائل الانحلال وتدفع الجنسين إليها دفعًا بالعمل والتوجيه.. كل ذلك وهي تزعم أنها مسلمة، وأنها تحترم العقيدة!

فإذا بقيت بقية في هذه الرقعة لم تجز عليها الخدعة، ولم تستسلم للتخدير باسم الدين المزيف، وباسم الأجهزة الدينية المسخرة لتحريف الكلم عن مواضعه، ولوصف الكفر بأنه الإسلام، والفسق والفجور والانحلال، بأنه تطور وتقدم وتجدد.. إذا بقيت بقية كهذه سلطت عليها الحرب الساحقة الماحقة، وصبت عليها التهم الكاذبة الفاجرة وسحقت سحقًا، بينما وكالات الأنباء العالمية وأجهزة الإعلام العالمية خرساء صماء عمياء! (١).



(١) «في ظلال القرآن» (٣/ ١٠٣٣).

## • الوقفة الثانية •

عند قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «تأمل كيف أتت -السموات- مجموعة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣]؛ فإنها أتت مجموعة هنا لحكمة ظاهرة، وهي: تعلق الظرف بما في اسمه تبارك وتعالى من معنى الإلهية.

فالمعنى: وهو الإله، وهو المعبود في كل واحدة واحدة من السموات، ففي كل واحدة من هذا الجنس، هو المألوه المعبود.

فذكر الجمع هنا، أبلغ وأحسن من الاقتصار على لفظ الجنس والواحد.

ولما عزب هذا المعنى عن فهم بعض المتسننة؛ فسر الآية بما لا يليق

بها، فقال: الوقف التام على السموات، ثم يبتدئ بقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ يَعْلمُ﴾ [الأنعام: ٣]، وغلط في فهم الآية، وأن معناها ما أخبرتك، وهو قول محققي أهل التفسير»<sup>(١)</sup>.

ويقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية: «أي: وهو المألوه المعبود في السموات وفي الأرض، فأهل السماء والأرض متعبدون لربهم، خاضعون لعظمته، مستكينون لعزته وجلاله، الملائكة المقربون، والأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء والصالحون، وهو تعالى يعلم سرهم وجهرهم، ويعلم ما تكسبون فاحذروا معاصيه، وارغبوا في الأعمال التي تقربكم منه، وتدنيكم من رحمته، واحذروا من كل عمل يبعدكم منه ومن رحمته»<sup>(٢)</sup>.

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية: «إن الذي خلق السموات والأرض هو الله في السموات وفي الأرض، هو المتفرد بالألوهية

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ١١٦).

(٢) «تفسير السعدي» (ص ٢٥٠).

فيهما على السواء، وكل مقتضيات الألوهية متحققة عليهما، من خضوع للناموس الذي سنه الله لهما، وائتمار بأمره وحده، وكذلك ينبغي أن يكون الشأن في حياة الإنسان، فلقد خلقه الله كما خلق السموات والأرض؛ وهو في تكوينه الأول من طين هذه الأرض، وما رزقه من خصائص جعلت منه إنساناً رزقه إياه الله، وهو خاضع من ناحية كيانه الجسمي للناموس الذي سنه الله - رضي أم كره - يعطي وجوده وخلقته ابتداءً بمشيئة الله، لا بمشيئته هو ولا بمشيئة أبيه وأمه: فهما يلتقيان، ولكن لا يملكان أن يعطيا شيئاً وجوده! وهو يولد وفق الناموس الذي وضعه الله لمدة الحمل وظروف الولادة! وهو يتنفس هذا الهواء الذي أوجده الله بمقاديره هذه، ويتنفسه بالقدر وبالكيفية التي أرادها الله له، وهو يحس ويتألم، ويجوع ويعطش، ويأكل ويشرب.. وبالجملة يعيش.. وفق ناموس الله، على غير إرادة منه ولا اختيار.. شأنه في هذا شأن السموات والأرض سواء.

والله سبحانه يعلم سره وجهره، ويعلم ما يكسب في حياته في سره وجهره.

والأليق به أن يتبع -إذن- ناموس الله في حياته الاختيارية -فيما يتخذه من تصورات اعتقادية، وقيم اعتبارية، وأوضاع حيوية- لتستقيم حياته

الفطرية المحكومة بناموس الله، مع حياته الكسبية حين تحكمها شريعة الله، ولكيلا يناقض بعضه بعضاً، ولا يصادم بعضه بعضاً، ولا يتمزق مزقاً.. بين ناموسين وشرعين: أحدهما إلهي، والآخر بشري، وما هما بسواء» (١).

﴿الدروس المستنبطة من هذه الآية:﴾

١- هذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ

الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ [الزخرف: ٨٤].

وفي هاتين الآيتين دليل على شمول عبوديته سبحانه لكل مخلوق في السموات والأرض، فكلهم عبيده، وكلهم خاضعون لربوبيته، والصالحون من عباده خاضعون لألوهيته، خاضعون لحكمه القدري والشرعي.

وفي هاتين الآيتين رد على الأفاكين المخذولين من عباد الله عِبَادَهُ، المنادين بفصل الدين عن حياة الناس في الأرض؛ حيث زعموا أن ألوهية الله عِبَادَهُ وعبادته وحده تكون بين العبد وربّه، ولا دخل

(١) «في ظلال القرآن» (٢/ ١٠٣٤).

لدين الله عَزَّوَجَلَّ وشرعه في حياة الناس على هذه الأرض! ﴿كَبُرَتْ  
كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۖ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۗ﴾ [الكهف: ٥]،  
والله الذي ألوهيته في السماء يخضع لها سكان السماء هو سبحانه  
الذي في الأرض إله، الألوهية التي يجب أن يخضع لها سكان  
الأرض، فلا يشركون بعبادته أحدًا ولا يشركون في حكمه أحدًا،  
لأن هذا هو مقتضى كونه إله من في السماء وإله من في الأرض.

٢- زعمت الجهمية وأهل الحلول أن معنى هذه الآية أن الله تعالى  
كائن في السموات والأرض، وقالوا: إن الله في كل مكان.

وهذا زعم باطل، وهو سبحانه أعلى وأجل، وتنزه سبحانه عن  
قولهم، فهو سبحانه بائن من خلقه، مستوٍ على عرشه، عالٍ على  
خلقه، غير حالٍ ولا متحد بشيء من خلقه، وليس في الآية شيء مما  
يتعلق به المبتدعة في تقوية مذهبهم، وإنما تدل الآية -كما ذكر  
سابقًا- على شمول وعموم ألوهيته سبحانه لكل من السموات  
والأرض، وعلوه على خلقه، غير مشابه لهم، ولا حال ولا متحد

٣- في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أقوى دافع لمن كان له قلب سليم في الانزجار عن كل ما حرمه الله ﷻ من المعاصي الباطنة والظاهرة، وفيها أقوى دافع للمسارعة إلى ما يحبه الله ﷻ من الطاعات الباطنة والظاهرة، لأنه سبحانه المطلع على السرائر وأعمال القلوب وعلى أعمال الجوارح والظواهر، فهو سبحانه كما قال عنه نفسه: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [١٩] غافر: ١٩.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُدُّوا يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٢٩] آل عمران: ٢٩.





## • الوقفة الثالثة •

عند قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهِمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ [الأنعام: ٦].

سبق ذكر أقوال بعض المفسرين عند هذه الآية في مباحث الفصل الأول، الذي كان التركيز فيه على السنن الإلهية في سورة الأنعام، ومن هذه السنن سنة الله ﷻ في إهلاك الظالمين، وبيان حالهم لمن بعدهم، ليتعظوا ويعتبروا، ولذا سأكتفي بما ذكر هنالك في الحديث عن هذه السنة.

ولكن هنا درس من هذه الآية، أحببت ذكره هنا للفائدة، ألا وهو عند قوله تعالى: ﴿ مَكَّنَّهِمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ ﴾.

• إن الخطاب في الآية موجه لمشركي قريش ولَمَن بعدهم، ممن شابههم في الكفر والإعراض، وذلك بأن الله ﷻ يحذرهم أن يحل بهم ما حل بمن قبلهم من الأمم السابقة، التي كانت أكثر منهم، وأشد قوة وتمكيناً وصناعة، فلم يغن عنهم ذلك من الله شيئاً، فكيف

بمن جاء بعدهم، وهو أقل قوة وعدداً وعتاداً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَّذَكِرٍ﴾ [القمر: ٥١].

• وفي هذه الآية رد على أصحاب نظرية (تطور الإنسان)، حيث يقولون: إن الإنسان تطور من عصره البدائي الحجري ثم تطور عقله مع مرور الزمن، حتى وصل إلى ما وصل إليه في زماننا هذا، وهذه الآية ترد عليهم، فههي الأمم التي أهلكها الله ﷻ كعاد وثمود والفراعنة ودولة سبأ، ومن مكن لهم سبحانه من عباده الصالحين: كملك داود وسليمان، حيث كانت هذه الأمم أقوى تمكيناً وعدداً وعتاداً وصناعات ممن جاء بعدهم، وكانت حضاراتهم أقوى وأذكى ممن بعدهم وقد طرد هؤلاء (نظرية التطور عندهم) على الأديان، وأن التوحيد إنما نشأ من تطور العقل الإنساني من التعددية إلى التثليث إلى الثنية إلى التوحيد، ولم يكن هناك نبي ولا رسول، وكفى بهذا الكلام كفرةً مبيناً.



## • الوقفة الرابعة •

عند قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنِبٌ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَ كُفْرَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأنعام: ١٤].

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى عند هذه الآية: «يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين بالله، مقررًا لهم وملزمًا بالتوحيد: ﴿لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: من الخالق لذلك، المالك له، المتصرف فيه؟ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لِلَّهِ﴾، وهم مقرون بذلك لا ينكرونه، أفلا حين اعترفوا بانفراد الله بالملك والتدبير، أن يعترفوا له بالإخلاص والتوحيد؟

وقوله: ﴿كُنِبٌ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي: العالم العلوي والسفلي تحت ملكه وتدبيره، وهو تعالى قد بسط عليهم رحمته وإحسانه، وتغمدهم برحمته وامتنانه، وكتب على نفسه كتابًا: أن رحمته تغلب غضبه، وأن العطاء أحبُّ إليه من المنع، وأن الله قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة، إن لم يغلقوا عليهم أبوابها بذنوبهم، ودعاهم إليها، إن لم تمنعهم من طلبها

معاصيهم وعيوبهم» (١).

وقد فتح الله ﷻ على صاحب «الظلال» فقال كلاماً نفيساً عند هذه الآية، أنقله بطوله مع شيء من الاختصار اليسير.

قال رحمه الله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ ۗ﴾.. لقد كان العرب في جاهليتهم - على كل ما في هذه الجاهلية من ضلال في التصور ينشأ عنه انحطاط في الحياة أرقى في هذا الجانب من الجاهلية «العلمية» الحديثة، التي لا تعرف هذه الحقيقة، والتي تغلق فطرتها وتعطلها دون رؤية هذه الحقيقة! كانوا يعرفون ويقررون أن الله ما في السموات والأرض، ولكنهم ما كانوا يرتبون على هذه الحقيقة نتائجها المنطقية... ونعود إلى الآية لنجد السياق يلحق بهذا التقرير لملكية الله سبحانه لما في السموات وما في الأرض، أنه سبحانه ﴿كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾.

فهو سبحانه المالك، لا ينازعه منازع، ولكنه -فضلاً منه ومنه- كتب على نفسه الرحمة؛ كتبها بإرادته ومشيتته؛ لا يوجبها عليه موجب، ولا يقترحها عليه مقترح، ولا يقتضيها منه مقتضى -إلا إرادته الطليقة وإلا ربوبيته الكريمة- وهي -الرحمة- قاعدة قضائه في خلقه، وقاعدة معاملته لهم الدنيا والآخرة..

(١) «تفسير السعدي» (ص ٢٥٢).

والاعتقاد إذن بهذه القاعدة يدخل في مقومات التصور الإسلامي،  
 فرحمة الله بعباده هي الأصل، حتى في ابتلائه لهم أحياناً بالضراء، فهو يبتليهم  
 ليعد طائفة منهم بهذا الابتلاء لحمل أمانته، بعد الخُلُوص والتجرد والمعرفة  
 والوعي والاستعداد والتهيؤ عن طريق هذا الابتلاء، وليميز الخبيث من  
 الطيب في الصف، وليعلم مَنْ يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، وليهلك  
 من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.. والرحمة في هذا كله ظاهرة..  
 على أن تلمس مواضع رحمة الله ومظاهرها يستغرق الأعمار والأجيال؛ فما  
 من لحظة إلا وتغمر العباد فيها الرحمة.. إنما ذكرنا الرحمة في الابتلاء  
 بالضراء؛ لأن هذه هي التي قد تزيغ فيها القلوب والأبصار!

ولن نحاول نحن أن نتقصى مواضع الرحمة الإلهية أو مظاهرها - وإن  
 كنا سنشير إشارة مجملة إلى شيء من ذلك فيما يلي - ولكننا سنحاول أن  
 نقف قليلاً أمام هذا النص القرآني العجيب: ﴿كُنَّ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾.

وقد تكرر وروده في السورة في موضع آخر سيأتي: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ  
 نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

- إن الذي يستوقف النظر في هذا النص هو ذلك التفضُّل الذي أشرنا  
 من قبل إليه.. تفضُّل الخالق المالك ذي السلطان القاهر فوق

عباده.. تفضُّله - سبحانه- بأن يجعل رحمته بعباده في هذه الصورة.. مكتوبة عليه.. كتبها هو على نفسه، وجعلها عهداً منه لعباده.. بمحض إرادته ومطلق مشيئته.. وهي حقيقة هائلة لا يثبت الكيان البشري لتمليها وتأمليها وتذوق وفعها، حين يقف لتدبرها في هذه الصورة العجيبة.

- إن تدبر هذه الحقيقة على هذا النحو ليدع القلب في عجب وفي دهش؛ كما يدعه في أنس وفي رُوح، لا تبلغ الكلمات أن تصور جوانبه وحواشيه!
- ومثل هذه الحقائق، وما تثيره في القلب من مشاعر؛ ليس موكولاً إلى التعبير البشري ليلبغ شيئاً في تصويره، وإن كان القلب البشري مهياً لتذوقه لا لتعريفه!

- وتمثل هذه الحقيقة في التصور الإسلامي يكون جانباً أساسياً من تصور حقيقة الألوهية، وعلاقة العباد بها.. وهو تصور جميل مُطْمئن ودود لطيف، يعجب الإنسان معه لمناكيد الخلق، الذين يتقولون على التصور الإسلامي في هذا الجانب، لأنه لا يقول بنوة أحد من عباد الله الله! -على نحو ما تقول التصورات الكنسية

المحرفة- فالتصور الإسلامي إذ يرتفع على هذه التصورات الصبائية الطفولية، يبلغ في الوقت ذاته من تصوير العلاقة الرحيمة بين الله وعباده هذا المستوى، الذي يعجز التعبير البشري عن وصفه، والذي يترعُّ القلب بحلاوة مذاقه، كما يروعه بجلال إيقاعه..

- ورحمة الله تفيض على عباده جميعاً، وتسعهم جميعاً، وبها يقوم وجودهم، وتقوم حياتهم، وهي تتجلى في كل لحظة من لحظات الوجود أو لحظات الحياة للكائنات، فأما في حياة البشر خاصة فلا نملك أن نتابعها في كل مواضعها ومظاهرها، ولكننا نذكر منها لمحات في مجالاتها الكبيرة.
- إنها تتجلى ابتداءً في وجود البشر ذاته، في نشأتهم من حيث لا يعلمون، وفي إعطائهم هذا الوجود الإنساني الكريم، بكل ما فيه من خصائص يفضل بها الإنسان على كثير من العالمين.
- وتتجلى في تسخير ما قدر الله أن يسخره للإنسان، من قوى الكون وطاقاته، وهذا هو الرزق في مضمونه الواسع الشامل، الذي يتقلب الإنسان في بحبوحة منه في كل لحظة من لحظات حياته.

- وتتجلى في تعليم الله للإنسان، بإعطائه ابتداء الاستعداد للمعرفة، وتقدير التوافق بين استعداداته هذه وإيحاءات الكون ومعطياته.. هذا العلم الذي يتناول به بعض المناكيد على الله، وهو الذي علمهم إياه! وهو من رزق الله بمعناه الواسع الشامل كذلك.
- وتتجلى في رعاية الله لهذا الخلق بعد استخلافه في الأرض، بموالاته إرسال الرسل إليه بالهدى، كلما نسي وضل، وأخذه بالحلم كلما لجَّ في الضلال، ولم يسمع صوت النذير، ولم يُصغ للتحذير، وهو على الله هيِّن، ولكن رحمة الله وحدها هي التي تمهله، وحلم الله وحده هو الذي يسعه.
- وتتجلى في تجاوز الله سبحانه عن سيئاته إذا عمل السوء بجهالة ثم تاب، وبكتابة الرحمة على نفسه، ممثلة في المغفرة لمن أذنب ثم أناب.
- وتتجلى في مجازاته عن السيئة بمثلها، ومجازاته على الحسنة بعشر أمثالها، والمُضاعفة بعد ذلك لمن يشاء، ومحو السيئة بالحسنة.. وكله من فضل الله؛ فلا يبلغ أحد أن يدخل الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته، حتى رسول الله ﷺ كما قال عن نفسه، في معرفة كاملة بعجز البشر وفضل الله.



• والإقصار منا عن متابعة رحمة الله في مظاهرها، وإعلان القصور والعيِّ عنها، هو أجدر وأولى، وإلا فما نحن بالبعين من ذلك شيئاً! وإن لحظة واحدة يفتح الله فيها أبواب رحمته لقلب العبد المؤمن، فيتصل به، ويعرفه، ويطمئن إليه - سبحانه - ويأمن في كنفه، ويستروح في ظله.. إن لحظة واحدة من هذه اللحظات لتعجز الطاقة البشرية عن تملُّيها واستجلائها، فضلاً عن وصفها والتعبير عنها.

• فلننظر كيف مثل رسول الله ﷺ لهذه الرحمة بما يقربها للقلوب شيئاً ما: أخرج الشيخان - بإسنادهما عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق»، وعند مسلم: «لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي» (١).. وعند البخاري في رواية أخرى: «إن رحمتي غلبت غضبي» (٢).

(١) البخاري (٧٤٢٢) ط. «طوق النجاة»، ومسلم (٢٧٥١).

(٢) البخاري (٣١٩٤).

- وأخرج الشيخان - بإسنادهما عنه رضي عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرهما عن ولدها خشية أن تصيبه» (١).
- وأخرج مسلم - بإسناده عن سلمان الفارسي رضي عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن لله مائة رحمة، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق بينهم، وتسعة وتسعون ليوم القيامة» (٢).
- وله في أخرى: «إن الله تعالى خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة واحدة، فيها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض، فإذا كان يوم القيامة أكملها الله تعالى بهذه الرحمة» (٣).

(١) البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢).

(٢) مسلم (٢٧٥٣).

(٣) مسلم (٢٧٥٣).

• وهذا التمثيل النبوي الموحى، يقرب للإدراك البشري تصور رحمة الله تعالى.. ذلك إذ ينظر إلى رحمة الأمهات بأطفالها في الخلائق الحية، ويتملأها ويعجب لها، وإلى رحمة القلوب البشرية بالطفولة والشيخوخة، والضعف والمرض، وبالأقرباء والأولاد والأصحاب؛ وبرحمة الطير والوحش بعضها على بعض - ومنها ما يدعو إلى الدهش والعجب - ثم يرى أن هذا كله من فيض رحمة واحدة من رحمت الله سبحانه.. فهذا مما يقرب إلى إدراكه تصور هذه الرحمة الكبرى شيئاً ما!

• وكان رسول الله ﷺ لا يني يعلم أصحابه ويذكّرهم بهذه الرحمة الكبرى: عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَدِمَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِسَبِيٍّ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبِيِّ تَسْعَى قَدْ تَحَلَّبَ ثَدْيُهَا، إِذْ وَجَدتْ صَبِيًّا مِنَ السَّبِيِّ، فَأَخَذتْهُ فَأَلْزَقَتْهُ بِبَطْنِهَا فَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ ﷺ: «أَتَرُونَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلِدهَا فِي النَّارِ؟» قُلْنَا: لَا وَاللَّهِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَيَّ أَلَّا تَطْرَحَهُ، قَالَ: «فَاللَّهِ تَعَالَى أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلِدهَا» (١).

(١) البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

وكيف لا، وهذه المرأة إنما ترحم ولدها، من فيض رحمة واحدة من رحمت الله الواسعة؟

ومن تعليم رسول الله ﷺ لأصحابه هذه الحقيقة القرآنية، بهذا الأسلوب الموحى، كان ينتقل بهم خطوة أخرى، ليتخلقوا بخلق الله هذا في رحمته، ليتراحموا فيما بينهم، وليرحموا الأحياء جميعاً؛ ولتذوق قلوبهم مذاق الرحمة وهم يتعاملون بها، كما تذوقتها في معاملة الله لهم بها من قبل.

• عن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الله تعالى، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» (١).

• وعن جرير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس» (٢).

(١) الترمذي (١٩٢٤)، وأبو داود (٤٩٤١)، وقال الترمذي حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٢٥).

(٢) البخاري (٧٣٧٦)، ورواه مسلم (٢٣١٩) بلفظ: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله».

- وفي رواية لأبي داود والترمذي عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي»<sup>(١)</sup>.
- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كذلك قال: قبل رسول الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الحسن ابن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُما وعنده الأقرع بن حابس». فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبَّلت منهم أحدا! فنظر إليه رسول الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ثم قال: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ»<sup>(٢)</sup>.
- ولم يكن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقف في تعليمه لأصحابه -رضوان الله عليهم- عند حد الرحمة بالناس، وقد علم أن رحمة ربه وسعت كل شيء، وأن المؤمنين مأمورون أن يتخلقوا بأخلاق الله؛ وأن الإنسان لا يبلغ تمام إنسانيته إلا حين يرحم كل حي تخلقا بخلق الله سبحانه، وكان تعليمه لهم بالطريقة الموحية التي عهدناها.
- عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرا، فنزل فيها فشرب، ثم خرج، وإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا

(١) أبو داود (٤٩٤٤)، وحسنه الترمذي (١٩٢٣)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٢٦١).

(٢) البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨).

الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر، فملاً خفه ماء، ثم أمسكه بفيه حتى رقي، فسقى الكلب، فشكر الله تعالى له فغفر له» قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم لأجرًا؟ قال: «في كل كبد رطبة أجر»<sup>(١)</sup>.

• وفي أخرى: إن امرأة بغياً رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر، قد أدلع (أي أخرج) لسانه من العطش فنزعت له موقها (أي خفها) فغفر لها به»<sup>(٢)</sup>.

• وعن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه رضي الله عنه قال: كنا مع رسول صلى الله عليه وسلم في سفر، فرأينا حُمرةً (طائر) معها فرخان لها، فأخذناهما، فجاءت الحمرة تعرّش (أو تفرش) - (أي ترخي جناحيها، وتدنو من الأرض) - فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها».

ورأى قرية نمل قد أحرقناها، فقال: «من أحرق هذه؟» قلنا: نحن،

(١) البخاري (٦٠٠٩)، ومسلم (٢٢٤٤).

(٢) البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥).

قال: «إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار»<sup>(١)</sup>.

• وهكذا علم رسول الله ﷺ أصحابه هدي القرآن، ليتذوقوا رحمة الله من خلال مزاولتهم للرحمة.. أليس أنهم إنما يتراحمون برحمة واحدة من رحمات الله الكثيرة؟!..

وبعدُ فإن استقرار هذه الحقيقة في تصور المسلم لينشئ في حسّه وفي حياته وفي خلقه آثارًا عميقة؛ يصعب كذلك تقصيها؛ ولا بد من الاكتفاء بالإشارة السريعة إليها، كي لا نخرج من نطاق الظلال القرآنية، إلى قضية مستقلة!

• إن الشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو ليسكب في قلب المؤمن الطمأنينة إلى ربه - حتى وهو يمر بفترات الابتلاء بالضراء، التي تزيغ فيها القلوب والأبصار- فهو يستيقن أن الرحمة وراء كل لمحة، وكل حالة، وكل وضع؛ وأن ربه لا يعرضه للابتلاء لأنه تخلى عنه، أو طرده من رحمته، فإن الله لا يطرد من رحمته أحدًا يرجوها، إنما يطرد الناس أنفسهم من هذه الرحمة حين يكفرون بالله، ويرفضون رحمته، ويبعدون عنها! وهذه الطمأنينة إلى رحمة

(١) أبو داود (٢٦٧٥)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٥).

الله تملأ القلب بالثبات والصبر، وبالرخاء والأمل، وبالهدوء والراحة.. فهو في كنف ودود، يستروح ظلاله، ما دام لا يُبعد عنه في الشroud!

● والشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو يستجيش في حس المؤمن الحياء من الله، فإن الطمع في المغفرة والرحمة لا يجري على المعصية - كما يتوهم البعض - إنما يستجيش الحياء من الله الغفور الرحيم، والقلب الذي تجرئه الرحمة على المعصية هو قلب لم يتذوق حلاوة الإيمان الحقيقية! لذلك لا أستطيع أن أفهم أو أسلم لما يجري على ألسنة بعض المتصوفة من أنهم يلجون في الذنب ليتذوقوا حلاوة الحلم، أو المغفرة، أو الرحمة.. إن هذا ليس منطق الفطرة السوية في مقابلة الرحمة الإلهية!

● كذلك فإن الشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو يؤثر تأثيراً قوياً في خلق المؤمن، وهو يعلم أنه مأمور أن يتخلق بأخلاق الله سبحانه وهو يرى نفسه مغموراً برحمة الله مع تقصيره وذنبه وخطئه؛ فيعلمه ذلك كله كيف يرحم، وكيف يعفو، وكيف يغفر.. كما رأينا في تعليم الرسول ﷺ لأصحابه؛ مستمداً تعليمه لهم من هذه الحقيقة الكبيرة.



• ومن مواضع رحمة الله التي تقررها الآية الكريمة: أن الله كتب ليجمعهم إلى يوم القيامة: ﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ فمن هذه الرحمة المكتوبة، ذلك الجمع الذي لا ريب فيه.. ذلك الجمع الذي يشي بما وراءه من عناية الله سبحانه بعباده من الناس؛ فقد خلقهم لأمره، واستخلفهم في هذه الأرض لغاية، ولم يخلقهم عبثاً، ولم يتركهم سدى، ولكن يجمعهم الله إلى يوم القيامة - فهذا اليوم هو نهاية المطاف الذي يفيئون إليه، كما يفيء الراحل إلى وجهته - فيعطيهم جزاء كدحهم إليه، وينقدهم أجر عملهم في دار الدنيا، فلا يضيع عليهم كدح ولا أجر، إنما يوفون أجرهم يوم القيامة.. وفي هذه العناية تتجلى الرحمة في مظهر من مظاهرها.. كما أن ما يتجلى من فضل الله في جزاء السيئة بمثلها، والحسنة بعشرة أمثالها، والإضعاف لمن يشاء، والتجاوز عما يشاء لمن يشاء.. كل أولئك من مظاهر الرحمة التي تتجلى في هذا الجمع أيضاً.

ولقد كان العرب في جاهليتهم - قبل أن يمن الله عليهم بهذا الدين، ويرفعهم إلى مستواه الكريم - يكذبون بيوم القيامة شأنهم في هذا

شأن الجاهلية «العلمية» الحديثة! لذلك جاء التعبير في هذه الصيغة المؤكدة بشئى التوكيدات، لمواجهة ذلك التكذيب: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

ولن يخسر في هذا اليوم إلا الذين لم يؤمنوا في الدنيا.. وهؤلاء لن يخسروا شيئاً ويكسبوا شيئاً.. هؤلاء خسروا كل شيء.. فقد خسروا أنفسهم كلها، فلم يعودوا يملكون أن يكسبوا شيئاً، أليس أن الإنسان إنما يكسب لنفسه؟ فإذا خسر نفسه ذاتها فماذا يكسب؟ ولمن يكسب؟! ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

لقد خسروا أنفسهم وفقدوها؛ فلم تعد لهم نفس تؤمن!.. وهو تعبير دقيق عن حالة واقعة.. إن الذين لا يؤمنون بهذا الدين -مع عمق ندائه وإيحائه للفطرة بموجبات الإيمان ودلائله- هؤلاء لا بد أن يكونوا قد فقدوا قبل ذلك فطرتهم! لا بد أن تكون أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية في كياناتهم معطلة مخربة، أو محجوبة مغلقة، فهم في هذه الحالة قد خسروا أنفسهم ذاتها، بفقدانهم أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية الحية في كياناتها، ومن ثم فهم لا يؤمنون.. إذ إنهم لم يعودوا يملكون أنفسهم التي بها يؤمنون.. وهذا هو التفسير العميق لعدم إيمانهم مع توافر دلائل الإيمان وموحياته

من حولهم.. وهذا هو الذي يحدد مصيرهم في ذلك اليوم، وهو  
الخسارة الكبرى المترتبة على خسارتهم من قبل لنفوسهم!«<sup>(١)</sup>.

للمدرس المستفاد من هذه الآية:

ما ورد في النقل السابق مما كتبه سيد قطب رحمه الله تعالى حول هذه  
الآية فيه دروس كثيرة، سأحاول تلخيصها، وأضيف عليها ما يفتح الله عَبْدَ الرَّحْمَنِ  
به من الزيادة عليها، وذلك في الدروس التالية:

- الدرس الأول: صفة (الرحمة) من الصفات الثابتة لله تعالى بالكتاب والسنة.

وهي صفة كمال لا ثقة بذاته وجلاله وعظمته سبحانه كسائر الصفات،  
نثبتها له سبحانه كما أثبتنا لنفسه من غير تمثيل ولا تحريف ولا تكييف، لا  
يجوز نفيها أو تأويلها أو تحريفها أو تفويض معناها أو تكييفها، وهذا هو  
المقرر في مذهب أهل السنة والجماعة في جميع الصفات.

- الدرس الثاني: الرحمة المضافة إلى الله تعالى نوعان:

الأول: رحمة ذاتية موصوف بها سبحانه على الوجه اللائق به سبحانه  
كسائر صفاته، يجب إثباتها لله عَبْدَ الرَّحْمَنِ من غير تحريف،

(١) «في ظلال القرآن» (٢/ ١٠٤٨-١٠٥٣) باختصار يسير.

ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل، كما قال سبحانه:  
﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقوله تعالى:  
﴿وَرُبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

الثاني: رحمة مخلوقة أنزل الله ﷻ منها رحمة واحدة يتراحم بها  
الخلائق وأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة يرحم الله بها عباده  
يوم القيامة كما جاء في قوله ﷻ: «إن لله مائة رحمة، أنزل منها  
رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها  
يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها؛  
وأخر الله تسعاً وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة»<sup>(١)</sup>.

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله ﷻ: أن الله ﷻ قال عن الجنة:  
«أنت رحمتي، أرحم بك من أشياء...» الحديث<sup>(٢)</sup>؛ وهذه  
الرحمة من باب إضافة المفعول إلى فاعله، وهذه الرحمة ليست  
صفة لله تعالى، بل هي من أثر رحمته التي هي صفته الذاتية  
الفعلية.

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦).

- الدرس الثالث: رحمة الله ﷻ لعباده نوعان:

الأولى: رحمة عامة: وهي لجميع الخلائق بإيجادهم، وتربيتهم، ورزقهم، وإمدادهم بالنعم والعطايا وتصحيح أبدانهم، وتسخير المخلوقات من نبات وحيوان وجماد في طعامهم وشرابهم، ومساكنهم، ولباسهم، ونومهم، وحركاتهم، وسكناتهم، وغير ذلك من النعم التي لا تعد ولا تحصى.

قال الله ﷻ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

يقول الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- عند هذه الآية: «وهذه هي الرحمة العامة التي تشمل جميع المخلوقات، حتى الكفار؛ لأن الله قرن الرحمة هذه مع العلم؛ فكل ما بلغه علم الله، وعلم الله بالغ لكل شيء، فقد بلغته رحمته؛ فكما يعلم الكافر، يرحم الكافر أيضًا.

لكن رحمته للكافر رحمة جسدية دنيوية مختصة بالدنيا؛ فالذي يرزق الكافر هو الله، الذي يرزقه بالطعام والشراب

واللباس والمسكن والمنكح وغير ذلك» (١).

الثانية: رحمة خاصة: وهذه الرحمة لا تكون إلا للمؤمنين، فيرحمهم الله عَزَّوَجَلَّ في الدنيا بتوفيقهم إلى الهداية والصراف المستقيم، ويثبتهم عليها، ويدافع عنهم، وينصرهم على الكافرين، ويرزقهم الحياة الطيبة، وبارك لهم فيما أعطاهم، ويمدهم بالصبر واليقين عند المصائب، ويغفر لهم ذنوبهم، ويكفرها بالمصائب، ويرحمهم في الآخرة بالعفو عن سيئاتهم، والرضا عنهم والإنعام عليهم بدخلوهم الجنة، ونجاتهم من عذابه عَزَّوَجَلَّ ونقمتهم، وهذه الرحمة هي التي جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣﴾ [الأحزاب: ٤٣].

يقول الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله تعالى - عن هذه الرحمة الخاصة بعد حديثه عن الرحمة العامة: «أما المؤمنون؛ فرحمتهم رحمة أخص من هذه وأعظم، لأنها رحمة إيمانية دينية دنيوية.

(١) «شرح العقيدة الواسطية» (١/٢٤٩) بتصرف يسير.

ولهذا تجد المؤمن أحسن حالاً من الكافر، حتى في أمور الدنيا؛ لأن الله يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]. الحياة الطيبة هذه مفقودة بالنسبة للكفار، حياتهم كحياة البهائم.. لكن المؤمن إن أصابته ضراء صبر واحتسب الأجر على الله عَزَّوَجَلَّ وإن أصابته سراء شكر فهو في خير في هذا وفي هذا، وقلبه منشرح مطمئن» (١).

وقال عند قوله تبارك وتعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ (٤٣): «قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾: متعلق بـ(رحيم)، وتقديم المعمول يدل على الحصر، فيكون معنى الآية: وكان بالمؤمنين لا غيرهم رحيمًا.

ولكن كيف نجمع بين هذه الآية والتي قبلها؟

نقول: الرحمة التي هنا غير الرحمة التي هناك، هذه رحمة خاصة متصلة برحمة الآخرة لا ينالها الكفار؛ بخلاف الأولى، هذا هو الجمع بينهما، وإلا فكلُّ مرحوم، لكن فرق بين الرحمة الخاصة والرحمة العامة» (٢).

(١) «شرح العقيدة الواسطية» (١/٢٤٩).

(٢) المصدر السابق نفسه (١/٢٥١).

- الدرس الرابع: ذكر بعض آثار رحمة الله ﷻ في خلقه وأمره:

آثار رحمة الله ﷻ لا تعد ولا تحصى؛ إذ إن رحمة الله ﷻ قد وسعت كل شيء، فكما أن علم الله ﷻ قد وسع كل شيء، ولم يخف عليه أي شيء، فكذلك رحمته سبحانه قد بلغت كل شيء بلغه علمه سبحانه، قال الله ﷻ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال عن دعاء الملائكة للمؤمنين: ﴿الَّذِينَ يَجُلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «فوسعت رحمته كل شيء، ووسعت نعمته كل حي، فبلغت رحمته حيث بلغ علمه»<sup>(١)</sup>.

وقال سبحانه عن نعمه التي هي من آثار رحمته: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وأسوق فيما يلي بعضاً من آثار رحمة الله تعالى في خلقه وشرعه، وإلا فإن رحمة الله ﷻ قد وسعت كل شيء، ولا يحيطها عقل ولا حصر ولا

(١) «الصلاة وحكم تاركها» (ص ١٧٣).



عد، إذ كل ما يقع عليه السمع والبصر فرحمة الله ﷻ فيه بادية، وما يخفى على السمع والبصر والفؤاد من آثار رحمة الله تعالى أعظم وأكثر.

أولاً: تظهر آثار رحمة الله ﷻ في كل ما خلق الله ﷻ سواء في هذا الكون العريض، وما فيه من المخلوقات العظيمة المسخرة بأمره سبحانه، وما فيها من المنافع والرحمة لعباده، أو ما في خلق الإنسان من الآيات الدالة على عظمته سبحانه ورحمته ﷻ بهذا الإنسان، حيث خلقه في أحسن تقويم وأقام جسمه وروحه، وأعطاه العقل، وقواه وأمدته وأعدده ورزقه وأنعم عليه بنعمه الظاهرة والباطنة، ولو ذهبنا نستعرض آثار رحمة الله تعالى في الآفاق وفي الأنفس لفنيت الأعمار، ولم تنته من حصرها وعددها، مع أنها جزء من مائة جزء من رحمته.

يقول الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى- في وصفه لشمول رحمة الله: «وأنت لو تأملت العالم بعين البصيرة لرأيت ممتلئاً بهذه الرحمة الواحدة كامتلاء البحر بمائه والجو بهوائه.. فسبحان من أعمى بصيرة من زعم أن رحمة الله مجاز»<sup>(١)</sup>.

(١) «مختصر الصواعق المرسله» (٢/٣٥٠) باختصار.

قال الله تعالى: ﴿ وَسَخَّرْ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ١١٣].

وقال سبحانه: ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [الروم: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ٤].

وقال عز وجل: ﴿ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ رَبِّكَ أَلْكَرِيمِ ﴾ [الذي خلقك فسوونك فعدلك (٧) في أي صورته ما شاء ركبك (٨) [الانفطار: ٦-٨].

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «وبرحمته أطلع الشمس والقمر، وجعل الليل والنهار، وبسط الأرض، وجعلها مهادًا وفراشًا وقرارًا وكفاتًا للأحياء والأموات، وبرحمته أنشأ السحاب وأمطر المطر، وأطلع الفواكه والأقوات والمرعى، ومن رحمته سخر لنا الخيل والإبل والأنعام، وذلكها منقادة للركوب والحمل والأكل.. ومن رحمته أن خلق للذكر من الحيوان أنثى من جنسه وألقى بينهما المحبة والرحمة، ليقع بينهما التواصل الذي به دوام التناسل وانتفاع الزوجين، ويمتع كل واحد منهما بصاحبه.

ومن رحمته أحوج الخلق بعضهم إلى بعض لتتم مصالحهم، ولو أغنى بعضهم عن بعض لتعطلت مصالحهم، وانحل نظامهم، وكان من تمام رحمته بهم أن جعل فيهم الغني والفقير، والعزيز والذليل، والعاجز والقادر، والراعي والمرعوي، ثم أفقر الجميع إليه، ثم عم الجميع برحمته»<sup>(١)</sup>.

ثانياً: ومن آثار رحمته سبحانه تعليم الله ﷻ للإنسان ما لم يعلم؛ حيث أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، وعلمه الفهم والإدراك، والبيان والإفصاح عما يعلمه ويفهمه. قال تبارك وتعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ ۝٣ الْإِنْسَانَ ۝٤ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٥﴾ [الرحمن: ١-٤].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «وتأمل قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ ۝٣ الْإِنْسَانَ ۝٤ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٥﴾ كيف جعل الخلق والتعليم ناشئاً عن صفة الرحمة متعلقاً باسم الرحمن»<sup>(٢)</sup>.

(١) «مختصر الصواعق المرسله» (٢/١٢٣-١٢٤) باختصار وتصرف يسير.

(٢) المصدر السابق نفسه (٢/١٢٣).

ثالثاً: وأعظم آثار رحمته سبحانه إرساله الرسل وإنزاله الكتب هداية للناس وإخراجاً لهم من الظلمات إلى النور.

فالرسل رحمة من عند الله ﷻ لعباده، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِّلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

فبرحمته أرسل الرسل وأنزل الكتب هداية للبشر، وتعريفاً لهم بربهم سبحانه وبأسمائه وصفاته، وكيف يعبدونه لينقلهم برحمته من الجهالة إلى العلم ومن الغي إلى الرشد، ومن الضلالة إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور، ومن الشقاء إلى السعادة، ومن النار إلى الجنة، فسبحان أرحم الراحمين وخير الرازقين.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «برحمته أرسل إلينا رسوله ﷺ، وأنزل علينا كتابه، وعلمنا من الجهالة، وهدانا من الضلالة، وبصّرنا من العمى، وأرشدنا من الغي.

وبرحمته عرفنا من أسمائه وصفاته وأفعاله ما عرفنا به أنه ربنا ومولانا، وبرحمته علمنا ما لم نكن نعلم، وأرشدنا لمصالح ديننا ودنيانا... وكان عن صفة الرحمة الجنة وسكانها وأعمالها،

فبرحمته خُلقت، وبرحمته عُمرت بأهلها، وبرحمته وصلوا إليها، وبرحمته طاب عيشهم فيها.

وبرحمته احتجب عن خلقه بالنور، ولو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه...» (١).

ويقول أيضًا: «من أعطى اسم (الرحمن) حقَّه: عرف أنه متضمنٌ لإرسال الرسل وإنزال الكتب أعظم من تضمُّنه إنزال الغيث وإنبات الكلاً وإخراج الحبِّ.

فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح: أعظم من اقتضاءها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكنَّ المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظَّ البهائم والدوابِّ، وأدرك منه أولو الأبواب أمرًا وراء ذلك» (٢).

رابعًا: ومن رحمته سبحانه مغفرته لذنوب عباده والصفح عنهم، ومجازاته للسيئة بمثلها أو تغفر، وللحسنة بعشر أمثالها وتكفير سيئاتهم، وفتح باب التوبة لهم.

(١) «مختصر الصواعق المرسلة» (٢/١٤٣).

(٢) «مدارج السالكين» (١/٨).

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۗ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

وتتجلى رحمته ﷻ بعباده التائبين في أجلى صورها فيما أخبر به الرسول ﷺ عن فرح الله ﷻ بتوبة عبده وقبوله لتوبة التائبين.

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَن عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ [الشورى: ٢٥].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «الله أفرح بتوبة عبده - حين يتوب إليه - من أحدكم، كان على راحلته بأرض فلاة؛ فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال - من شدة الفرح - اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح»<sup>(١)</sup> هذا لفظ مسلم.

(١) البخاري (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧).

ولا يهلك على الله إلا هالك، ولا يخرج من رحمة الله تعالى إلا من يعلم الله تعالى أنه لا يستحق الرحمة البتة، وهم القوم الكافرون؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٨٧﴾ [يوسف: ٨٧]، ويمكن أن نجد هذا المعنى في قول إبراهيم عليه السلام وهو يدعو أباه الكافر: ﴿يَتَّابَتِ إِلَيَّ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ ﴿٤٥﴾ [مريم: ٤٥]، فاختيار إبراهيم عليه السلام: اسم (الرحمن) في تحذير أبيه من العذاب فيه سر لطيف لأن المتبادر للعقل أن يربط العذاب باسم من أسمائه سبحانه يناسب العقاب أما أن يربط العذاب باسمه (الرحمن)؛ فلا شك أن في ذلك سرًا لطيفًا ألا وهو -والله أعلم- أن إبراهيم أراد أن يفتح لأبيه باب الرجاء والتوبة، فإن الله عز وجل رحيم يقبل توبة التائبين مهما عملوا، وكذلك ربما أراد إبراهيم عليه السلام أن يعلم أباه أنه إن أصابك العذاب ممن اسمه (الرحمن) الذي وسعت رحمته كل شيء، فإن هذا يدل على أن ليس فيمن عذبه الرحمن ذرة تستحق الرحمة؛ إذ لو كان فيه موجب الرحمة لرحمه.

خامسًا: ومن آثار رحمته سبحانه ما يضعه في قلوب الأمهات من رحمة نحو أولادهن، سواء كان ذلك عند الإنسان أو الحيوان من

وحش وطير وهوام، وأن رحمة الله ﷻ أعظم وأوسع من رحمة الأمهات بأولادهن.

فعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: «قُدِّمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بسبي فإذا امرأة من السبي تسعى، إذ وجدت صبيًا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله ﷺ: «أترُونَ هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟» قلنا: لا والله! وهي تقدر على أن لا تَطْرَحَهُ، فقال رسول الله ﷺ: «الله أَرْحَمُ بعباده من هذه بولدها» (١).

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «وبرحمته وضع الرحمة بين عباده ليتراحموا بها، وكذلك بين سائر أنواع الحيوان، فهذا التراحم الذي بينهم بعض آثار الرحمة التي هي صفة ونعمته، واشتق لنفسه منها اسم «الرحمن الرحيم» (٢).

سادسًا: وتتجلى رحمة الله ﷻ في شرعه المطهر، وأحكامه التي كلها خير ورحمة للخلق، سواء ما يتعلق بهدايتهم وحفظ أديانهم، أو

(١) البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

(٢) «مختصر الصواعق المرسلية» (٣/١٢٣).



ما يتعلق بحفظ نفوسهم وأبدانهم، أو ما يتعلق بحفظ عقولهم وأفكارهم، أو ما يتعلق بحفظ أعراضهم وأنسابهم وأولادهم، أو ما يتعلق بحفظ أموالهم وممتلكاتهم.

فكل ما يتعلق بهذه الضروريات الخمس من أحكام إنما جاءت رحمة بالناس بالمحافظة عليها وحمايتها من الفساد والعدوان، حتى يعيش الناس في أمن وسعادة قد رفع عنهم الحرج والعنت وحفظ لكل ذي حق حقه، كما تظهر رحمة الله ﷻ في يسر الشريعة، ورفع الحرج عن العباد فيها، وشرع الرخص التي ترفع المشقة عنهم.

سابعاً: وتتجلى رحمة الله ﷻ في جمع الناس ليوم القيامة وإثابة المحسن ومعاقبة المسيء؛ حيث يظهر عدله سبحانه وفضله في هذا اليوم العظيم.

كما تظهر رحمة الله ﷻ ومغفرته لعباده في هذا اليوم ﴿ كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾.

فمن مقتضى كتابته سبحانه الرحمة على نفسه أن يجمع الناس للفصل بينهم ومجازاة كل منهم بما تقضيه رحمته وعدله فيهم وفيما بينهم من الحقوق.

ثامناً: كما تتجلى رحمة الله ﷻ في المصائب والمكروهات التي يقدرها على عباده المؤمنين، فهي وإن كانت مؤذية ومكروهة إلا أن في أعطافها الرحمة والخير بالمصاب؛ لأن الله ﷻ كتب على نفسه الرحمة، ورحمته سبقت غضبه، وليس ذلك إلا للمؤمن.

وقد تظهر هذه الرحمة للمصاب عياناً، ويتبين ما في المكروه من الرحمة واللطف، وقد لا يتبين ذلك في الدنيا، ولكن تظهر آثار رحمة الله فيها في الآخرة بتكفير السيئات، وغفران الذنوب بفعل هذه المصائب، قال الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المسلم من نَصَبٍ ولا وصبٍ ولا همٍ ولا حزنٍ ولا أذىٍ ولا غمٍ - حتى الشوكة يشاكها - إلا كفر الله بها من خطاياها» (١).

(١) البخاري (٥٦٤١)، مسلم (٢٥٧٣).

أما ما يصاب به الكفار من المصائب والعقوبات، فهي رحمة بالمؤمنين من شر الكفار وتسلطهم، وإفسادهم في الأرض، وهي عدل مع الكفار.

وأذكر بهذه المناسبة آية من كتاب الله ﷻ ظهر لي فيها معنى خفي يدل على أن ما يصيب المؤمن من ضرر ومكروه، إنما هو من آثار رحمة الله تعالى، وموجب اسمه سبحانه (الرحمن الرحيم).

قال الله تعالى عن مؤمن آل ياسين أنه قال لقومه المشركين: ﴿إِنْ يُرِدِ اللَّهُ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣]، فلماذا اختار هذا الرجل الصالح اسم (الرحمن) من بين أسماء الله تعالى؟ وهل (الرحمن) يريد الضر بعباده المؤمنين؟

إن المعنى اللطيف في هذه الآية - والله أعلم - أن الضر إذا أتى من (الرحمن) فإن هذا موجب رحمته ولطفه، ويصير الأمر الذي ظاهره الضر في حقيقته رحمة، وخيرًا للمؤمن، لأن الرحمن لا يصدر عنه إلا الرحمة واللطف والبر.

تاسعاً: وتتجلى رحمة الله ﷻ في رحمته الخاصة بأوليائه، وتوفيقهم، وتسديدهم، وحفظهم، وتيسير أمورهم، وإجابة دعائهم، ونصرهم على أعدائهم الكافرين، وتمكينه لهم في الأرض، وإعانتهم وإغاثتهم في قضاء حوائجهم كجلب الرزق والمطر، وكشف الكروب، وخرق السنن الكونية لهم، وإظهار الكرامات على أيديهم.

- الدرس الخامس: ذكر شيء من آثار الإيمان باسميه سبحانه (الرحمن الرحيم):

أولاً: محبة الله ﷻ المحبة العظيمة وذلك حينما يفكر العبد، وينظر في آثار رحمة الله ﷻ في الآفاق وفي النفس، التي لا تعد ولا تحصى، وهذا يثمر تجريد المحبة لله تعالى والعبودية الصادقة له سبحانه، وتقديم محبته ﷻ على النفس، والأهل، والمال، والناس جميعاً، والمصارعة إلى مرضاته، والدعوة إلى توحيده، والجهاد في سبيله، وفعل كل ما يحبه ويرضاه.

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبُّكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١].

ثانياً: عبودية الرجاء والتعلق برحمة الله تعالى وعدم اليأس من رحمة الله تعالى، فإن الله عَزَّوَجَلَّ قد وسعت رحمته كل شيء، وهو الذي يغفر الذنوب جميعاً، كما أن الرجاء والنظر إلى رحمة الله الواسعة وآثارها يثمر الطمأنينة والأمل في النفوس المكروبة، ويمسح عليها الروح وحسن الظن بالله تعالى وانتظار الفرج بعد الشدة ومغفرة الذنوب.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۗ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦١﴾ [الشرح: ٥-٦].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴿٦٢﴾ ... الآية [النمل: ٦٢].

يتحدث الشيخ السعدي -رحمه الله تعالى- عن الأمل العظيم في رحمة الله تعالى، فيقول: «والأمل بالرب الكريم، الرحمن

الرحيم: أن يرى الخلائق منه، من الفضل والإحسان، والعفو والصفح والغفران، ما لا تعبر عنه الألسنة، ولا تتصوره الأفكار، ويتطلع لرحمته إذ ذاك جميع الخلق لما يشاهدونه، فيختص المؤمنون به ويرسله بالرحمة.

فإن قيل: من أين لكم هذا الأمل؟ وإن شئت قلت: من أين لكم هذا العلم بما ذكر؟

قلنا: لما نعلمه من غلبة رحمته لغضبه، ومن سعة جوده الذي عم جميع البرايا، ومما نشاهده في أنفسنا وفي غيرنا، ومن النعم المتواترة في هذه الدار، وخصوصًا في يوم القيامة، فإن قوله: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾، ﴿إِلَّا مِنْ أَدْنَىٰ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾، مع قوله: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَ يَوْمِ الْحُكْمِ لِلرَّحْمَنِ﴾، مع قوله ﷻ: «إن لله مائة رحمة أنزل لعباده رحمة، بها يتراحمون ويتعاطفون، حتى إن البهيمة ترفع حافرها عن ولدها، خشية أن تطأه، من الرحمة المودعة في قلبها، فإن كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة إلى تسع وتسعين

رحمة، فرحم بها العباد» (١)؛ مع قوله: «لله أرحم بعباده من  
الوالدة بولدها» (٢).

فقل ما شئت عن رحمته، فإنها فوق ما تقول، وتصوّر فوق ما  
شئت، فإنها فوق ذلك.

فسبحان من رحم في عدله وعقوبته، كما رحم في فضله وإحسانه  
ومثوبته، وتعالى من وسعت رحمته كل شيء، وعم كرمه كل  
حي، وجلّ من غيّب عن عباده، رحيم بهم، وهم مفتقرون إليه  
على الدوام، في جميع أحوالهم، فلا غنى لهم عنه طرفة  
عين» (٣).

ثالثاً: الحياء من الله عَبْدُكَ: إن التأمل في إحسان الله ورحمته يورث العبد  
حياء منه يُسَبِّحُ اللَّهَ فيستحي العبد المؤمن من خالقه أن يعصيه، ثم إن

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «تفسير السعدي» (٣/٢٥٢، ٢٥٣).

وقع في الذنب جهلاً منه استحيا من الله بعد وقوعه في الذنب، ولذا كان الأنبياء يعتذرون عن الشفاعة للناس بذنوبهم خوفاً وخجلاً، وإن هذا لأمر قلّ من يتنبه له، بل قد يظن كثير من الناس أن التوبة والعتو قد غمر ذنوبه فلا يلتفت إلى الحياء بعد ذلك.

كان الأسود بن يزيد يجتهد في العبادة والصوم حتى يصفر جسده، فلما احتضر بكى، فقيل له: ما هذا الجزع؟ فقال: ما لي لا أجزع، والله لو أتيت بالمغفرة من الله، لأهمني الحياء منه مما قد صنعت، إن الرجل ليكون بينه وبين آخر الذنب الصغير فيعفو عنه فلا يزال مستحياً منه»<sup>(١)</sup>.

رابعاً: اتصاف العبد بالرحمة وبذلها لعباد الله تبارك وتعالى: وقد خص الله ﷺ أوليائه على التخلق بها، ومدح بها أشرف رسله، فقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢/١٠٣).



عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ  
رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨].

ومن أسمائه ﷺ أنه (نبي الرحمة) (١). ومدح الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ  
بقوله: ﴿رَحْمَاءٌ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وخص أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من بينهم بالكمال البشري في الرحمة بعد  
الرسول، حيث قال فيه ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر» (٢).

وبين ﷺ أن الرحمة تنال عباده الرحماء فقال: «إنما يرحم الله من  
عباده الرَّحْمَاءِ» (٣)، وأعظم الرحمة بالناس هدايتهم إلى  
التوحيد، وإخراجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ﷻ ثم  
الرحمة بهم في أنفسهم، وأعراضهم، وعقولهم، وأموالهم، ودفع  
الظلم عنهم، وتفريج كربهم، والإحسان إليهم، وتعزية  
مصابهم، وقضاء حوائجهم، وأولى الناس بهذه الرحمة الوالدان  
والأقربون.

(١) مسلم (٢٣٥٥).

(٢) أحمد (٣/ ٢٨١)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٩٨١).

(٣) البخاري (٧٣٧٧)، ومسلم (٩٢٣).

قال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

وكذلك رحمة الأولاد والزوجات، فهذا رسول الله ﷺ قال له الأقرع بن حابس: إن لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحدا قط، قال الرسول ﷺ: «أَوْ أَمَلِكُ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِكَ» (١).

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: جاءني مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطت كل واحدة منهما تمرة، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها، فاستطعمتها ابنتها، فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرت الذي صنعت لرسول الله ﷺ، فقال: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ» (٢).

(١) البخاري (٥٩٩٨)، ومسلم (٢٣١٧).

(٢) البخاري (١٤١٨)، ومسلم (٢٦٣٠)، واللفظ له.

ومن الرحمة التي تغيب عن كثير من الأذهان رحمة عموم الخلق مسلمهم وكافرهم.

قال ابن تيمية - رحمه الله تعالى - في أهل البدع: «ومن وجه آخر إذا نظرت إليهم بعين القدر - والحيرة مستولية عليهم، والشيطان مستحوذ عليهم - رحمتهم ورفقت عليهم، أوتوا ذكاء وما أوتوا زكاء، وأعطوا فهو ما وما أعطوا علوماً، وأعطوا سمعاً وأبصاراً وأفئدة: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعَادُهُمْ مِّنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَمْجَدُونَ﴾ بِكَأَيْتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٦﴾» [الأحقاف: ٢٦] (١).

ويقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - في «نونيته»:

وانظر بعين الحكم وارحمهم بها	إذ لا تردُّ مشيئة الدِّيَانِ
وانظر بعين الأمر واحملهم على	أحكامه فهما إذن نظران
واجعل لقلبك مقلتين كلاهما	من خشية الرحمن باكيتان
لو شاء ربك كنت أيضاً مثلهم	فالقلب بين أصابع الرحمن (٢)

(١) «الفتوى الحموية» (ص ٥٥٣).

(٢) «شرح قصيدة ابن القيم» (١/١٣١).

- الدرس السادس: استجلاب رحمة الله تعالى بفعل أسبابها:

١- من أعظم ما تستجلب به رحمة الله تعالى فعل ما يرضيه ويأمر به،

واجتناب ما يسخطه وينهى عنه باتباع ما جاء به النبي ﷺ قال الله

تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقال سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُمِبَهَا لِلَّذِينَ

يُنْقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ

الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ

وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ

تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور: ٥٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي

سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٨].

٢- ومن الطرق التي تُنال بها رحمة الله ﷻ تدبر القرآن والإنصات

إليه، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا

لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٤].

٣- وكذلك الاستغفار من أعظم ما تستجلب به رحمة الله تعالى، قال الله

عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦].

٤- وقد أرشدنا الله عَزَّوَجَلَّ إلى سؤاله سبحانه الرحمة لأنفسنا وأقربنا،

وقد أثنى سبحانه على أنبيائه بذلك، وذكرهم للتأسي بهم، قال الله

تعالى: ﴿وَأَتُوبُكَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ

الرَّحِيمِ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وقال عَزَّوَجَلَّ عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ودعائه لنفسه وأخيه: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ

لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾ [١٥١]

[الأعراف: ١٥١].

وقال سبحانه: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَأَرْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ﴾ [١١٨]

[المؤمنون: ١١٨].

٥- ومما تستجلب به رحمة الله تعالى ما ذكر سابقاً من الرحمة

بالخلق ولاسيما الوالدين والأولاد والأقارب والرحمة باليتامى

والمساكين والإحسان إليهم.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كافل اليتيم له

أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة»<sup>(١)</sup>، وأشار مالك بالسبابة والوسطى -ومالك أحد رجال السند-

وعن أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إخوانكم جعلهم الله فتيه تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه من طعامه، وليلبسه من لباسه، ولا يكلفه ما يغلبه، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه»<sup>(٢)</sup>.



(١) مسلم (٢٩٨٣).

(٢) البخاري (٦٠٥٠)، ومسلم (١٦٦١)، واللفظ المذكور للترمذي (١٩٤٥)، وقال: حسن صحيح.

## • الوقفة الخامسة •

عند قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَخِيذٌ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الأنعام: ١٤].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «الرضا بالله ربًّا: ألا يتخذ ربًّا غير الله تعالى، يسكن إلى تدبيره، وينزل به حوائجه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْنَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: سيدًا وإلهًا، يعني: فكيف أطلب ربًّا غيره، وهو رب كل شيء؟! وقال في أول السورة: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَخِيذٌ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. يعني: معبودًا وناصرًا ومعينًا وملجأ، وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة، وقال في وسطها: ﴿أَفَغْيَرَ اللَّهُ أَبْتغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤]. أي: أفغير الله أبغني من يحكم بيني وبينكم، فتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه؟ وهذا كتابه سيد الحكام، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه، وقد أنزله مفصلاً مبيناً كافياً شافياً؟!»

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل؛ رأيتها هي نفس الرضا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً؛ ورأيت الحديث (١) يترجم عنها، ومشتقًا منها، فكثير من الناس يرضى بالله ربًّا، ولا يبغى ربًّا سواه، لكنه لا يرضى به وحده وليًّا وناصرًا؛ بل يوالي من دونه أولياء، ظنًّا منه: أنهم يقربونه إلى الله، وأن موالاتهم كموالاته خواص الملك، وهذا عين الشرك، بل التوحيد؛ ألا يتخذ من دونه أولياء، والقرآن مملوء من وصف المشركين: بأنهم اتخذوا من دونه أولياء.

وهذا غير موالاته أنبيائه ورسله، وعبادة المؤمنين فيه، فإن هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته، فموالاته أوليائه لون، واتخاذ الولي من دونه لون، ومن لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من أساسه، فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه» (٢).

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية: «إن هذه القضية.. قضية اتخاذ الله وحده وليًّا، بكل معاني كلمة (الولي). أي: اتخاذه وحده ربًّا ومولى معبودًا يدين له العبد بالعبودية، ممثلة في الخضوع لحاكميته وحده؛

(١) يقصد بذلك قوله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد

رسولاً»، أخرجه مسلم (٣٤)

(٢) «مدارج السالكين» (١٨١/٢).



ويدين له بالعبادة فيقدم له شعائرها وحده، واتخاذها وحده ناصرًا يستنصر به ويعتمد عليه، ويتوجه إليه في الملمات.. إن هذه القضية هي قضية العقيدة في صميمها، فإما إخلاص الولاء -بهذه المعاني كلها- فهو الإسلام، وإما إشراك غيره معه في أيٍّ منها، فهو الشرك الذي لا يجتمع في قلب واحد هو والإسلام!

وفي هذه الآيات تقرر هذه الحقيقة بأقوى عبارة وأعمق إيقاع: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسَلَهُ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾.

إنه منطق الفطرة القوي العميق.. لمن يكون الولاء ولمن يتمحض؟ لمن إن لم يكن لفاطر السموات والأرض الذي خلقهما وأنشأهما؟ لمن إن لم يكن لرزاق من في السموات والأرض الذي يطعم ولا يطلب طعامًا؟

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ وَلِيًّا﴾. وهذه صفاته سبحانه.. أي منطق يسمح بأن يتخذ غير الله وليًّا؟ إن كان يتولاه لينصره ويعينه، فالله هو فاطر السموات والأرض، فله السلطان في السموات والأرض، وإن كان يتولاه ليرزقه ويطعمه، فالله هو الرزاق المطعم لمن في السموات ومن في الأرض، فقيم الولاء لغير صاحب السلطان الرزاق؟

ثم.. ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. والإسلام وعدم الشرك معناهما المتعين: ألا تأخذ غير الله ولياً، فاتخاذ غير الله ولياً -بأي معنى- هو الشرك، ولن يكون الشرك إسلاماً..

قضية واحدة محددة، لا تقبل ليناً ولا تميغاً.. إما أفراد الله سبحانه بالتوجه والتلقي والطاعة والخضوع والعبادة والاستعانة؛ والإقرار له وحده بالحاكمية في كل أمر من هذه الأمور، ورفض إشراك غيره معه فيها؛ وولاء القلب والعمل، في الشعيرة والشريعة له وحده بلا شريك.. إما هذا كله فهو الإسلام.. وإما إشراك أحد من عباده معه في شيء من هذا كله فهو الشرك، الذي لا يجتمع في قلب واحد مع الإسلام..

فهاهو رسول الله ﷺ يؤمر من ربه هذا الأمر.. ثم هاهو ذا يواجه المشركين الذين يتخذون من دون الله أولياء؛ يجعلون لهم بعض خصائص الألوهية مع الله، ويدعون رسول الله ﷺ أن يقرهم على هذا الذي هم فيه ليدخلوا هم فيما جاءهم به! كأن ذلك يمكن أن يكون! وكأنه يمكن أن يجتمع الإسلام والشرك في قلب واحد على هذا النحو الذي كانوا يتصورونه، والذي لا يزال يتصوره ناس في هذا الزمان، من أنه يمكن أن يكون الإنسان مسلماً لله؛ بينما هو يتلقى من غير الله في شئون الحياة، وبينما

هو يخضع لغير الله، ويستنصر بغير الله، ويتولى غير الله! (١).

﴿الدروس المستفادة من هذه الآية:﴾

١- (الولي) من أسماء الله الحسنى. (الولي) ضد العدو، والموالة ضد المعادة، والولاية المحبة والنصر.

وقال الزجاج: (الولي) هو فعيل من الموالة، (والولي): الناصر.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]؛ فهو تعالى وليهم بأن يتولى نصرهم وإرشادهم (٢).

وذكر الخطابي نحو كلام الزجاج، وزاد: «والولي أيضًا المتولي للأمر والقائم به، وأصله من الولي، وهو الأقرب» (٣).

والولاية من الله لعباده نوعان:

أولاً: ولاية عامة: يدخل فيها الكافر والمؤمن، بمعنى أنه سيد المخلوقات ومالكهم وخالقهم ورازقهم ومعبودهم الحق!

(١) «في ظلال القرآن» (٢/ ١٠٥٤، ١٠٥٥) باختصار.

(٢) «تفسير الأسماء» (ص ٥٥).

(٣) «شأن الدعاء» (ص ١٠٨).

ثانيًا: ولاية خاصة: وهي لعباده المؤمنين، وهي ولاية المحبة والتوفيق والنصرة.

أما ولاية العبد لربه، فهي ولاية افتقار وعبودية واستعانة؛ فلا يجوز اتخاذ غير الله وليًا، أي: معبودًا وحكمًا أو ناصرًا ومعينًا، ومن اتخذ غير الله وليًا بهذا المعنى فقد خذل وخاب، وأشرك مع الله عَزَّوَجَلَّ غيره، لأن معنى الآية: قل أغير الله اتخذ معبودًا وحاكمًا وليًا أحب ما يحب ومن يحب، وأبغض ما يبغض ومن يبغض؟!!

٢- ومن صور اتخاذ غير الله وليًا:

- عبادة غيره سبحانه بأن يتوجه في صلاته وركوعه وسجوده وخوفه ورجائه وذبحه ونذره واستغاثته إلى غير الله عَزَّوَجَلَّ، فتكون معنى (وليًا). هنا بمعنى: معبودًا وناصرًا ومعينًا.
- التحاكم إلى غير شرع الله عَزَّوَجَلَّ في الحلال والحرام والحكم أو التحاكم إلى ما يخالفه من أحكام الطاغوت وهنا يكون (الولي) بمعنى الحاكم والمشرع.
- موالاتة أعداء الله عَزَّوَجَلَّ من الكفرة والمنافقين، وذلك بمحبتهم أو محبة دينهم ومناصرتهم ومظاهرتهم على المؤمنين، وبغض

المؤمنين وعداوتهم، ولهذه الألوان من الموالاتة والمعاداة صور متعددة، يجب على المسلم أن يحذرها، حتى لا يقع في شرك الولاء المخرج من الملة وهو لا يشعر، ومن هذه الصور:

(أ) محبة الكافر لدينه أو بغض المسلم لدينه، وعدم البراءة من الشرك والمشركين.

(ب) محبة نظام الكافر وشريعته المناقضة لشرع الله ﷻ، والإعراض عن حكم الله ﷻ.

(ج) مناصرة الكافر بالنفس أو المال أو المشورة في قتاله للمسلمين وعداوته لهم.

(د) إحلال الروابط الجاهلية محل رابطة التوحيد والإيمان، فيوالي ويعادي من أجل الوطن والجنس والقوم، وتقدم هذه الروابط كرابطة الإنسانية، ورابطة القومية، ورابطة الوطنية على رابطة الدين.

ونظرًا لخطورة هذه الروابط وأثرها في هدم عقيدة الولاء والبراء القائمة على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، والبراءة والخلوص من الشرك وأهله، أرى ضرورة البسط في بيان خطورة

هذه الروابط، ورد الشبهات الجاهلية التي تحسنها، ولاسيما رابطة (الوطنية).

٣- إن من مظاهر غربة الدين في زماننا اليوم أن تصبح أصول الإيمان والتوحيد عرضة للأخذ والرد بين أبناء المسلمين، ويصبح المتمسك بها غريباً توجه إليه سهام النقد ويوصف بالتشدد والتطرف، وبث الفرقة في الأمة، وابتغاء الفتنة بين طوائف المجتمع في الدولة الواحدة وأبناء الوطن الواحد!

ومن هذه الأصول العظيمة التي توجه لها سهام الهدم والاستهجان، عقيدة الولاء والبراء؛ الولاء لله ﷻ ولرسوله ﷺ وللمؤمنين الموحدين، والبراءة من الشرك والمشركين.

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَخَذُ وَلِيًّا فَاظِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطَعُّمُ وَلَا يُطَعَّمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسَلَهُ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الأنعام: ١٤].

وقال سبحانه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

ومن أخطر المعاول التي تستخدم اليوم لهدم عقيدة الولاء والبراء، معول (الوطنية) حيث يُراد بها إحلال رابطة الوطن محل رابطة الإخاء الإسلامي، وذلك يفقد الولاء والبراء بين أبناء المجتمع المسلم على أساس الدين.

إن حب الوطن ومكان المنشأ والحنين إليه طبعٌ جبلي فطري مغروس في النفوس، ولشدة مفارقة الأوطان على النفوس رتب الله ﷻ عليها الثواب العظيم للمهاجرين في سبيله المفارقين لأوطانهم من أجله، قال الله ﷻ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، وهاهو بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحنُّ إلى وطنه الأصلي مكة بعد أن هاجر منها، ويقول:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً بوادٍ وحولي إذ خرو وجليل

فهذا الحب والحنين لا ضير فيه ولا لوم، وليس نزاعنا مع دعاة الوطنية في هذه المسألة.

إنما اللوم والانحراف والنزاع في جعل الانتماء إلى الوطن الواحد

هو معيار الولاء والمحبة والنصرة لكل من يعيش تحت مظلة الوطن الواحد، ولو كان مشرکاً أو منافقاً، وجعله هو المقدم والمكرم على من ليس من أبناء الوطن، ولو كان مسلماً صالحاً تقياً.

إن هذا هو الانحراف والعودة إلى موازين الجاهلية ومعاييرها في الولاء والنصرة وفي العداوة والبراءة، نعم؛ إذا كان المواطن موحدًا صالحًا خيرًا، فهذا نور على نور ولا تثريب على من وجد ميلاً أكثر إلى الموحد الصالح من قرابته أو قبيلته أو من أبناء وطنه..

أما أن يجد ميلاً ومحبة وتأخياً مع أهل الشرك والنفاق، ويجعله يسكت عن شركهم ونفاقهم لأنهم من أبناء وطنه؛ فهذا هو المرفوض في ميزان الله عز وجل، قال الله عن نوح عليه السلام حينما قال: ﴿رَبِّ إِنِّي مِّنْ أَهْلِ﴾ [هود: ٤٥]، قال الله عز وجل له: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦].

إنه لا يخفى ما في (الوطنية) بالمفهوم الحالي من هدم لعقيدة الولاء والبراء في هذا الدين، فكم في الوطن الواحد من العقائد الباطلة الكفرية التي تخرج صاحبها من الإسلام، كمن يعبد غير الله عز وجل ويستغيث به، ويدعي أن غير الله يعلم الغيب كغلاة الشيعة والصوفية.. وكم في الوطن الواحد من يكفر أصحاب محمد ﷺ ويعاديهم، ويقذف نساء النبي ﷺ العفيفات



الطاهرات.. وكم في الوطن الواحد من المنافقين الذين يبطنون العداة للإسلام، ويوالون الغرب وأهله.

فهل هؤلاء هم منا ونحن منهم لأننا وإياهم نعيش في وطن واحد؟ إننا بهذا الفهم نعود إلى صورة من صور الجاهلية الأولى، التي جاء هذا الدين للقضاء عليها، وجعل رابطة العقيدة والإيمان فوق كل رابطة، يعادي من أجلها، ويوالي من أجلها، ويحب من أجلها، ويبغض من أجلها.

قال ﷺ: «من تعزى بعزاء أهل الجاهلية فأعضوه بهن أبيه، ولا تكنوا».

فسمع أبي بن كعب رجلاً يقول: يا فلان! فقال: اعضض أير أبيك.

فقال: يا أبا المنذر! ما كنت فاحشاً.

فقال: بهذا أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم»<sup>(١)</sup>.

ويشرح شيخ الإسلام هذا الحديث، فيقول: «ومعنى قوله: «من تعزى بعزاء الجاهلية» يعني: يتعزى بعزائهم، وهو الانتساب إليهم في الدعوة، مثل قوله: يا لقيس! يا ليمن! ويا لهلال! ويا لأسد، فمن تعصب لأهل بلدته، أو مذهبه، أو طريقتة، أو لأصدقائه دون غيرهم؛ كانت فيه شعبة من الجاهلية،

(١) «مسند أحمد» (٢٠٧٢٨)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٩).

حتى يكون المؤمنون كما أمرهم الله تعالى معتصمين بحبله وكتابه وسنة رسوله»<sup>(١)</sup>.

وقد وقفت في الشبكة العنكبوتية على دراسة مهمة، يتحدث فيها كاتبها د/ أحمد محمود السيد عن «فقه المواطنة وأصولها الغربية في الجاهلية المعاصرة»، ونظرًا لأهميتها وعلاقتها بموضوعنا، أنقل بعض ما ورد فيها؛ حيث يقول وفقه الله تعالى: «في هذه الأيام يتردد لفظ المواطنة على ألسنة المهتمين بالعمل السياسي، ودعاة العلمانية، وأنصار المنهج العلماني بوجه عام، ولا عجب أن يصدر مثل هذا من هؤلاء، حتى إن ادّعى بعضهم أنه لا يتعارض مع الإسلام، أو أن الإسلام قد عمل به وأسسه، بل العجب كل العجب أن ينبري بعض الشيوخ وعلماء الشريعة لإثبات أنه مبدأ إسلامي أصيل، وأن مضمون هذا المفهوم مماثل لما جاء به الشرع الحنيف.

والأدهى من ذلك أن التشبيه نفسه يتكرر، كما حدث في الستينيات مع الاشتراكية، فهناك من كتب عن (المواطنة في الإسلام)، و(المواطنة عند رسول الله)، و(المواطنة في الشريعة الإسلامية)، و(المواطنة مبدأ إسلامي أصيل)، و(مبدأ المواطنة أهم دروس الهجرة)؛ وهناك من استدل بآيات

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/٤٢٢).

قرآنية وتفسيرات، حاول أن يلوي بها أعناق الآيات، كي تعبر عن مفهوم المواطنة الغربي، مؤكداً تطابقها مع تفسيرات القرآن.

تعالوا نتفهم معنى المواطنة في دولة المنشأ لنعرف إن كانت تصلح كمبدأ إسلامي أم لا؟ يعرّف قاموس المصطلحات السياسية (المواطنة) بأنها: مكانة أو علاقة اجتماعية تقوم بين شخص طبيعي وبين مجتمع سياسي (الدولة)، ومن خلال هذه العلاقة يقدم الطرف الأول الولاء، ويتولى الطرف الثاني الحماية، وتحدد هذه العلاقة بين الشخص والدولة بالمساواة أمام القانون (الوضعي) في ظل هيمنة الدولة القومية.

ويعبر مفهوم المواطنة بمعناه الحديث عن تطور شديد التعقيد صاغته أوروبا الغربية في القرن التاسع عشر خلال عمليات تاريخية واجتماعية وسياسية، تم فيها الانتقال من الحق الإلهي المقدس إلى حق المواطن، ومن هيمنة الكنيسة إلى هيمنة الدولة.

والمواطنة كمفردة من مفردات النظام السياسي الغربي الذي انتشر في أوروبا، ومنها إلى أمريكا، ثم بقية أنحاء العالم بعد ذلك؛ تركز على مجموعة عناصر أساسية، أهمها:

- إحلال تقديس الوطن وتقديمه على تعظيم الله وحده.

- إعلاء وتقديم الولاء للوطن على أي ولاء آخر حتى ولو كان الدين.
- إحلال الرابطة الوطنية محل الرابطة الدينية كأساس لتجانس الجماعة السياسية.

هذه العناصر تظهر بوضوح الحل الذي وضعه الأوروبيون لإشكالية العلاقة بين الدين والدولة من خلال (المواطنة) وفكرة الدولة القومية، وهذا الحل هو الذي شكّل الأساس الذي قامت عليه ظاهرة الدولة القومية التي أوجدها الأوروبيون أنفسهم: كأداة للتخلص من طغيان السلطة الدينية، وتجاوزات الكنيسة الكاثوليكية الغربية، ولذلك قامت الدولة القومية على مبدأ الفصل بين الدين والدولة؛ بمعنى عدم توظيف الدين في خدمة السياسة وعدم توظيف السياسة في خدمة الدين، ورفض تدخل المؤسسات الدينية في كل ما له صلة بالعلاقة بين الوطن والدولة، وجعل نشاط القوى الدينية قاصرًا على الجوانب الروحية دون الحياة السياسية، وتخليص النشاط الديني من الدوافع والمطالب السياسية.

فالمواطنة كمبدأ سياسي لا تعمل بعيدًا عن النظرية السياسية الغربية التي صاغتها، ولا يمكن أن تُقطع من سياقها لئتم تفعيلها من نظام آخر مختلف عقائديًا واجتماعيًا وتاريخيًا، فالنظام السياسي الإسلامي يقوم على

مجموعة مبادئ تعمل معاً لتحقيق مبادئ الإسلام وهدية من خلال منظومة من الآليات، مثل: الإمامة، أهل الحل والعقد، الشورى، والخلافة... إلخ.

والتميز فيها يكون للمسلم، فلا يستوي المؤمنون والكافرون، وإذا كان معيار التفضيل هو التقوى، كما في الحديث: «لا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوى»، فإن هذه التقوى معناها الإسلام والإيمان الخالص، وهذا ليس معناه ظلم المخالفين في العقيدة، لكنهم في ظل الدولة الإسلامية يتعاملون من خلال العهود والمواثيق، التي تحفظ لهم حقوقهم، وتحفظ للدولة الإسلامية ما تفرضه عليهم من واجبات»<sup>(١)</sup>. اهـ.

هذه هي حقيقة الوطنية، وملابسات نشأتها، وخطرها العظيم على عقيدة التوحيد، والموالاتة والمعاداة فيه.

فهل يسوغ بعد ذلك لأحد أن يرفع سيف الوطنية في وجه كل من يرفض أن يكون الانتماء الوطني هو الأساس، الذي يعقد عليه الولاء والبراء، بغض النظر عن عقائد هؤلاء المواطنين ونحلهم؟ هل يجوز أن تكون رابطة الوطن فوق رابطة التوحيد؟ هل يجوز أن يتأخى ويتحابّ الموحدون مع المشركين والكفار والمنافقين والرافضة الباطنيين، ويسكت

(١) انظر: موقع «أنا المسلم».

عن كفرهم ونفاقهم، بحجة أنهم أبناء وطن واحد، وبحجة أن الانطلاق من التوحيد في الولاء والبراء يفرق الأمة، ويذكي الفتن الطائفية فيها؟!

إن هذا هو ما يدعو إليه العلمانيون والباطنيون، ومن تأثر بهم من المخدوعين من أبناء المسلمين.

نسأل الله ﷻ أن يحيينا ويميتنا على التوحيد، وأن يتوفانا طيبين، وأن يعيدنا من شرور الفتن ما ظهر منها وما بطن، والحمد لله رب العالمين.



## • الوقفة السادسة •

عند قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ [الأنعام: ٢٠].

يقول ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية: «ثم قال مخبراً عن أهل الكتاب أنهم يعرفون هذا الذي جئتهم به كما يعرفون أبناءهم، بما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدمين والأنبياء؛ فإن الرسل كلهم بشرٌ بوجود محمد ﷺ وبعثته وصفته وبلده ومهاجره وصفة أمته، ولهذا قال بعد هذا: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾، أي: خسروا كل الخسارة، بهذا الأمر الجلي الظاهر، الذي بشرت به الأنبياء، ونوّهت به في قديم الزمان وحديثه» (١).

ويقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: «لما بين شهادته وشهادة رسوله على التوحيد وشهادة المشركين الذين لا علم لديهم على ضده، ذكر أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿يَعْرِفُونَ﴾ أي: يعرفون صحة التوحيد

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٤٥) ت: سامي السلامة.

﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ أي: لاشك فيه بوجه كما أنهم لا يشتبهون بأولادهم خصوصاً البنين الملازمين في الغالب لأبائهم، ويحتمل أن الضمير عائد إلى الرسول ﷺ، وأن أهل الكتاب لا يشتبهون بصحة رسالته، ولا يمترون بها، لما عندهم من البشارات به، ونعوته التي تنطبق عليه، ولا تصلح لغيره، والمعنيان متلازمان، وقوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: فوتوها ما خلقت له من الإيمان والتوحيد، وحرَموها الفضل من الملك المجيد ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ فإذا لم يوجد الإيمان منهم فلا تسأل عن الخسارة والشر الذي تحصل لهم» (١).

ويتحدث سيد قطب رحمه الله تعالى بكلام نفيس عن هذه الآية مبيناً خطر أهل الكتاب على عقيدة المسلمين؛ الذين يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، ولذا فهم يحاربونها ويحاولون تشويهها في قلوب المسلمين، لأنهم يعرفون أنها مصدر قوتهم وصمودهم، ويعرفون خطرها عليها وعلى شعوبهم.

يقول رحمه الله تعالى بعد أن ذكر أقوال المفسرين عند هذه الآية: «إن أهل الكتاب يعرفون أن هذا الكتاب حق من عند الله، ويعرفون - من ثم - ما

(١) «تفسير السعدي» (ص ٢٥٢).



فيه من سلطان وقوة، ومن خير وصلاح، ومن طاقة دافعة للأمة التي تدين بالعبقيدة التي جاء بها؛ وبالأخلاق التي تنبثق منها، وبالنظام الذي يقوم عليها، ويحسبون كل حساب لهذا الكتاب وأهله، ويعلمون جيداً أن الأرض لا تسعهم وتسع أهل الدين!.. إنهم يعرفون ما فيه من حق، ويعرفون ما هم فيه من باطل.. ويعرفون أن الجاهلية التي صاروا إليها، وصارت إليها أوضاع قومهم وأخلاقهم وأنظمتهم، لا يمكن أن يهادنها هذا الدين، أو يبقى عليها.. وأنها -من ثم- معركة لا تهدأ حتى تجلو الجاهلية عن هذه الأرض، ويستعلي هذا الدين، ويكون الدين كله لله.. أي: أن يكون السلطان في الأرض كله لله، وأن يطارد المعتدون على سلطان الله في الأرض كلها، وبذلك وحده يكون الدين كله لله..

إن أهل الكتاب يعلمون جيداً هذه الحقيقة في هذا الدين.. ويعرفونه بها كما يعرفون أبناءهم.. وهم جيلاً بعد جيل يدرسون هذا الدين دراسة دقيقة عميقة، وينقبون عن أسرار قوته، وعن مداخله إلى النفوس ومساربه فيها، ويبحثون بجد: كيف يستطيعون أن يفسدوا القوة الموجهة في هذا الدين؟ كيف يلقون بالريب والشكوك في قلوب أهله؟ كيف يحرفون الكلم فيه عن مواضعه؟ كيف يصدون أهله عن العلم الحقيقي به؟ كيف يحولونه من

حركة دافعة تحطّم الباطل والجاهلية وتسترد سلطان الله في الأرض، وتطارد المعتدين على هذا السلطان، وتجعل الدين كله لله.. إلى حركة ثقافية باردة، وإلى بحوث نظرية ميتة، وإلى جدل لاهوتي أو فقهي أو طائفي فارغ؟ كيف يفرغون مفهوماته في أوضاع وأنظمة وتصورات غريبة عنه مدمرة له، مع إيهام أهله أن عقيدتهم محترمة مصونة؟! كيف في النهاية يملئون فراغ العقيدة بتصورات أخرى ومفاهيم أخرى واهتمامات أخرى، ليجهزوا على الجذور العاطفية الباقية من العقيدة الباهتة؟!

إن أهل الكتاب يدرسون هذا الدين دراسة جادة عميقة فاحصة، لأنهم يبحثون عن الحقيقة - كما يتوهم السذج من أهل هذا الدين! - ولا لينصفوا هذا الدين وأهله - كما يتصور بعض المخدوعين حينما يرون اعترافاً من باحث أو مستشرق بجانب طيب في هذا الدين! - كلا! إنما هم يقومون بهذه الدراسة الجادة العميقة الفاحصة، لأنهم يبحثون عن مقتل لهذا الدين! لأنهم يبحثون عن منافذه ومساربه إلى الفطرة ليسدوها أو يميعوها! لأنهم يبحثون عن أسرار قوته ليقاوموه منها! لأنهم يريدون أن يعرفوا كيف يبني نفسه في النفوس، ليبنوا على غراره التصورات المضادة التي يريدون ملء فراغ الناس بها!

وهم من أجل هذه الأهداف والملابسات كلها يعرفونه كما يعرفون  
أبناءهم!

ومن واجبنا نحن نعرف أن ذلك.. وأن نعرف معه أننا نحن الأولى بأن  
نعرف ديننا كما نعرف أبناءنا! إن الواقع التاريخي من خلال أربعة عشر قرناً  
ينطق بحقيقة واحدة.. هي هذه الحقيقة التي يقرها القرآن الكريم في هذه  
الآية: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ ..

ولكن هذه الحقيقة تتضح في هذه الفترة وتتجلى بصورة خاصة.. إن  
البحوث التي تكتب عن الإسلام في هذه الفترة تصدر بمعدل كتاب كل  
أسبوع، بلغة من اللغات الأجنبية.. وتنطق هذه البحوث بمدى معرفة أهل  
الكتاب بكل صغيرة وكبيرة عن طبيعة هذا الدين وتاريخه، ومصادر قوته،  
ووسائل مقاومته، وطرق إفساد توجيهه! ومعظمهم -بطبيعة الحال- لا  
يفصح عن نيته هذه، فهم يعلمون أن الهجوم الصريح على هذا الدين كان  
يشير حماسة الدفاع والمقاومة، وأن الحركات التي قامت لطرده الهجوم  
المسلح على هذا الدين -الممثل في الاستعمار- ولو في الصورة الفكرية -  
سيظل يشير حماسة الدفاع والمقاومة! لذلك يلجأ معظمهم إلى طريقة  
أخبث.. يلجأ إلى إزجاء الثناء لهذا الدين، حتى ينوّم المشاعر المتوفرة،

ويخدر الحماسة المتحفزة، وينال ثقة القارئ واطمئنانه.. ثم يضع السم في الكأس ويقدمها مترعة.. هذا الدين نعم عظيم.. ولكنه ينبغي أن يتطور بمفهوماته ويتطور كذلك بتنظيماته، ليجاري الحضارة (الإنسانية) الحديثة! وينبغي ألا يقف موقف المعارضة للتطورات التي وقعت في أوضاع المجتمع، وفي أشكال الحكم، وفي قيم الأخلاق! وينبغي - في النهاية - أن يتمثل في صورة عقيدة في القلوب، ويدع الحياة الواقعية تنظمها نظريات وتجارب وأساليب الحضارة (الإنسانية) الحديثة! ويقف فقط ليبارك ما تقرره الأرباب الأرضية من هذه التجارب والأساليب.. وبذلك يظل دينًا عظيمًا!

وفي أثناء عرض مواضع القوة والعمق في هذا الدين -وهي ظاهريًا تبدو في صورة الإنصاف الخادع والثناء المخدر- يقصد المؤلف قومه من أهل الكتاب، لينبهم إلى خطورة هذا الدين، وإلى أسرار قوته، ويسير أمام الأجهزة المدمرة بهذا الضوء الكشاف، ليسددوا ضرباتهم على الهدف، وليعرفوا هذا الدين كما يعرفون أبناءهم!

إن أسرار هذا القرآن ستظل تنكشف لأصحابه، جديدة دائمًا، كلما عاشوا في ظلاله، وهم يخوضون معركة العقيدة، ويتدبرون بوعي أحداث

التاريخ، ويطالعون بوعي أحداث الحاضر، ويرون بنور الله الذي يكشف الحق، وينير الطريق»<sup>(١)</sup>.

للمدرس المستفادة من هذه الآية:

- الدرس الأول: أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ولا سيما علماءهم ومثقفوهم ومستشرقوهم يعرفون دين الإسلام، ورسول الإسلام ﷺ، والكتاب الذي أنزل على رسوله معرفة تفصيلية، كما يعرفون أبناءهم؛ أي: يعرفون أنه الحق، ولكنهم يكتمون ذلك العلم، ويستكبرون، ويستنكفون أن يدخلوا في دين الله ﷻ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِسْمَا أَسْرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَن يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ [البقرة: ٨٩، ٩٠]. أي: أن هذه العداوة لم تنشأ عن جهل بدين الإسلام، وإنما عن علم بحقيقة هذا الدين، ولكنهم يحسدون أهله حقداً وإباء واستكباراً.

(١) «في ظلال القرآن» (٢/ ١٠٦١، ١٠٦٢).

- الدرس الثاني: كما نخرج من مفهوم هذه الآية: أن عداوة الكفار للمسلمين وكيدهم لهم، إنما هي عداوة إستراتيجية متجذرة في أعماق التاريخ، ولقد حذرنا الله ﷻ في مواطن كثيرة من كتابه الكريم من هذه العداوة، كما في قوله سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ [آل عمران: ١١٨].

وفي قوله سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِي وَعَدُوَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١].

ولم تظهر هذه العداوة بشكلها الواضح الجلي، كما تظهر في زماننا اليوم، الذي يشن فيه الكفار والمنافقون بجميع مللهم حرباً عالمية حاقدة على الإسلام وأهله الصادقين المتبعين لسلف الأمة، التي انطلق فيها الكفرة في حربهم من عدة محاور، وعلى أصعدة مختلفة، سواء على الصعيد العسكري بالقتل والتعذيب والسجن والتشريد، واحتلال البلاد ومقدراتها، أو على الصعيد الفكري ببث الشبهات وهدم أركان العقيدة وأصولها، أو على الصعيد الاقتصادي بتجويع المسلمين والاستيلاء على مقدراتهم وإضعاف اقتصادهم وتجفيف منابع الداعمة للدعوة والجهاد في سبيل الله

تعالى، أو على الصعيد الأخلاقي بنشر الشهوات والرذائل والإباحية،  
وتغريب مجتمعات المسلمين وبيوتهم.

وأعيد هنا ما قاله سيد قطب رحمه الله تعالى عن عداوتهم وكيدهم  
لهذا الدين: «إن أهل الكتاب يعرفون أن هذا الكتاب حق من عند الله،  
ويعرفون - من ثم - ما فيه من سلطان وقوة ومن خير وصلاح... ويحسبون  
كل حساب لهذا الكتاب وأهله، يعلمون جيداً أن الأرض لا تسعهم وتسع  
أهل هذا الدين.. ويعرفون أن الجاهلية التي صاروا إليها وصارت إليهم  
أوضاع قومهم وأخلاقهم وأنظمتهم، لا يمكن أن يهادنها هذا الدين أو يبقى  
عليها وأنها - من ثم - معركة لا تهدأ حتى تخلو الجاهلية عن هذه الأرض..  
إن أهل الكتاب يعلمون جيداً هذه الحقيقة في هذا الدين، ويعرفونه بها كما  
يعرفون أبناءهم.. ويبحثون بجد كيف يستطيعون أن يفسدوا القوة الموجهة  
في هذا الدين؟ كيف يلقون بالريب والشكوك في قلوب أهله؟ كيف يحرفون  
الكلم فيه عن مواضعه.. إن أهل الكتاب يدرسون هذا الدين دراسة جادة  
عميقة فاحصة، لا لأنهم يبحثون عن الحقيقة، كما يتوهم السذج من أهل هذا  
الدين... كلا إنما هم يقومون بهذه الدراسة الجادة العميقة الفاحصة؛ لأنهم  
يبحثون عن مقتل لهذا الدين.. وهم من أجل هذه الأهداف والملابسات

يعرفونه كما يعرفون أبناءهم» (١).

- **الدرس الثالث:** إذا كان أهل الكتاب يدرسون هذا الدين ويعرفونه أهله المتمسكون به على الحقيقة، كما يعرفون أبناءهم، وهدفهم هدم هذا الدين؛ فإن واجبنا نحن المسلمين أن نكون أولى بهذه المعرفة، وأن يكون علمنا بديننا ومعرفتنا بأصوله وخصائصه ومقوماته أولى، وأولى من أهل الكتاب، ليزداد حبنا لديننا وتزداد تضحياتنا في الدعوة إليه، والجهاد في سبيله، وإنقاذ البشرية، وإسعادهم بالعيش في ظلاله، والتقرب إلى الله عز وجل بالتسليم لأخباره وأحكامه بالتصديق والقبول والانقياد، كما يجب علينا الاستزادة من معرفة سبيل المجرمين وكيدهم وعداوتهم لنا ولديننا.

- **الدرس الرابع:** إن معرفة رموز الكفار ومثقفهم بدين الإسلام الحق، ثم هم لا يؤمنون به، ولا يدخلون فيه، دليل على أن الإيمان لا يكفي فيه مجرد الإقرار والتصديق به، وإنما يجب أن ينضم إلى ذلك: القبول والانقياد والإذعان له؛ فهؤلاء هم أهل الكتاب يعرفون هذا الدين، ويذكرون محاسنه، ويصدق بعضهم بأنه دين حق، وأن محمداً ﷺ رسول من عند الله، ولكنهم يرفضون الدخول فيه؛ فهل يدخلهم هذا في الإسلام؟ كلا لا يدخلهم

(١) «في ظلال القرآن» (٢/١٠٦١) باختصار.



هذا الإقرار في دين الإسلام، لاستكبارهم وإبائهم أن يقبلوه، وأن تدعن له قلوبهم وتنقاد له.

- **الدرس الخامس:** يتوهم بعض المسلمين، ومنهم - وللأسف - بعض المثقفين والكتاب من أبناء المسلمين، أن من أهل الكتاب ولاسيما المستشرقون منهم، الذين يبحثون ويكتبون عن الإسلام وعقائده وأحكامه وتاريخه، بأن منهم عقلاء ومنصفين! وذلك حين يرون من باحث أو مستشرق ثناءه على جانب من جوانب الدين الإسلامي، وهذا في الحقيقة منهم سداجة وابتلاع للسم والطعم، إذ لا يمكن وصف إنسان يعرف الحق المتمثل في هذا الدين، ثم لا يدخل فيه وينقاد له، بل يبقى على كفره واستكباره بأنه عاقل، بل لا أسفه ولا أخسر منه، ولا يمكن أن يكون بموقفه هذا عاقلاً أو منصفاً، إذ كيف يقال عن إنسان يعلم الحق والعاقبة الطيبة لأهله المؤمنين به في الدنيا والآخرة، ثم يبقى على باطله، وهو يعلم عاقبة السوء لأهله في الدنيا والآخرة؟

قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠]. وقال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُكُمْ أَوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد: ١٩]. وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا

فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ [الملك: ١٠]. وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [البقرة: ١٣]. وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المائدة: ٥٨].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : «فلا يُسمى عاقلًا إلا من عرف الخير فطلبه، والشر فتركه؛ ولهذا قال أصحاب النار: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ١٠].

وقال عن المنافقين: ﴿تَحَسَّبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤]، ومن فعل ما يعلمه أنه يضره فمثل هذا ما له عقل» (١).

وقال سفيان بن عيينة - رحمه الله تعالى - : «ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر، إنما العاقل الذي إذا رأى الخير اتبعه، وإذا رأى الشر اجتنبه» (٢).

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٤).

(٢) «حلية الأولياء» (٨/ ٣٣٩).

وانطلاقاً من هذا الميزان الإلهي للعقلاء؛ فإنه لا يصلح أن يوصف الكافر والمحاد لله ﷻ ورسوله بأنه عاقل؛ إذا كيف يوصف من هذه حاله بالعقل، وقد رضي لنفسه بما يضره في الدنيا من الشقاء وعيشة البهائم، وبما يضره في الآخرة من عذاب الله ﷻ وسخطه؟ إن هذا لا يمكن أن يكون عاقلاً أبداً، نعم يمكن أن يقال إنه ذكي لقن، لكنه ليس بعاقل ولا أريب.

ولذا كم كان شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - ينعى على الزنادقة أو علماء الكلام انحرافهم عن الحق، مع ما أتوا من الفطنة والذكاء، فتراه يقول: «إذا نظرت إليهم بعين القدر والحيرة مستولية عليهم، والشيطان مستحوذ عليهم، رحمتهم ورفقت عليهم؛ أتوا ذكاء وما أتوا زكاء، وأعطوا فهوماً وما أعطوا علوماً، وأعطوا سمعاً وأبصاراً وأفئدة ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعَادَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦]» (١).

وعلى هذا؛ فإن من الخطأ ما يطلقه اليوم بعض كتاب المسلمين عن بعض مفكرى الغرب والمستشرقين بأن منهم منصفين وعقلاء، وكان ينبغي

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/ ١١٩).

أن يقال: إن منهم أذكياء ونابعين، أما أن يوصفوا بالعقل وهم يعرفون الإسلام كما يعرفون أبناءهم ثم لا يؤمنون به؛ فإنهم بذلك يحكمون على أنفسهم بالسفه وعدم العقل؛ حين تركوا ما يعلمون فيه من خيرهم، وبقوا على ما يعلمون فيه ضرره عليهم في الدنيا والآخرة، ومثل هذا لا يمكن أن يكون عاقلاً أبداً.

- الدرس السادس: ومن فوائد هذه الآية بيان الميزان الشرعي لحقيقة الخسران والربح؛ حيث قال الله ﷻ في ختام هذه الآية: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢]؛ ففي هذه الآية يعرفنا الله ﷻ على ميزان الخسران الحقيقي، ألا وهو خسارة الإنسان لنفسه بعدم الإيمان، وما يترتب على ذلك من خلودها في نار جهنم؛ فأى خسارة أعظم من ذلك.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [١٥] لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ، يَعْبَادُونَ فَاتَّقُوا [١٦]﴾ [الزمر: ١٥، ١٦].

وقال الله ﷻ: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [٣١]﴾ [الأنعام: ٣١].

كما بين لنا ﷺ الميزان الحقيقي للربح والفوز، كما في قوله:  
 ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَابِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِرْ عَنْهُ  
 سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ  
 الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ [التغابن: ٩].

ومن قوله ﷺ: «ركعتي الفجر خير من الدنيا وما فيها» (١)، وقوله ﷺ  
 لصهيب الرومي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما ترك ماله للمشركين في مكة، وهاجر إلى رسول الله  
 في المدينة: «ربح البيع أبا يحيى» (٢).

وقد ذكر بعض المفسرين عند قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَسْرِى  
 نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ [البقرة: ٢٠٧]، أنها نزلت  
 في صهيب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ومن ذلك قول الأنصار رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ في بيعتهم لرسول الله ﷺ عند  
 العقبة الكبرى: يا رسول الله فإذا فعلنا ذلك، فماذا لنا؟ قال: الجنة، قالوا:  
 «ربح البيع لا نقييل ولا نستقييل» (٣)، هذا هو فهم الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لحقيقة  
 الربح والخسران.

(١) مسلم (٧٢٥).

(٢) «كنز العمال» (٤٢٧٩/٢) رقم (٤٢٧٩)، وعزاه ابن عساكر إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم،  
 ورواه ابن أبي نعيم في «الحلية» (١٥١/١)، وانظر «تفسير ابن كثير» (٥٦٥/١)

(٣) «تفسير الطبري» (٤٩٩/١٤) رقم (١٧٢٧٠).

وبالنظر إلى هذا الميزان الشرعي للربح والخسارة يتبين لنا ما يضاده من الموازين الأرضية البشرية؛ لأن الشيء يُعرف بضده، والأصل الذي تنطلق منه هذه المعايير هو نظرة هذه الموازين إلى أن الدنيا وزخرفها والتكاثر فيها هي ميزان الربح والخسارة، فمن حصل على النصيب الأكبر منها فهو الرابح، ومن حُرِمها فهو الخاسر، وسواء كانت هذه الدنيا مالا، أو متاعا، أو أولادا، أو جاها، أو منصبًا، أو أي شيء من متاع الحياة الدنيا.

قال الله ﷻ عن أصحاب هذه الموازين: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

وقال عن المخدوعين بدنيا قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا لِلدُّنْيَا نَجِلٌ ۖ لَنَا لِلدُّنْيَا مَا أَوتِينَا ۖ لَهَا زِينَةٌ ۖ وَلَئِن نَّحْنُ لَفِي خَيْرٍ مِّمَّا يَشْكُرُونَ ۗ﴾ [القصص: ٧٩].

يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى -: «فالخاسرون الذين يعتقدون أنهم أهل الربح والكسب اشتروا الحياة الدنيا وحظهم فيها ولذاتهم بالآخرة وحظهم فيها، فأذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا واستمتعوا بها، ورضوا بها، واطمأنوا إليها، وكان سعيهم لتحصيلها، فباعوا واشتروا

وأتجروا، وباعوا آجلاً بعاجل، ونسيئة بنقد، وغائباً بناجز، وقالوا: هذا هو الحزم، ويقول أحدهم:

خذ ما تراه، ودع شيئاً سمعت به

فكيف أبيع حاضرًا نقدًا مشاهدًا في هذه الدار بغائب نسيئة في دار أخرى غير هذه؟!

وينضم إلى ذلك ضعف الإيمان، وقوة داعي الشهوة، ومحبة العاجلة والتشبهه ببني الجنس، فأكثر الخلق في هذه التجارة الخاسرة، التي قال الله سبحانه في أهلها: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۗ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة: ٨٦].

وقال فيهم: ﴿فَمَا رِيحَتِ بِجَدْرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ [البقرة: ١٦].

فإذا كان يوم التغابن ظهر لهم الغبن في هذه التجارة، فتقطع عليها النفوس حسرات، وأما الرابحون فإنهم باعوا فانيًا بباق، وخسيسًا بنفيس، وحقيرًا بعظيم، وقالوا: ما مقدار هذه الدنيا من أولها إلى آخرها، حتى نبيع حظنا من الله تعالى والدار الآخرة بها؟ فكيف ينال العبد منها في هذا الزمن القصير الذي هو في الحقيقة كغفوة حلم، لا نسبة له إلى دار القرار ألبتة؟ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥].

فهذه حقيقة الدنيا عند موافاة يوم القيامة، فلمّا علموا قلة لبثهم فيها، وأن لهم دارًا غير هذه الدار - هي دار الحيوان ودار البقاء - رأوا من أعظم الغبن بيع دار البقاء بدار الفناء، فاتّجروا تجارة الأكياس، ولم يغتروا بتجارة السفهاء من الناس، فظهر لهم يوم التغابن ربح تجارتهم ومقدار ما اشتروه، وكل أحد في هذه الدار الدنيا بائع مشتر متجر، و«كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها» (١)(٢).

وأختم هذه الفائدة من الآية الكريمة بذكر بعض ثمار الميزان الشرعي لحقيقة الربح والخسران من هذه الثمار:

أولاً: الحرص على الربح العظيم في الآخرة، والاستعداد لذلك بزاد التقوى، ووقف الأنفاس والأوقات على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ:

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - : «الدنيا من أولها إلى آخرها لا تساوي غم ساعة، فكيف بغم العمر؟! محبوب اليوم يعقب المكروه غدًا، أو مكروه اليوم يعقب المحبوب غدًا، أعظم الربح

(١) مسلم (٢٢٣).

(٢) «الجواب الكافي» (ص ١٤٣) باختصار.



في الدنيا أن تشغل نفسك كل وقت بما هو أولى بها، وأنفع لها في معادها» (١).

### ثانياً: محاسبة النفس:

فكلما فكر العبد في الربح العظيم والخسارة العظيمة ووزنهما بميزان الله عَزَّوَجَلَّ هانت عليه الدنيا، ولم يتنافس مع أهلها عليها، بل وجَّه همَّه للتنافس في الآخرة ونعيمها، وحاسب نفسه في تحقيق هذا الربح، والبعد عن كل ما يثول به إلى الخسران والبوار، وشح بالوقت في ألا يضيع إلا فيما يقربه إلى الله عَزَّوَجَلَّ وجنته، وإذا فاته موسم من الخير اغتم وحزن.

ويذكر ابن القيم -رحمه الله تعالى- شيئاً مما يعين على هذه المحاسبة فيقول: «ويعينه على هذه المراقبة والمحاسبة: معرفة أنه كلما اجتهد فيها اليوم استراح منها غداً إذا صار الحساب إلى غيره، وكلما أهملها اليوم اشتد عليه الحساب غداً.

ويعينه عليها أيضاً: معرفة أن ربح هذه التجارة سكنى الفردوس، والنظر إلى وجه الرب سبحانه، وخسارتها: دخول النار

(١) «الفوائد» (ص ٤١).

والحجاب عن الرب تعالى، فإذا تيقن هذا هان عليه الحساب اليوم، فحق على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر ألا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها؛ فكل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة - لا حظ لها - يمكن أن يشتري بها كنز من الكنوز، لا يتناهى نعيمه أبد الآباد، فإضاعة هذه الأنفاس، أو اشتراء صاحبها بها ما يجلب هلاكه: خسران عظيم لا يسمح بمثله إلا أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلاً، وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠] (١).

### ثالثاً: الشعور بالعزة والكرامة:

وذلك بالترفع على الدنيا ومناصبها والشهرة فيها، مما ينظر إليه أهل الموازين الأرضية بأنه ربح ومكسب؛ يبذلون من أجله أنفسهم، ويهدرون به كرامتهم.

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٨٠-٨٨).

رابعاً: الرضا والاطمئنان اللذان يشعر بهما المؤمن عند المصائب، وهو يزن الربح والخسارة بميزان الله ﷻ:

لأن هذه يورث الصبر وعدم الجزع عند المصائب، وذلك حينما يعلم العبد أن الله ﷻ يمن على الصابرين بتكفير السيئات، ورفعة الدرجات، وكفى بهذا ربحاً ومكسباً ولو خسر ما خسر من هذه الدنيا؛ قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وقال سبحانه: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

خامساً: السعادة القلبية والسكينة التي ترفرف على قلب المؤمن، الذي وفقه الله ﷻ لهذا الميزان القويم:

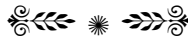
حيث يعرف حقيقة الدنيا والآخرة، فلا تذهب نفسه على الدنيا حسرات، ولا يلهث وراءها، ولا ينافس الناس عليها، بل يجعل تنافسه في الآخرة وما أعد الله ﷻ للمؤمنين فيها، وهذا الشعور يثمر في القلب سلامته من أمراض الحسد والحقد والغل، التي تعشش غالباً في قلوب أهل الدنيا المؤثرين لها على الآخرة.

سادسًا: يحرص أهل هذا الميزان على أرباح الأعمال وأرضاها لله ﷻ عند النزاحم:

فيقدمون الفاضل على المفضول عند عدم القدرة على الإتيان  
بهما جميعًا في وقت واحد، كما يحرصون على تزكية القلوب  
وإخلاص العمل لله ﷻ لأن ربح الأعمال وقبولها عند الله ﷻ  
يكون بما يقوم في القلب في أثناء العمل من الإخلاص والمحبة  
والإجلال والخوف والرجاء لله ﷻ.

سابعًا: إن من أسعده الله ﷻ بهذا الميزان العدل القويم للربح والخسارة  
لا يكتفي بأن يسعد به نفسه فحسب:

بل إن هذا الشعور يدفعه بدافع الرحمة والشفقة للناس أن  
يدعوهم إليه، ويبينه ويشرحه لهم، ويحببه إليهم، وينقلهم من  
الموازن الأرضية للربح والخسارة إلى هذا الميزان السامق  
الكريم.



## • الوقفة السابعة •

عند قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢١) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ [الأنعام: ٢١، ٢٢].

يقول السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية: «أي: لا أعظم ظلماً وعناداً، ممن كان فيه أحد الوصفين، فكيف لو اجتمعا، افتراء الكذب على الله، أو التكذيب بآياته، التي جاءت بها المرسلون، فإن هذا أظلم الناس، والظالم لا يفلح أبداً، ويدخل في هذا، كل من كذب على الله، بادعاء الشريك له والعوين، أو زعم أنه ينبغي أن يعبد غيره، أو اتخذ له صاحبة أو ولدًا، وكل من رد الحق الذي جاءت به الرسل، أو من قام مقامهم» (١).

ويقول سيد قطب عند هذه الآية: «والظلم هنا كناية عن الشرك، في صورة التفضيح له والتقبیح، وهو التعبير الغالب في السياق القرآني عن الشرك، وذلك حين يريد أن يبشع الشرك وينفر منه، ذلك أن الشرك ظلم للحق،

(١) «تفسير السعدي» (ص ٢٥٣).

وظلم للنفس، وظلم للناس، هو اعتداء على حق الله سبحانه في أن يوحد ويعبد بلا شريك، واعتداء على النفس بإيرادها موارد الخسارة والبوار، واعتداء على الناس بتعبيدهم لغير ربهم الحق، وإفساد حياتهم بالأحكام والأوضاع التي تقوم على أساس هذا الاعتداء.. ومن ثم فالشرك ظلم عظيم، كما يقول عنه رب العالمين، ولن يفلح الشرك ولا المشركون ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾..

والله سبحانه يقرر الحقيقة الكلية؛ ويصف الحصيلة النهائية للشرك والمشركين -أو للظلم والظالمين- فلا عبرة بما تراه العيون القصيرة النظر، في الأمد القريب، فلاحًا ونجاحًا.. فهذا هو الاستدراج المؤدي إلى الخسار والبوار.. ومن أصدق من الله حديثًا؟..

وهنا يصور من عدم فلاحهم موقفهم يوم الحشر والحساب، في هذا المشهد الحي الشاخص الموحى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتُرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام: ٢٢-٢٤].

إن الشرك ألوان، والشركاء ألوان، والمشركين ألوان.. وليست الصورة التي تتراءى للناس اليوم حين يسمعون كلمة الشرك وكلمة الشركاء وكلمة

المشركين: من أن هناك ناسًا كانوا يعبدون أصنامًا أو أحجارًا، أو أشجارًا، أو نجومًا، أو نارًا.. إلخ.. هي الصورة الوحيدة للشرك!

إن الشرك في صميمه هو الاعتراف لغير الله سبحانه بإحدى خصائص الألوهية.. سواء كانت هي الاعتقاد بتسيير إرادته للأحداث ومقادير الكائنات، أو كانت هي التقدم لغير الله بالشعائر التعبدية والندور وما إليها، أو كانت هي تلقي الشرائع من غير الله لتنظيم أوضاع الحياة.. كلها ألوان من الشرك، يزاولها ألوان من المشركين، يتخذون ألوانًا من الشركاء!

والقرآن الكريم يعبر عن هذا كله بالشرك؛ ويعرض مشاهد يوم القيامة تمثل هذه الألوان من الشرك والمشركين والشركاء؛ ولا يقتصر على لون منها، ولا يقصر وصف الشرك على واحد منها؛ ولا يفرق في المصير والجزاء بين ألوان المشركين في الدنيا وفي الآخرة سواء..

ولقد كان العرب يزاولون هذه الألوان من الشرك جميعًا: كانوا يعتقدون أن هناك كائنات من خلق الله، لها مشاركة - عن طريق الشفاعة الملزمة عند الله - في تسيير الأحداث والأقدار، كالملائكة أو عن طريق قدرتها على الأذى - كالجن بذواتهم أو باستخدام الكهان والسحرة لهم - أو عن طريق هذه وتلك - كأرواح الآباء والأجداد - وكل أولئك كانوا يرمزون

له بالأصنام التي تعمرها أرواح هذه الكائنات؛ ويستنطقها الكهان، فتحل لهم ما تحل، وتحرم عليهم ما تحرم.. وإنما هم الكهان في الحقيقة.. هم الشركاء!

وكانوا يزاولون الشرك في تقديم الشعائر لهذه الأصنام؛ وتقديم قربان لها والندور - وفي الحقيقة للكهان - كما أن بعضهم - نقلاً عن الفرس - كانوا يعتقدون في الكواكب ومشاركتها في تسيير الأحداث - عن طريق المشاركة لله - ويتقدمون لها كذلك بالشعائر..

وكذلك كانوا يزاولون اللون الثالث من الشرك بإقامتهم لأنفسهم - عن طريق الكهان والشيوخ - شرائع وقيماً وتقاليد، لم يأذن بها الله.. وكانوا يدعون ما يدعيه بعض الناس اليوم من أن هذا هو شريعة الله!

وفي هذا المشهد - مشهد الحشر والمواجهة - يواجه المشركين - كل أنواع المشركين بكل أنواع الشرك - بسؤالهم عن الشرك - كل أصناف الشركاء - أين هم؟ فإنه لا يبدو لهم أثر؛ ولا يكفون عن أتباعهم الهول والعذاب: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّا سُرَّاوُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾



والمشهد شاخص، والحشر واقع، والمشركون مسئولون عن ذلك  
السؤال العظيم.. الأليم.. ﴿أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؟.. (١).

﴿الدروس المستفادة من هذه الآية:

- الدرس الأول: لا أعظم ظلماً مما افترى على الله كذباً أو كذب  
بآياته، وأول من يدخل في هذا الوصف المشركون الذين افتروا الكذب  
بادعائهم أن الله عَبَّوْهُنَّ شريكاً معه في ربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه وصفاته؛ لأن  
الشرك بالله عَبَّوْهُنَّ ترفضه الفطرة والعقول السليمة، إذ كيف يُسَوَّى بين فاطر  
السموات والأرض القاهر فوق عباده المدبر لأمر عباده في الأرض وفي  
السماء، كيف يساوي بينه سبحانه وبين مخلوق ضعيف لا يخلق ولا يرزق  
ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً، فضلاً عن أن يملكه لغيره، إن هذا والله  
الكذب الصراح والافتراء العظيم على الله عَبَّوْهُنَّ ومثله من كذب بآيات  
الله المنظورة والمقروءة، والتي أقام الله عَبَّوْهُنَّ به الحجة على عباده..  
وهؤلاء وأمثالهم لا أحد أظلم منهم.

(١) «في ظلال القرآن» (٢/ ١٠٦٣، ١٠٦٤).

- الدرس الثاني: ووصف المشرك بالظلم وتسميته ظالمًا لوقوعه في الظلم الأعظم، ألا وهو الشرك الأكبر، كما قال لقمان لابنه: ﴿يَبْنِي لَأُشْرِكَ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. وقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وذلك لوضعه العبادة في غير محلها ولغير مستحقها، ووصف بالظلم أيضًا لأنه ظلم نفسه ودساها وعرضها لعذاب الله ﷻ والخلود في نار جهنم، كما وصف بالظلم أيضًا لظلمه عباد الله ﷻ بتضليلهم وتعبيدهم لغير ربهم سبحانه.

- الدرس الثالث: والشرك الأكبر الذي هو أعظم الظلم له صور كثيرة، ترجع في أكثرها إلى ثلاثة أنواع كبيرة:

(أ) الشرك في النسك:

كصرف أي نوع من أنواع الشعائر التعبدية لغير الله ﷻ كالسجود والنذر والخوف والرجاء والذبح والاستغاثة وطلب الحوائج، التي لا يقدر عليها إلا الله ﷻ.

## (ب) الشرك في الولاء والموالاتة:

وذلك بأن تكون المحبة والنصرة لغير الله ﷻ ولغير دينه وأوليائه؛ كمن يحب غير الله أكثر من حبه لله، وينصر أعداء الله على أوليائه، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وكما جاء في قوله تعالى: ﴿ يَتَّيِّبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنهَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُغْلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المائدة: ٥٤-٥٦].

وكما حذر الله ﷻ عن تولي الكفار في قوله: ﴿ يَتَّيِّبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١].

## (ج) الشرك في الحكم والطاعة والتحاكم:

وهذا النوع من الشرك منه ما هو شرك في الربوبية؛ كمن جعل نفسه نداً لله ﷻ في التشريع والتحليل والتحريم، كما يفعله

طواغيت هذا العصر سواء كانوا أفراداً أو مجالس برلمانية  
تشريعية، فهؤلاء أشركوا بالله ﷻ في ربوبيته.

ومنه ما هو شرك في توحيد العبادة والألوهية، ويقع في هذا الشرك  
أولئك الذين أطاعوا المشركين مع الله ﷻ فيما سنوه من قوانين  
تستحل ما حرم الله ﷻ وتحرم ما أحله سبحانه، فيطيعونهم  
ويتبعونهم في هذه المحادة لشرع الله ﷻ عن علم واختيار منهم،  
فهؤلاء قد أشركوا في حكم الله ﷻ والتحاكم إليه، وفي مثل  
هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا  
مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا  
إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ  
﴿٣١﴾ [التوبة: ٣١].

ولما نزلت هذه الآية قال عدي بن حاتم رضي الله عنه - وكان نصرانياً ثم  
أسلم - يا رسول الله: إنا لم نكن نعبدهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:  
«ألم يكونوا يحلون لكم الحرام فتحلون، ويحرمون عليكم  
الحلال فتحرمونه» قال: بلى، قال: «فتلك عبادتكم إياهم»<sup>(١)</sup>.

(١) الترمذي (٣٠٩٥)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٢٩٣).

يقول الله ﷻ: **عَمَّنْ أَطَاعَ الطَّوَاعِيتَ فِي تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَأِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]**، وقال سبحانه: **﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]**.

- **الدرس الرابع: أن كل مشرك مهما كان نوع الشرك الذي وقع فيه، قد حكم الله ﷻ وقضى فيه بأنه لا يفلح لا في الدنيا ولا في الآخرة، والفلح ضده الخسران والسقوط؛ فأما في الآخرة فواضح وبين، فلا أفلح من دخل النار وعاش فيها خالدًا مخلدًا، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]**.

وأما في البرزخ وانتقاله من الدنيا إلى القبر، فقد صور الله ﷻ لنا عدم فلاحه وخسرانه بقوله تعالى: **﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [٥١]** ذلك بما قدمت أيديكم **﴿وَأَنْتَ اللَّهُ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥١، ٥٢]**.

وأما عن حياتهم في الدنيا، وأنه لا فلاح لهم فيها؛ فتتمثل في حياة النكد والضيق والشقاء الذي يعيشها المشرك في الدنيا، وإن ظهر عليه ما ظهر من متاع الدنيا وفرحه بها، قال تعالى: **﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤]**.

وكقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجمعة: ٢١].

إذن > فالشرك قد حكم الله ﷻ على أهله بعدم الفلاح في دورهم الثلاثة: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار الآخرة.

فمن أراد الفلاح فهو في توحيد الله ﷻ - وطاعة نبيه ﷺ واتباعه، ومن طلبه في غير ذلك فهو الخسران المبين، كمن يطلب الماء من سراب بقية يحسبه الظمان ماءً.



## • الوقفة الثامنة •

عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣١﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ دُفِنُوا عَلَى رِجْمِهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِأَلْحَقَّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا لَوْ أَنَّا حَسَرْنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهَمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَنْقُوتُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: ٢٩، ٣٢].

قال سيد قطب - رحمه الله تعالى - عند هذه الآيات كلاماً بديعاً اقتطف منه قوله: «وقضية البعث والحساب والجزاء في الدار الآخرة من قضايا العقيدة الأساسية، التي جاء بها الإسلام؛ والتي يقوم عليها بناء هذه العقيدة بعد قضية وحدانية الألوهية.. والتي لا يقوم هذا الدين - عقيدة وتصوراً، وخلقاً وسلوكاً، وشريعة ونظاماً - إلا عليها.. وبها..»

فالحياة - في التصور الإسلامي - ليس هي هذه الفترة القصيرة التي تمثل عمر الفرد؛ وليست هي هذه الفترة المحدودة التي تمثل عمر الأمة من الناس؛ كما أنها ليست هي هذه الفترة المشهودة التي تمثل عمر البشرية في هذه الحياة الدنيا.

إن الحياة - في التصور الإسلامي - تمتد طولاً في الزمان، وتمتد عرضاً في الآفاق، وتمتد عمقاً في العوالم، وتمتد تنوعاً في الحقيقة إنها تختلف عن تلك الفترة التي يراها ويظنها ويتذوقها من يغفلون الحياة الآخرة من حسابهم ولا يؤمنون بها.

إن الحياة - في التصور الإسلامي - تمتد في الزمان، فتشمل هذه الفترة المشهودة - فترة الحياة الدنيا - وفترة الحياة الأخرى التي لا يعلم مداها إلا الله؛ والتي تعد فترة الحياة الدنيا بالقياس إليها ساعة من نهار!

وتمتد في المكان، فتضيف إلى هذه الأرض التي يعيش عليها البشر؛ داراً أخرى: جنة عرضها كعرض السموات والأرض؛ وداراً تسع الكثرة من جميع الأجيال التي عمرت وجه الأرض ملايين الملايين من السنين!

وتمتد الحياة في حقيقتها؛ فتشمل هذا المستوى المعهود في الحياة الدنيا، إلى تلك المستويات الجديدة في الحياة الأخرى.. في الجنة وفي النار سواء.. وهي ألوان من الحياة ذات مذاقات ليست من مذاقات هذه الحياة الدنيا.. ولا تساوي الدنيا - بالقياس إليها - جناح بعوضة!



والشخصية الإنسانية - في التصور الإسلامي - يمتد وجودها في هذه الأبعاد من الزمان، وفي هذه الآفاق من المكان، وفي هذه الأعماق والمستويات من العوالم والحَيَوات..

ويتسع تصورها للوجود كله؛ وتصورها للوجود الإنساني؛ ويتعمق تذوقها للحياة؛ وتكبر اهتماماتها وتعلقاتها وقيمها، بقدر ذلك الامتداد في الأبعاد والآفاق والأعماق والمستويات.. بينما أولئك الذين لا يؤمنون بالآخرة، يتضاءل تصورهم للوجود الكوني، وتصورهم للوجود الإنساني؛ وهم يحشرون أنفسهم وتصوراتهم وقيمهم وصراعهم في ذلك الحجر الضيق الصغير الضئيل من هذه الحياة الدنيا!

ومن هذا الاختلاف في التصور يبدأ الاختلاف في القيم، ويبدأ الاختلاف في النظم.. ويتجلى كيف أن هذا الدين منهج حياة متكامل متناسق؛ وتبين قيمة الحياة الآخرة في بنائه: تصورًا واعتقادًا، وخلقًا وسلوكًا، وشريعة ونظامًا..

إن إنسانًا يعيش في هذا المدى المتطاوّل من الزمان والمكان والعوالم والمذاقات، غير إنسان يعيش في ذلك الحجر الضيق، ويصارع الآخرين

عليه، بلا انتظار لعوض ما يفوته، ولا لجزاء عما يفعله وما يفعل به.. إلا في هذه الأرض ومن هؤلاء الناس!

إن اتساع التصور وعمقه وتنوعه ينشئ سعة في النفس، وكبراً في الاهتمامات، ورفعة في المشاعر! ينشأ عنها هي بذاتها خلق وسلوك، غير خلق الذين يعيشون في الجحور وسلوكهم! فإذا أضيف إلى سعة التصور وعمقه وتنوعه، طبيعة هذا التصور، والاعتقاد في عدل الجزاء في الدار الآخرة، وفي ضخامة العوض عما يفوت ونفاسته؛ استعدت النفس للبذل في سبيل الحق والخير والصلاح، الذي تعلم أنه من أمر الله، وأنه مناط العوض والجزاء؛ وصلاح خلق الفرد واستقام سلوكه - متى استيقن من الآخرة كما هي في التصور الإسلامي - وصلاح الأوضاع والأنظمة، التي لا يتركها الأفراد تسوء وتنحرف، وهم يعلمون أن سكوتهم على فسادها لا يحرمهم صلاح الحياة الدنيا وحدها وخيراتها؛ ولكنه يحرمهم كذلك العوض في الآخرة، فيخسرون الدنيا والآخرة!..

والذين يفترون على عقيدة الحياة الآخرة، فيقولون: إنها تدعو الناس إلى السلبية في الحياة الدنيا؛ وإلى إهمال هذه الحياة، وتركها بلا جهد

لتحسينها وإصلاحها، وإلى تركها للطغاة والمفسدين تطلعاً إلى نعيم الآخرة.. الذين يفترون هذا الافتراء على عقيدة الآخرة يضيفون إلى الافتراء الجهالة! فهم يخلطون بين عقيدة الآخرة - كما هي في التصورات الكنسية المنحرفة - وعقيدة الآخرة كما هي في دين الله القويم.. فالدنيا - في التصور الإسلامي - هي مزرعة الآخرة، والجهد في الحياة الدنيا لإصلاح هذه الحياة، ورفع الشر والفساد عنها، ورد الاعتداء عن سلطان الله فيها، ودفع الطواغيت وتحقيق العدل والخير جميعاً.. كل أولئك هو زاد الآخرة، وهو الذي يفتح للمجاهدين أبواب الجنة، ويعوضهم عما فقدوا في صراع الباطل، وما أصابهم من الأذى..

فكيف يتفق لعقيدة هذه تصوراتها أن يدع أهلها الحياة الدنيا تركد وتأسن، أو تفسد وتختل، أو يشيع فيها الظلم والطغيان، أو تتخلف في الصلاح وال عمران.. وهم يرجون الآخرة، ويتنظرون فيها الجزاء من الله؟

إن الناس إذا كانوا في فترات من الزمان يعيشون سلبين، ويدعون الفساد والشر والظلم والطغيان والتخلف والجهالة تغمر حياتهم الدنيا - مع ادعائهم الإسلام - فإنما هم يصنعون ذلك كله أو بعضه لأن تصورهم للإسلام قد فسد وانحرف؛ ولأن يقينهم في الآخرة قد تزعزع وضعف! لا

لأنهم يدينون بحقيقة هذا الدين؛ ويستيقنون من لقاء الله في الآخرة، فما يستيقن أحد من لقاء الله في الآخرة، وهو يعي حقيقة هذا الدين، ثم يعيش في هذه الحياة سلبياً، أو متخلفاً، أو راضياً بالشر والفساد والطغيان...

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَنْقُوتُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٢٤) ..؟

هذه هي القيمة المطلقة الأخيرة في ميزان الله للحياة الدنيا وللدار الآخرة.. وما يمكن أن يكون وزن ساعة من نهار، على هذا الكوكب الصغير، إلا على هذا النحو، حين توازن بذلك الأبد الأبد في ذلك الملك العريض، وما يمكن أن تكون قيمة نشاط ساعة في هذه الدنيا إلا لعباً ولهواً حين تقاس إلى الجد الرزين في ذلك العالم الآخر العظيم..

هذا تقييم مطلق.. ولكنه في التصور الإسلامي لا ينشئ - كما قلنا - إهمالاً للحياة الدنيا، ولا سلبية فيها، ولا انعزالاً عنها.. وليس ما وقع من هذا الإهمال والسلبية والانعزال وبخاصة في بعض حركات (التصوف)، (الزهد) بنابع من التصور الإسلامي أصلاً، إنما هو عدوى من التصورات الكنسية الرهبانية؛ ومن التصورات الفارسية، ومن بعض التصورات الإشراقية

الإغريقية المعروفة بعد انتقالها للمجتمع الإسلامي!

والنماذج الكبيرة التي تمثل التصور الإسلامي في أكمل صورة، لم تكن سلبية ولا انعزالية.. فهذا جيل الصحابة كله؛ الذين قهروا الشيطان في نفوسهم، كما قهروه في الأنظمة الجاهلية السائدة من حولهم في الأرض؛ حيث كانت الحاكمة للعباد في الإمبراطوريات.. هذا الجيل الذي كان يدرك قيمة الحياة الدنيا كما هي في ميزان الله، هو الذي عمل للآخرة بتلك الآثار الإيجابية الضخمة في واقع الحياة، وهو الذي زاول الحياة بحيوية ضخمة، وطاقة فائضة، في كل جانب من جوانبها الحية الكثيرة»<sup>(١)</sup>.

لقد درسنا المستفادة من هذه الآيات:

- الدرس الأول: في هذه الآيات بيان حقيقة الدنيا والآخرة في ميزان الله ﷻ، وذلك أن الحياة الدنيا ما هي إلا متاع والآخرة هي دار القرار، وأن الدنيا مزرعة للآخرة، وأن أكثر الناس يلهون، ويلعبون في هذه الدنيا، ويركنون إليها، وقد أنستهم الدار الآخرة التي هي دار القرار وهي الحيوان، وفيها الحياة الدائمة السرمدية.

(١) «في ظلال القرآن» (١٦٠٨-١٠٧٢) باختصار.

- الدرس الثاني: لا يستوي من غفل عن الآخرة أو لم يؤمن بها؛ كمن آمن بها وأتاب إليها واستعد للقاء الله ﷻ فيها، إنهم لا يستوون في إدراكهم وتفكيرهم ولا في موازينهم ولا في أحكامهم واهتماماتهم.

قال الله ﷻ: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِتُّ إِذْ نَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [٩]

[الزمر: ٩].

- الدرس الثالث: إن اليقين باليوم الآخر والخوف من المقام بين يدي الله ﷻ يوم القيامة يثمر في قلب المؤمن وفي سلوكه ثمارًا يانعة في الدنيا والآخرة، ولا يجد طعم هذه الثمار من كان في غفلة عن الآخرة والدنيا أكبر همه، ومن هذه الثمار العظيمة:

أولاً: المبادرة في هذه الدنيا الفانية والعمر المحدود الذي يمر كلمح البصر إلى عمل الصالحات واجتناب المنهيات كما يريد ﷻ، والتزود من نوافل الطاعات، ما دام في الوقت مهلة قبل حلول الأجل وانقطاع العمل، والمبادرة بالتوبة من المعاصي عند ملابتها وبذل الجهد في كون الأعمال كلها والتُّرك خالصة



لا يقوى الإنسان على مواجهتها، إلا وفي نفسه رجاء الآخرة، وثوابها للمحسن، وعقابها للمسيء، وإلا ابتغاء وجه الله، والتطلع إلى رضاه في ذلك والعالم الآخر»<sup>(١)</sup>.

رابعاً: بذل الجهد في الدعوة إلى الله ﷻ والجهاد في سبيله سبحانه:

وهذه الثمرة وإن كانت تدخل في الثمرة الأولى؛ لأن الدعوة والجهاد من الأعمال الصالحة، ولكن يحسن أفرادها هنا كثرة مستقلة؛ لأن الدعوة والجهاد لهما أثر متعدّد في إنقاذ الناس بإذن الله تعالى من الظلمات إلى النور، فهما من أحب الأعمال إلى الله ﷻ ولكون الجهاد ذروة سنام الإسلام.

وكذلك في إبراز هذه الثمرة من القيام بالدعوة والجهاد عند من يوقن باليوم الآخر، رد على من يرى أن الزهد في الدنيا والإنابة إلى الآخرة يعنى اعتزال الناس وترك الدنيا لأهل الفساد يفسدون في الأرض، كما هي نظرة بعض المتصوفة والتمتزهدة.



إن الدنيا مزرعة الآخرة، ونظرة فاحصة في سيرة سلفنا الصالح من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومن تبعهم بإحسان، وهم أزهذ الناس في الدنيا، ومع ذلك فهم أكثر الناس بلاءً في جهاد الفساد والمفسدين رحمة بالناس، ورغبة فيما عند الله من الأجر والثواب.

وصدق الله العظيم: ﴿ لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ  
الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ (٤٤) إِنَّمَا  
يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَزَاتَبَتْ قُلُوبُهُمْ  
فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ [التوبة: ٤٤، ٤٥].

خامساً: اجتناب الظلم لعباد الله عَزَّ وَجَلَّ: والظلم معصية متعدية، ولا يمنع من الوقوع فيها من ظلم العباد في نفس أو عرض أو مال إلا اليقين بالرجوع إلى الله عَزَّ وَجَلَّ يوم التلاق يوم الفصل بين العباد، فإذا أيقن العبد بهذا حجه ذلك عن ظلم العباد، وتحلل منهم قبل موافاة الأجل.

سادسًا: حصول الأمن والاستقرار والألفة من الناس: حينما يهيمن على المجتمع اليقين باليوم الآخر والرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ فلا شحناء ولا حقد ولا عدوان؛ لأن مجتمعًا كهذا لا يفرط في شريعة الله العادلة الرحيمة، التي كلها مصالح للعباد، ولا يرضى بها بديلاً، وهذا كله سيضفي الأمن والأمان في مثل هذه المجتمعات، فلا أمان إلا في الإيمان، ولا سلام إلا في الإسلام، وهذا لا يعني ألا يكون في المجتمع المسلم مخالقات؛ فإن هذا لم تسلم منه العصور الزاهرة للمسلمين، ولكنها تبقى فردية وغير مجاهر بها، وإن وقع فيها من يقع فإنه يبادر بالتوبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

سابعًا: حفظ أوقات العمر وتقصير الأمل: إن طول الأمل وتضييع أوقات العمر القصير إنما ينشأ من الغفلة عن الآخرة والركون إلى الدنيا وزينتها الفانية.

ثامنًا: سلامة التفكير وانضباط الموازين وسمو الأخلاق: لا يستوي من يؤمن بالله ويوقن باليوم الآخر ومن لا يؤمن بذلك، أو هو في غفلة عنه إنهما لا يستويان أبدًا لا في الدنيا ولا في الآخرة.

قال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ  
الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ [الحشر: ٤٠].

إنهما لا يستويان في تفكيرهما، ولا في نظرتهما للأمر، ولا في  
حكمهما على الأشياء، ولا في وزنها للأشياء والأحداث  
والمواقف، فبقدر ما تسمو أخلاق الأول، ويسمو تفكيره  
وموازينه وتعلو، بقدر ما تقلُّ وترذل أخلاق الآخر لسفالة  
تصوره وأحكامه وموازينه.

قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾  
﴿٧﴾ [الروم: ٧].

إن الإيمان بالحياة الآخرة واليقين بما فيها نعمة عظيمة لا  
يدركها إلا من عاشها ورأى وسمع أحوال الغافلين عن الدار  
الآخرة ورأى حيرتهم واضطرابهم وفساد موازينهم.

تاسعًا: الفوز برضا الله عَزَّ وَجَلَّ وجنته، والنجاة من سخطه وعذابه، وهذه  
ثمرة الثمار وغاية الغايات، نسأله سبحانه أن يمن علينا برضاه  
وجنته، وما يقرب إليها من قول وعمل، وأن يعيدنا من سخطه  
وعذابه وما يقرب إليها من قول وعمل.

- الدرس الرابع: في هذه الآيات بيان الخسران الحقيقي، وأنه في خسران النفس بعدم يقينها بلقاء الله ﷻ المؤدي إلى عذاب الله وسخطه، وقد سبق بيان حقيقة الخسران وميزانه عند الله ﷻ في وقفة سابقة، وصدق الله العظيم في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يُعْبَادُونَ فَاتَّقُوا ﴿١٦﴾﴾ [الزمر: ١٥، ١٦].

وقوله سبحانه: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَيَّ مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١].



## • الوقفة التاسعة •

عند قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٥٠].

قال سيد قطب - رحمه الله تعالى - عند هذه الآية كلامًا نفيسًا، أنقله مع بعض الاختصار للفائدة.

قال - رحمه الله تعالى - : «إنه ﷺ يؤمر من ربه أن يقدم لهم نفسه بشرًا مجردًا من كل الأوهام، التي سادت الجاهليات عن طبيعة النبي والنبوة، وأن يقدم لهم كذلك هذه العقيدة بذاتها مجردة من كل إغراء.. لا ثراء.. ولا ادعاء.. إنها عقيدة يحملها رسول، لا يملك إلا هداية الله، تنير له الطريق! ولا يتبع إلا وحي الله يعلمه ما لم يكن يعلم..

إنه لا يقعد على خزائن الله، ليغدق منها على من يتبعه، ولا يملك مفاتيح الغيب، ليدل أتباعه على ما هو كائن؛ ولا هو ملك كما يطلبون أن ينزل الله ملكًا.. إنما هو بشر رسول؛ وإنما هي هذه العقيدة وحدها، في صورتها الناصعة الواضحة البسيطة..

إنها العقيدة هُتاف هذه الفطرة، وقوام هذه الحياة، ودليل الطريق إلى الآخرة، وإلى الله، فهي مستغنية بذاتها عن كل زخرف.. من أرادها لذاتها فهو بها حقيق، وهي عنده قيمة أكبر من كل قيمة، ومن أرادها سلعة في سوق المنافع، فهو لا يدرك طبيعتها، ولا يعرف قيمتها، وهي لا تمنحه زادًا، ولا غناء..

لذلك كله يؤمر رسول الله ﷺ أن يقدمها للناس هكذا، عاطلة من كل زخرف، لأنها غنية عن كل زخرف؛ وليعرف من يفيئون إلى ظلها أنهم لا يفيئون إلى خزائن مال، ولا إلى وجاهة دنيا، ولا إلى تميز على الناس بغير التقوى، إنما يفيئون إلى هداية الله وهي أكرم وأغنى.

﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾

ثم ليعلموا أنهم حينئذ إنما يفيئون إلى النور والبصيرة، ويخرجون من الظلام والعماء: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾

ثم.. إن اتباع الوحي وحده هداية وبصر، والمتروك بغير هذا الهادي متروك أعمى.. هذا ما تقرره هذه الآية في وضوح وصرامة.. فما شأن العقل البشري في هذا المجال؟

سؤال جوابه في التصور الإسلامي واضح بسيط.. إن هذا العقل الذي وهبه الله للإنسان قادر على تلقي ذلك الوحي، وإدراك مدلولاته.. وهذه وظيفته.. ثم هذه هي فرصته في النور والهداية؛ وفي الانضباط بهذا الضابط الصحيح الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

فأما حين يستقل هذا العقل البشري بنفسه بعيداً عن الوحي؛ فإنه يتعرض حينئذٍ للضلال والانحراف، وسوء الرؤية، وسوء التقدير، وسوء التدبير.

يتعرض لهذا كله بسبب طبيعة تركيبه ذاتها في رؤية الوجود أجزاء لا كلاً واحداً، تجربة بعد تجربة، وحادثة بعد حادثة، وصورة بعد صورة.. حيث يتعذر عليه أن يرى الوجود جملة، ليقيم على أساس هذه الرؤية الكاملة أحكاماً، ويضع على أساسها نظاماً ملحوظاً فيه الشمول والتوازن.. ومن ثم يظل -حين ينعزل عن منهج الله وهداه- يرتاد التجارب، ويغير الأحكام، ويبدل النظام، ويضطرب بين الفعل وردود الفعل، ويتخبط من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال.. وهو في ذلك كله يحطم كائنات بشرية عزيزة، وأجهزة إنسانية كريمة.. ولو اتبع الوحي لكفى البشر هذا الشر كله؛ وجعل التجارب التقلبات في (الأشياء) وفي (المادة) وفي (الأجهزة) وفي

(الآلات).. وهي مجاله الطبيعي الذي يمكن أن يستقل فيه، والخسارة النهاية مواد وأشياء، لا أنفس وأرواح!

والذين يزعمون للعقل البشري درجة من الأصالة من الصواب كدرجة الوحي، باعتبار أن كليهما -العقل والوحي- من صنع الله فلا بد أن يتطابقا.. هؤلاء إنما يستندون إلى تقديرات عن قيمة العقل قال بها بعض الفلاسفة من البشر، ولم يقل بها الله سبحانه!

والذين يرون أن هذا العقل يغني عن الوحي -حتى عند فرد واحد من البشر مهما بلغ عقله من الكبر- إنما يقولون في هذه القضية غير ما يقول الله.. فالله قد جعل حجته على الناس هي الوحي والرسالة، ولم يجعل هذه الحجة هي عقلهم البشري، ولا حتى فطرتهم التي فطرهم الله عليها من معرفة ربها الواحد والإيمان به، لأن الله سبحانه يعلم أن العقل وحده يضل، وأن الفطرة وحدها تنحرف، وأنه لا عاصم لعقل ولا لفطرة، إلا أن يكون الوحي هو الرائد الهادي، وهو النور والبصيرة.

والذين يزعمون أن الفلسفة تغني العقل عن الدين؛ أو أن العلم -وهو من منتجات العقل- يغني البشرية عن هدى الله؛ إنما يقولون قولاً لا سند له من الحقيقة ولا من الواقع كذلك.. فالواقع يشهد أن الحياة البشرية التي



قامت أنظمتها على المذاهب الفلسفية أو على العلم، هي أبأس حياة يشقى فيها (الإنسان)، مهما فتحت عليه أبواب كل شيء؛ ومهما تضاعف الإنتاج والإيراد؛ ومهما تيسرت أسباب الحياة ووسائل الراحة فيها على أوسع نطاق.. وليس مقابل هذا أن تقوم الحياة على الجهل والتلقائية! فالذين يضعون المسألة هكذا مغرضون! فإن الإسلام منهج حياة يكفل للعقل البشري الضمانات التي تقيه عيوب تركيبه الذاتي، وعيوب الضغوط التي تقع عليه من الأهواء والشهوات والنزعات، ثم يقيم له الأسس، ويضع له القواعد، التي تكفل استقامته في انطلاقه للعلم والمعرفة والتجربة؛ كما تكفل له استقامة الحياة الواقعية التي يعيش في ظلها - وفق شريعة الله - فلا يضغط عليه الواقع لينحرف بتصوراته ومناهجه كذلك!

والعقل بمصاحبة وحي الله وهداه بصير، وبترك وحي الله وهداه أعمى، واقتران الحديث عن تلقي الرسول من الوحي وحده، بالإشارة إلى العمى والبصر، بالسؤال التحضيضي على التفكير: ﴿إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾

اقتران الإشارات وتتابعها على هذا النحو في السياق، أمر ذو دلالة في التعبير القرآني.. فالتفكير مطلوب، والحض عليه منهج قرآني؛ ولكنه التفكير

المضبوط بضابط الوحي، الذي يمضي معه مبصرًا في النور؛ لا مطلق التفكير الذي يخبط في الظلام أعمى، بلا دليل ولا هدى ولا كتاب منير..

والعقل البشري حين يتحرك في إطار الوحي لا يتحرك في مجال ضيق، إنما يتحرك في مجال واسع جدًا.. يتحرك في مجال هو هذا الوجود كله، الذي يحتوي عالم الشهادة وعالم الغيب أيضًا؛ كما يحتوي أغوار النفس ومجال الأحداث، ومجالات الحياة جميعًا.. فالوحي لا يكف العقل عن شيء إلا عن انحراف المنهج، وسوء الرؤية والتواء الأهواء والشهوات! وبعد ذلك يدفعه إلى الحركة والنشاط دفعًا، فهذه الأداة العظيمة التي وهبها الله للإنسان.. العقل.. إنما وهبها له لتعمل وتنشط في حراسة الوحي والهدى الرباني.. فلا تضل إذن ولا تطغى»<sup>(١)</sup>.

﴿الدروس المستفادة من هذه الآية:

من خلال ما كتبه سيد قطب - رحمه الله تعالى - نستطيع أن تستنبط من

الآية الدروس الآتية:

- الدرس الأول: بيان حقيقة الرسول ﷺ وأنه عبد ورسول: عبد لله

تعالى يحمل كل صفات العبودية لله ﷻ والتي تنفي عنه ﷻ أي صفة ترفعه

(١) «في ظلال القرآن» (ص ١٠٩٧).

عن هذه العبودية كالغلو فيه ورفع له لمقام الألوهية بأن يدعى من دون الله، أو أنه يعلم الغيب استقلالاً، أو أنه يملك خزائن الله ويتصرف فيها، ومع كونه عبداً لله ﷻ فقد اصطفاه ربه سبحانه بأنه جعله رسولاً للعالمين؛ فله صفات الرسول وخصائصه وحقوقه التي تخصه عن سائر البشر.

- **الدرس الثاني:** في الآية أيضاً بيان وظيفته ﷺ ومهمته التي كلفه الله ﷻ بها، وأنها إبلاغ الناس بالتوحيد، وإنقاذهم من ظلمات الشرك، وأنه مبلغ عن الله تعالى بما يوحي الله سبحانه، وأنه في ذلك متبع ومنقاد لربه سبحانه، وأنه ﷺ بشر، وليس ملك من الملائكة، وفي أمره ﷻ لنبية ﷺ أن يقول للناس: ﴿إِنِ اتَّبِعُوا إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكُمْ﴾، أمر بالاستمسك بالوحي، وإذا كان الرسول ﷺ مأموراً بهذا وهو المعصوم، فإن في ذلك أمراً وتأكيذاً لأتمته ﷺ باتباع ما يبلغ به عن ربه، والتسليم له، وعدم التقدم بين يدي الله ورسوله بشيء لم يأذن به الله تعالى ولم يشرعه.

- **الدرس الثالث:** في قوله تعالى لنبية ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ بيان بشريته ﷺ وعبوديته لربه وأنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله وليس عنده شيء من تدبير الله تعالى في خزائنه؛ فكيف يدعي له أهل الشرك والغلو ما لم يدعه ﷺ لنفسه، بل نفاه وأنكره؟ كما أن في هذه الجملة من الآية تنبيهاً لأتباع الرسل والمهتمين بأمر الدعوة

إلى الله ﷻ بأن يكون مقصدهم في الاتباع والبلاغ وجه الله ﷻ وقطع الطمع في مكاسب مادية من الدعوة والتبليغ، وليس في هذا الدين مطمع دنيوي، وليس عند المتبوعين خزائن الدنيا ليغدقوا بها على الأتباع.

بل يجب أن تتوجه أنظار مقاصد الدعاة والأتباع والمتبوعين إلى الآخرة، ويتنظروا الأخذ هناك من الله ﷻ الذي بيده خزائن السموات والأرض، وألا ينظروا إلى الدنيا ومكاسبها، بل يوطنوا أنفسهم على أن يعطوا ويبدلوا في هذه الدنيا من جهودهم وأعمالهم وتضحياتهم في سبيل الله تعالى، ولا يتنظروا الأخذ مقابل ذلك شيئاً في هذه الدنيا، بل يعلقوا همهم بالآخرة، وأخذ الأعطيات العظيمة هنالك، وأعظمها وأكثرها رضوان من الله ﷻ ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

- **الدرس الرابع:** في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾؛ فائدة مهمة ألا وهي أن البشر ينقسمون إلى فريقين لا يستويان ولا ثالث لهما: فريق بصير مبصر، وهم اتباع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الموحدون لربهم، وفريق أعمى، وهم أعداء الرسل من المشركين والكفار والمنافقين، هذا حكم الله ﷻ فيهم، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُكُمْ أَوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩].

فكل موحد أخلص عبادته لله ﷻ فهو المبصر العاقل، وكل كافر مشرك أعرض عن عبادة ربه واستكبر عنها، فهو الأعمى سفيه العقل واللب، مهما أوتي من ذكاء وفطنة وبرع في علوم الدنيا ومخترعاتها، فما دام أنه متكبر على عبادة ربه كافر بدين الإسلام، فهو عند الله ﷻ أعمى وأضل سبيلاً.

قال سبحانه: ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٢]، ولذلك يخطئ من يقول عن بعض علماء الدنيا وما أنجزوه من اختراعات، أو عن بعض المستشرقين من الكفار الذين لم يهتدوا بنور الإسلام، أنهم عقلاء وعلماء ومنصفون، كلا فليسوا بعقلاء ولا علماء، لأن العاقل يسعى لمصلحة نفسه وما يريحها في الدنيا والآخرة، فإذا أثر الكافر الدنيا على الآخرة وما يئول من ذلك إلى عذاب الله ﷻ؛ فإن هذا من عداد العميان، وليس من عداد العقلاء.

وأعظم خطأ وضللاً ممن يصف هؤلاء العمى بالعقل والبصيرة أولئك الذين يستمدون المناهج والنظم والموازن والقيم من الكفرة الذين وصفهم الله ﷻ بأنهم عمي ولا يعقلون!

وما أحسن ما سطرته يد سيد قطب -رحمه الله تعالى- عند آية الرعد الأنفة الذكر، حيث قال: «وهكذا يتقرر أن الذين لا يستجيون لهذا الحق هم

-بشهادة الله سبحانه- عمي، وأنهم لا يتفكرون ولا يعقلون، وأن الذين يستجيبون له هم أولو الألباب، وهؤلاء مطمئن قلوبهم بذكر الله، وتتصل بما هي عارفة له ومصطلحة عليه بفطرتها العميقة، فتسكن وتستريح.

وإن الإنسان ليجد مصداق قول الله هذا في كل من يلقاه من الناس معرضاً عن هذا الحق الذي تضمنه دين الله، والذي جاء به في صورته الكاملة محمد رسول الله، فإن هذه إلا جبالات مئوفة مطموسة، وإن هي إلا كينونات معطلة في أهم جوانبها، بحيث لا تتلقى إيقاعات هذا الوجود كله من حولها، وهو يسبح بحمد ربه، وينطلق بوحدانيته وقدرته وتدييره وتقديره.

وإذا كان الذين يؤمنون بهذا الحق عمياً -بشهادة الله سبحانه- فإنه لا ينبغي لمسلم يزعم أنه يؤمن برسول الله، ويؤمن بأن هذا القرآن وحي من عند الله، لا ينبغي لمسلم يزعم هذا الزعم أن يتلقى في شأن من شؤون الحياة عن أعمى! وبخاصة إذا كان هذا الشأن متعلقاً بالنظام الذي يحكم حياة الإنسان؛ أو بالقيم والموازن التي تقوم عليها حياته، أو بالعادات والسلوك والتقاليد والآداب التي تسود مجتمعه..

وهذا هو موقفنا من نتاج الفكر -غير الإسلامي- بجملته -فيما عدا العلوم المادية البحتة وتطبيقاتها العملية، مما قصده رسول الله ﷺ بقوله:

«أنتم أعلم بشئون دنياكم»<sup>(١)</sup>؛ فإنه ما ينبغي قط لمسلم يعرف هدى الله، ويعرف هذا الحق الذي جاء به رسول الله، أن يقعد مقعد التلميذ الذي يتلقى من أيِّ إنسان لم يستجب لهذا الهدى ولم يعلم أنه الحق، فهو أعمى بشهادة الله سبحانه ولن يرد شهادة الله مسلم، ثم يزعم بعد ذلك أنه مسلم!

إنه لا بد لنا أن نأخذ هذا الدين مأخذ الجد: وأن نأخذ تقاريره هذه مأخذ الجزم، وكل تميع في مثل هذه القضية هو تميع في العقيدة ذاتها، إن لم يكن هو رد شهادة الله سبحانه وهو الكفر البواح في هذه الصورة!

وأعجب العجب أن ناسًا من الناس اليوم يزعمون أنهم مسلمون: ثم يأخذون في منهج الحياة البشرية عن فلان وفلان من الذين يقول عنهم الله سبحانه: أنهم عمي، ثم يظنون بزعمون بعد ذلك أنهم مسلمون!...»<sup>(٢)</sup>.

- **الدرس الخامس:** في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، أمر منه سبحانه بإعمال العقل فيما خلق له من التدبر وفهم كلام الله عَزَّوَجَلَّ والنظر في الآفاق والأنفس، التي تدل على وحدانية الله عَزَّوَجَلَّ وتفرد بالخلق والرِّزق والتدبر، وهذا كله يستلزم إفراده وحده سبحانه بالعبادة والألوهية والحاكمية.

(١) مسلم (٢٣٦٣).

(٢) «في ظلال القرآن» (٤/٢٠٧٤).

وللعقل حدود لا يستطيع تجاوزها في التفكير، وذلك فيما زوى الله  
 ﷻ عنه العلم بها من كفيات صفات الله ﷻ وأفعاله، وما زواه عنه من  
 علم الغيوب الماضية والمستقبلية، وفي نفس الوقت فتح له مساحة كبيرة أمره  
 بأن يتفكر فيها من ذلك: التفكر في آيات الله ﷻ المتلوة وتدبرها، والتفكر  
 في آيات الله المنظورة في الآفاق والأنفس، والتفكر في آلاء الله ﷻ ونعمه  
 المتواصلة التي لا تحصى، والتفكر في سير الأنبياء وقصصهم مع أقوامهم  
 وعاقبة الفريقين، والتفكير في النفس ومحاسبتها فيما قدمت وأخرت،  
 والتفكر في حقيقة الدنيا والآخرة والأمثال التي ضربت لهما، والتفكر في  
 آيات الله ﷻ الخارقة المذكورة في القرآن (١).



(١) يرجع إلى كتاب «أفلا تتفكرون» للمؤلف، لمن أراد التوسع في مجالات التفكير النافعة.



## • الوقفة العاشرة •

عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام: ٥٤].

أورد الإمام مسلم في «صحيحه» أثرًا في سبب نزول هذه الآية، فقد روى بسنده إلى سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجتءون علينا! قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل، وبلال ورجلان نسيت اسميهما، فوقع في نفس رسول الله ما شاء أن يقع فحدث نفسه، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.»

وقد جاءت روايات أخرى في سبب النزول، لا تخرج عن السياق الذي رواه الإمام مسلم مع زيادات قليلة<sup>(١)</sup>.

(١) مسلم (٤٤١٣).

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية: «أي: لا تطرد عنك وعن مجالستك أهل العبادة والإخلاص - رغبة في مجالسة غيرهم - من الملازمين لدعاء ربهم دعاء العبادة بالذكر والصلاة ونحوها، ودعاء المسألة في أول النهار وآخره، وهم قاصدون بذلك وجه الله، ليس لهم من الأغراض سوى ذلك الغرض الجليل، فهؤلاء ليسوا مستحقين للطرد والإعراض، بل مستحقون لموالاتهم ومحبتهم وإدنائهم وتقريبهم لأنهم الصفة من الخلق وإن كانوا فقراء، والأعزاء في الحقيقة وإن كانوا عند الناس أذلاء.

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ (٥٢) \* أي: كل له حسابه، وله عمله الحسن وعمله القبيح. ﴿فَطَرْدُهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، وقد امثل ﷺ هذا الأمر أشد امثال، فكان إذا جالس الفقراء من المؤمنين صبر نفسه معهم، وأحسن معاملتهم، وألآن لهم جانبه، وحسن خلقه وقربهم منه، بل كانوا هم أكثر أهل مجلسه ﷺ (١).

(١) «تفسير السعدي» (ص ٢٥٧).

ويذكر الشيخ الشعراوي لفظة لطيفة عن نوع العتاب الموجه للرسول ﷺ، فيقول: «وقد يظن بعض الناس أن عتاب الله لنبيه لتقصير، ونرد على هؤلاء: ليفهم الإنسان منكم هذا اللون من العتاب على وجهه الحقيقي، فهناك فرق بين عتاب لمصلحة المعتاب، وعتاب للومه وتوبيخه؛ لأن المعتاب خالف وعصى».

ونضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى -: أنت في يومك العادي إن نظرت إلى ابنك فوجدته يلعب، ولا يذهب إلى المدرسة، ولا يستذكر دروسه، فأنت تعاتبه وتؤنبه، لأنه خالف المطلوب منه، ولكنك إن وجدت ابنك يضع كل طاقته ويصرف ويقضي أوقات راحته في المذاكرة، فأنت تطلب منه ألا يكلف نفسه كل هذا العناء، وتخطف منه الكتاب وتقول له: اذهب لتستريح، أنت في هذه الحالة تلومه لمصلحته هو، فكأن اللوم والعتاب له لا عليه.

إذن قد حُلَّ هذا الإشكال الذي يقولون فيه: إن الله كثيراً ما عاتب رسوله، ونوضح أن الحق قد عاتب الرسول له لا عليه؛ لأن الرسول وجد طريق الإيمان برسائله يسير سيرا سهلاً بين الضعفاء، ولكنه شغل

نفسه وأجهداها، رجاء أن يتذوق المستكبرون المتجبرون حلاوة الإيمان، وجاء في ذلك قول الحق: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّيكَ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴿٤﴾ أَمَأَمَنَ اسْتَعْنَى ﴿٥﴾ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّيكَ ﴿٧﴾﴾ [عبس: ١-٧]. إذن فالعتاب هنا لصالح من؟ إنه عتاب لصالح رسول الله ﷺ (١).

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية: «لا تطرد هؤلاء الذين أخلصوا نفوسهم لله، فاتجهوا لعبادته ودعائه في الصباح والمساء يريدون وجهه... سبحانه! ولا يبتغون إلا وجهه ورضاه.. وهي صورة للتجرد، والحب، والأدب.. فإن الواحد منهم لا يتوجه إلا إلى الله وحده بالعبادة والدعاء.. وهو لا يبغى وجه الله، إلا إذا تجرد، وهو لا يبغى وجه الله وحده حتى يكون قلبه قد أحب، وهو لا يفرد الله سبحانه بالدعاء ابتغاء وجهه إلا ويكون قد تعلم الأدب، وصار ربانياً يعيش لله وبالله..»

ولقد تقول أولئك الكبراء على هؤلاء الضعاف، الذين يخصهم رسول الله ﷺ بمجلسه وبعنايته؛ وطعنوا فيهم وعابوا ما هم فيه من فقر وضعف وما يسببه وجودهم في مجلس رسول الله ﷺ من نفور السادة وعدم إقبالهم على

(١) «تفسير الشعراوي» (ص ٢٥٠).

الإسلام.. ففضى الله سبحانه في هذه الدعوى بقضائه الفصل؛ ورد دعواهم من أساسها ودحضها دحضًا.

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٤) .. فإن حسابهم على أنفسهم، وحسابك على نفسك، وكونهم فقراء مقدر عليهم في الرزق هذا حسابهم عند الله، لا شأن لك به، كذلك غناك وفقرك هو حسابك عند الله لا شأن لهم به، ولا دخل لهذه القيم في قضية الإيمان والمنزلة فيه، فإن أنت طردتهم من مجلسك بحساب الفقر والغنى كنت لا تزن بميزان الله، ولا تقوم بقيمه.. فكنت من الظالمين.. وحاشى لرسول الله ﷺ أن يكون من الظالمين!

وبقي فقراء الجيوب أغنياء القلوب في مجلس رسول الله ﷺ، وبقي ضعاف الجاه الأقوياء بالله في مكانهم الذي يؤهلهم له إيمانهم؛ والذي يستحقونه بدعائهم لله لا يتغنون إلا وجهه، واستقرت موازين الإسلام وقيمه على المنهج الذي قرره الله..

عندئذ نفر المستكبرون المستنكفون يقولون: كيف يمكن أن يختص الله من بيننا بالخير هؤلاء الضعاف الفقراء؟ إنه لو كان ما جاء به محمد خيرًا ما سبقونا إليه؛ ولهدانا الله به قبل أن يهديهم! فليس من المعقول أن يكون

هؤلاء الضعاف الفقراء هم الذين يمنُّ الله عليهم من بيننا، ويتركنا ونحن أصحاب المقام والجاه!

وكانت هذه هي الفتنة التي قدرها الله لهؤلاء المتعاليين بالمال والنسب؛ والذين لم يدركوا طبيعة هذا الدين؛ وطبيعة الدنيا الجديدة التي يطلع بها على البشرية، مشرقة الآفاق، مَّصْعِدَةٌ بهذه البشرية إلى تلك القمة السامقة؛ التي كانت يوم ذاك غريبة على العرب وعلى الدنيا كلها، وما تزال غريبة فيما يسمونه الديموقراطيات على اختلاف أشكالها وأسمائها...

نحن في حاجة إلى وقفة طويلة أمام هذه النصوص.. والبشرية بجملتها في حاجة إلى هذه الوقفة كذلك.. إن هذه النصوص لا تمثل مجرد مبادئ وقيم ونظريات في (حقوق الإنسان!).. إنها أكبر من ذلك بكثير.. إنها تمثل شيئاً هائلاً تحقق في حياة البشرية فعلاً.. تمثل نقلة واسعة نقلها هذا الدين للبشرية بجملتها.. تمثل خطأً وضيقاً على الأفق بلغته هذه البشرية ذات يوم في حياتها الحقيقية..

ومهما يكن من تراجع البشرية عن هذا الخط الوضيء الذي صعدت إليه في خَطْوٍ ثابت على حُدَّاء هذا الدين؛ فإن هذا لا يقلل من عظمة تلك النَّقْلَةِ؛ ومن ضخامة هذا الشيء الذي تحقق يوماً؛ ومن أهمية هذا الخط

الذي ارتسم بالفعل في حياة البشر الواقعية.. إن قيمة ارتسام هذا الخط وبلوغه ذات يوم، أن تحاول البشرية مرة ومرة ومرة الارتفاع إليه؛ ما دام أنها قد بلغت؛ فهو في طوقها إذن وفي وسعها.. والخط هناك على الأفق، والبشرية هي البشرية؛ وهذا الدين هو هذا الدين.. فلا يبقى إلا العزم والثقة واليقين..

وقيمة هذه النصوص أنها ترسم للبشرية اليوم ذلك الخط الصاعد بكل نُقْطِهِ ومراحله.. من سفح الجاهلية الذي التقط الإسلام منه العرب، إلى القمة السامقة التي بلغ بهم إليها، وأطلعتهم في الأرض يأخذون بيد البشرية من ذلك السفح نفسه إلى تلك القمة التي بلغوها!...

هنا تبدَّى الجاهلية بوجهها الكالح! وقيمها الهزيلة، واعتباراتها الصغيرة.. عصبية النسب والجنس واعتبارات المال والطبقة.. وما إلى ذلك من اعتبارات، هؤلاء بعضهم ليسوا من العرب! وبعضهم ليسوا من طبقة الأشراف! وبعضهم ليسوا من ذوي الثراء!.. ذات القيم التي تروج في كل جاهلية! والتي لا ترتفع عليها جاهليات الأرض اليوم في نعراتها القومية والجنسية والطبقية!

هذا هو سفح الجاهلية.. وعلى القمة السامقة الإسلام! الذي لا يقيم وزناً لهذه القيم الهزيلة ولهذه الاعتبارات الصغيرة، ولهذه النعرات

السخيفة!.. الإسلام الذي نزل من السماء ولم ينبت من الأرض، فالأرض كانت هي هذا السفح.. هذا السفح الذي لا يمكن أن ينبت هذه النبتة الغربية الجديدة الكريمة.. الإسلام الذي يأتمر به -أول من يأتمر- محمد ﷺ، محمد رسول الله الذي يأتيه الوحي من السماء، والذي هو من قبل في الذؤابة من بني هاشم في الذروة من قریش...

أي شيء هائل هذا الذي تحقق في حياة البشرية؟ أية نقلة واسعة هي التي قد تمت في واقع الناس؟ أيُّ تبدُّل في القيم والأوضاع، وفي المشاعر والتصورات، في آن؟ والأرض هي الأرض والبيئة هي البيئة، والناس هم الناس، والاقتصاد هو الاقتصاد.. وكل شيء على ما كان، إلا أن وحيًا نزل من السماء، على رجل من البشر، فيه من الله سلطان.. يخاطب فطرة البشر من وراء الركام، ويحدو للهابطين هنالك عند السفح، فيستجيشهم الحداء -على طول الطريق- إلى القمة السامقة.. فوق.. فوق.. هنالك عند الإسلام! ثم تراجع البشرية عن القمة السامقة، عن القمة وتنحدر مرة أخرى إلى السفح، وتقوم -مرة أخرى- في نيويورك، وواشنطن، وشيكاغو.. وفي جوهانسبرج.. وفي غيرها من أرض (الحضارة!) تلك العصبية التتنة، عصبية الجنس واللون، وتقوم هنا وهناك عصبية (وطنية) و(قومية) و(طبقية) لا تقل نتنًا عن تلك العصبية..



ويبقى الإسلام هناك على القمة.. حيث ارتسم الخط الوضيء الذي بلغته للبشرية.. يبقى الإسلام هناك رحمة من الله بالبشرية لعلها أن ترفع أقدامها من الوحل، وترفع عينيها عن الحمأة.. وتتطلع مرة أخرى إلى الخط الوضيء؛ وتسمع مرة أخرى حذاء هذا الدين؛ وتخرج مرة أخرى إلى القمة السامقة على حذاء الإسلام..

ونحن لا نملك - في حدود منهجنا في هذه الظلال - أن نستطرد إلى أبعد من هذه الإشارة.. لا نملك أن نقف هنا تلك (الوقفة الطويلة) التي ندعو البشرية كلها أن تقفها أمام هذه النصوص ودلالاتها، لتحاول أن تستشرف المدى الهائل الذي يرتسم من خلالها في تاريخ البشرية؛ وهي تصعد على حذاء الإسلام من سفح الجاهلية الهابط، إلى تلك القمة السامقة البعيدة.. ثم تهبط مرة أخرى على عواء (الحضارة المادية) الخاوية من الروح والعقيدة!.. ولتحاول كذلك أن تدرك إلى أين يملك الإسلام اليوم أن يقود خطاها مرة أخرى؛ بعد أن فشلت جميع التجارب، وجميع المذاهب، وجميع الأوضاع، وجميع الأنظمة، وجميع الأفكار، وجميع التصورات، التي ابتدعها البشر لأنفسهم بعيداً عن منهج الله وهداه.. فشلت في أن ترتفع بالبشرية مرة أخرى إلى تلك القمة، وأن تضمن للإنسان حقوقه الكريمة في

هذه الصورة الوضيئة؛ وأن تفيض على القلوب الطمأنينة»<sup>(١)</sup>.

﴿الدروس المستفادة من هذه الآية:﴾

- **الدرس الأول:** ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب في تفسيره لهذه الآية: أن الرجل الصالح قد يصل إلى درجة الظالمين عندما يطرد الصالحين من مجلسه أو يؤذيهم<sup>(٢)</sup>.

ولهذا ينبغي للعالم وطالب العلم أن يرفق بالناس شبابًا وشيئًا عندما يسألون عن دينهم أو يستشيرون في دنياهم، والحذر المضني من العلماء وطلبة العلم أن يغلظوا عليهم أو ينهروهم أو يطردوهم، وقد يكون صاحب السؤال من أولياء الله الصالحين؛ فيكون طردهم أو نههم من الظلم والعدوان، قال الله ﷻ: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠].

- **الدرس الثاني:** فضل الإكثار من ذكر الله تعالى وابتغاء وجهه، ولاسيما طرفي النهار، وأن ذلك من علامات الإيمان، ومن علامات محبة العبد لربه سبحانه.

---

(١) «في ظلال القرآن» (٢/ ١١٠١-١١٠٤)، باختصار.

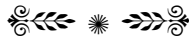
(٢) «تفسير آيات من القرآن الكريم»، للشيخ محمد بن عبد الوهاب (١/ ٥٧) مسائل في تفسير سورة الأنعام.

- **الدرس الثالث: الأولى بالدعوة والتعليم** إنما هو المقبل الباحث عن الحق المنقاد له دون النظر إلى جنسه أو لونه أو غناه وفقره، وأما المعرض عن الحق الكاره له؛ فلا ينبغي تضييع الوقت معه بعد قيام الحجة عليه بالبلاغ المبين، مهما كانت منزلته في قومه وغناه وجاهه طمعاً في إيمانه، وإيمان من وراءه من المتبوعين، وسنة الله ﷺ في أتباع الأنبياء والمصلحين أنهم من الضعفاء والفقراء والمتواضعين، وقليل منهم الوجهاء والأغنياء والمتكبرون، قال الله ﷻ عن قوم نوح ﷺ: ﴿قَالُوا أَنْزِلْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

- **الدرس الرابع: فضل الجلوس مع الصالحين وصبر النفس معهم**، لا سيما الضعفاء منهم، لما في ذلك من تزكية للقلوب، وإخلاصها لله تعالى وبما في مجالسهم من ذكر لله ﷻ ودعائه، الأمر الذي ينعكس أثره على من يحضر هذه المجالس في ظاهره وباطنه، وعلى العكس من ذلك ما يكون من الآثار السيئة الناجمة عن حضور مجالس الشر والسوء وقول الباطل، المتكبرين على الحق الغافلة قلوبهم عن ذكره سبحانه، وما فيها من القسوة وفساد الحال، قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

- الدرس الخامس: في هذه الآية يرسم الله ﷻ لنا الميزان الحق للتكريم والإهانة والمحبة، وأنه يقوم على أساس التقوى والإيمان؛ فالتقي المؤمن هو المحبوب الكريم المرفوع عند الله ﷻ وعند المؤمنين دون النظر إلى جنسه أو لونه أو جاهه أو غناه وفقره، والمُهان المخفوض المبعوض هو المعرض عن ربه المتكبر على شرعه، مهما كان غناه وجنسه وجاهه في الدنيا، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَعَكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وبذلك تسقط موازين الجاهلية في التكريم والإهانة، التي تقوم على أعراض هذه الدنيا وقيمها الهابطة فلا اعتبار للوطنية ولا القومية ولا الإنسانية في ميزان الله ﷻ إذا لم يكن أساسها الإيمان والتقوى.

فما أنقاه وأزكاه من ميزان، وما أحس وأقبح موازين الجاهلية المملطخة بالطين والتراب! والحمد لله الذي هدانا لميزانه الذي هو أقوم.



## • الوقفة الحادية عشرة •

عند قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَفِصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ

﴿٥٥﴾ [الأنعام: ٥٥].

وأبدأ هنا بذكر بعض أقوال المفسرين والمتدبرين لهذه الآية:

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: «يقول تعالى: وكما بينا ما تقدم بيانه من الحجج والدلائل على طريق الهداية والرشاد، وذم المجادلة والعناد ﴿وَكَذَلِكَ نَفِصَلُ الْآيَاتِ﴾. أي: التي يحتاج المخاطبون إلى بيانها. ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: ولتظهر طريق المجرمين المخالفين للرسول، وقرئ ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾. أي: ولتستبين يا محمد -أو: يا مخاطب- سبيل المجرمين»<sup>(١)</sup>.

ويفصل ابن القيم رحمه الله تعالى الكلام في سبيل المجرمين وسبيل المؤمنين، وانقسام الناس في استبانة السبيلين، فيقول: «قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَفِصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾، وقال ﴿وَمَنْ يُشَاقِقْ

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٦٣-٣٦٤).

الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ أَوْ ﴿١٠﴾  
الآية، والله تعالى قد بين في كتابه سبيل المؤمنين مفصلة وسبيل المجرمين  
مفصلة، وعاقبة هؤلاء وخذلانه لهؤلاء وتوفيقه لهؤلاء، والأسباب التي وُقِّقَ  
بها هؤلاء والأسباب التي خذل بها هؤلاء وجلَّى سبحانه الأمرين في كتابه،  
وكشفهما، وأوضحهما، وبينهما غاية البيان، حتى شاهدتهما البصائر  
كمشاهدة الأبصار للضياء والظلام.

فالعالمون بالله وكتابه ودينه عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية،  
وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية، فاستبان لهم السبيلان، كما يستبين  
للسالك الطريق الموصل إلى مقصوده والطريق الموصل إلى الهلكة؛  
فهؤلاء أعلم الخلق وأنفعهم للناس وأنصحهم لهم، وهم الأدلاء الهداة برز  
الصحابة على جميع من أتى بعدهم إلى يوم القيامة؛ فإنهم نشأوا في سبيل  
الضلال والكفر والشرك والسبل الموصلة إلى الهلاك وعرفوها مفصلة، ثم  
جاءهم الرسول فأخرجهم من تلك الظلمات إلى سبيل الهدى وصرط الله  
المستقيم، فخرجوا من الظلمة الشديدة إلى النور التام، ومن الشرك إلى  
التوحيد، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغي إلى الرشاد، ومن الظلم إلى  
العدل، ومن الحيرة والعمى إلى الهدى والبصائر؛ فعرفوا مقدار ما نالوه  
وظفروا به، ومقدار ما كانوا فيه، فإن الضد يظهر حسنه الضد، وإنما تتبين

الأشياء بأضدادها، فازدادوا رغبة ومحبة فيما انتقلوا إليه، ونَفَرَةً وبغضًا لما انتقلوا عنه، وكانوا أحب الناس في التوحيد والإيمان والإسلام، وأبغض الناس في ضده، عالمين بالسبيل على التفصيل.

وأما مَنْ جاء بعد الصحابة؛ فمنهم من نشأ في الإسلام غير عالم تفصيل ضده، فالتبس عليه بعض تفاصيل سبيل المؤمنين بسبيل المجرمين، فإن اللبس إنما يقع إذا ضعف العلم بالسبيلين أو أحدهما.

كما قال عمر بن الخطاب: «إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية»<sup>(١)</sup>.

وهذا من كمال علم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فإنه، إذا لم يعرف الجاهلية وحكمها، وهو كل ما خالف ما جاء به الرسول فإنه من الجاهلية؛ فإنها منسوبة إلى الجهل، وكل ما خالف الرسول فهو من الجهل، فمن لم يعرف سبيل المجرمين، ولم تستبين له أو شك أن يظن في بعض سبيلهم أنها من سبيل المؤمنين، كما وقع في هذه الأمة من أمور كثيرة في باب الاعتقاد والعلم والعمل، هي من سبيل المجرمين والكفار وأعداء الرسل، أدخلها من لم يعرف أنها من سبيل المؤمنين، ودعا إليها وكفّر مَنْ خالفها،

(١) «مدارج السالكين» (١/٣٤٣)، وانظر: «فصل الخطاب في سيرة ابن الخطاب» (ص ١٨).

واستحل منه ما حرمه الله ورسوله، كما وقع لأكثر أهل البدع من الجهمية والقدرية والخوارج والروافض وأشباههم، ممن ابتدع بدعة، ودعا إليها، وكفر من خالفها.

والناس في هذا الموضوع أربع فرق:

الأولى: من استبان له سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين على التفصيل علمًا وعملاً، وهؤلاء أعلم الخلق.

الفرقة الثانية: من عميت عنه السبيلان من أشباه الأنعام، وهؤلاء بسبيل المجرمين أحضر، ولها أسلك.

الفرقة الثالثة: من صرف عنايته إلى معرفة سبيل المؤمنين دون ضدها، فهو يعرف ضدها من حيث الجملة والمخالفة، وأن كل ما خالف سبيل المؤمنين فهو باطل، وإن لم يتصوره على التفصيل، بل إذا سمع شيئاً مما خالف سبيل المؤمنين صرف سمعه عنه، ولم يشغل نفسه بفهمه ومعرفة وجه بطلانه.

الفرقة الرابعة: فرقة عرفت سبيل الشر والبدع والكفر مفصلة وسبيل المؤمنين مجملة، وهذا حال كثير ممن اعتنى بمقالات الأمم ومقالات أهل البدع؛ فعرّفها على التفصيل، ولم يعرف ما جاء به الرسول كذلك، بل عرفه



معرفة مجملة، وإن تفصلت له في بعض الأشياء، ومن تأمل كتبهم رأى ذلك عياناً، وكذلك مَنْ كان عارفاً بطرق الشر والظلم والفساد على التفصيل سالكاً لها إذا تاب ورجع عنها إلى سبيل الأبرار يكون علمه بها مجملاً غير عارف بها على التفصيل معرفة مَنْ أفنى عمره في تصرفها وسلوكها.

والمقصود: أن الله سبحانه يحب أن تُعرف سبيل أعدائه لتُجتنب وتُبغض، كما يحب أن تُعرف سبيل أوليائه لتُحب وتُسلك، وفي هذه المعرفة من الفوائد والأسرار ما لا يعلمه إلا الله من معرفة عموم ربوبيته سبحانه، وحكمته وكمال أسمائه وصفاته، وتعلقها بمتعلقاتها، واقتضائها لآثارها وموجباتها، وذلك من أعظم الدلالة على ربوبيته وملكه وإلهيته، وحبه وبغضه، وثوابه وعقابه، والله أعلم»<sup>(١)</sup>.

ويعلق سيد قطب رحمه الله تعالى على الآية، فيقول: «إن هذا المنهج لا يُعنى ببيان الحق وإظهاره حتى تستبين سبيل المؤمنين الصالحين فحسب، إنما يعني كذلك ببيان الباطل وكشفه حتى تستبين سبيل الضالين المجرمين أيضاً.. إن استبانة سبيل المجرمين ضرورة لاستبانة سبيل المؤمنين، وذلك كالخط الفاصل يرسم عند مفرق الطريق!

(١) «الفوائد» (ص ١٠٩-١١٢)، باختصار.

إن هذا المنهج هو المنهج الذي قرره الله سبحانه ليتعامل مع النفوس البشرية.. ذلك أن الله سبحانه يعلم أن إنشاء اليقين الاعتقادي بالحق والخير يقتضي رؤية الجانب المضاد من الباطل والشر؛ والتأكد من أن هذا باطل محض وشر خالص؛ وأن ذلك حق محض وخير خالص.. كما أن قوة الاندفاع بالحق لا تنشأ فقط من شعور صاحب الحق أنه على الحق، ولكن كذلك من شعوره بأن الذي يحاده ويحاربه إنما هو على الباطل.. وأنه يسلك سبيل المجرمين الذين يذكر الله في آية أخرى أنه جعل لكل نبي عدواً منهم ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾.. ليستقر في نفس النبي ونفوس المؤمنين، أن الذين يعادونهم إنما هم المجرمون، عن ثقة، وفي وضوح، وعن يقين.

إن سفور الكفر والشر والإجرام ضروري لوضوح الإيمان والخير والصلاح، واستبانة سبيل المجرمين هدف من أهداف التفصيل الرباني للآيات، ذلك أن أيَّ غَبَشٍ أو شبهة في موقف المجرمين وفي سبيلهم ترد غبشاً في موقف المؤمنين وفي سبيلهم؛ فهما صفحتان متقابلتان، وطريقان مفترقتان.. ولا بد من وضوح الألوان والخطوط..

ومن هنا يجب أن تبدأ كل حركة إسلامية بتحديد سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين، يجب أن تبدأ من تعريف سبيل المؤمنين وتعريف سبيل

المجرمين؛ ووضع العنوان المميز للمؤمنين، والعنوان المميز للمجرمين، في عالم الواقع لا في عالم النظريات، فيعرف أصحاب الدعوة الإسلامية والحركة الإسلامية من هم المؤمنون ممن حولهم ومن هم المجرمون، بعد تحديد سبيل المؤمنين ومنهجهم وعلامتهم، وتحديد سبيل المجرمين ومنهجهم وعلامتهم، بحيث لا يختلط السبيلان، ولا يتشابه العنوانان، ولا تلتبس الملامح والسمات بين المؤمنين والمجرمين.

وهذا التحديد كان قائماً، وهذا الوضوح كان كاملاً، يوم كان الإسلام يواجه المشركين في الجزيرة العربية، فكانت سبيل المسلمين الصالحين هي سبيل الرسول ﷺ ومن معه، وكانت سبيل المشركين المجرمين هي سبيل من لم يدخل معهم في هذا الدين.. ومع هذا التحديد وهذا الوضوح كان القرآن ينزل وكان الله سبحانه يفصل الآيات على ذلك النحو الذي سبقت منه نماذج من السورة - ومنها ذلك النموذج الأخير - لتستبين سبيل المجرمين!

وحيثما واجه الإسلام الشرك والوثنية والإلحاد والديانات المنحرفة المتخلقة من الديانات ذات الأصل السماوي، بعدما بدلتها وأفسدتها التحريفات البشرية.. حيثما واجه الإسلام هذه الطوائف والملل كانت سبيل

المؤمنين الصالحين واضحة، وسبيل المشركين الكافرين المجرمين واضحة كذلك.. لا يجدي معها التلبيس!

ولكن المشقة الكبرى التي تواجه حركات الإسلام الحقيقية اليوم ليست في شيء من هذا.. إنها تتمثل في وجود أقوام من الناس من سلالات المسلمين، في أوطان كانت في يوم من الأيام دارًا للإسلام، يسيطر عليها دين الله، وتحكم بشريعته.. ثم إذا هذه الأرض، وإذا هذه الأقوام، تهجر الإسلام حقيقة، تعلنه اسمًا، وإذا هي تنكر لمقومات الإسلام اعتقادًا وواقعًا، وإن ظنت أنها تدين بالإسلام اعتقادًا! فالإسلام شهادة أن لا إله إلا الله.. وشهادة أن لا إله إلا الله تتمثل في الاعتقاد بأن الله وحده هو خالق هذا الكون المتصرف فيه، وأن الله وحده هو الذي يتقدم إليه العباد بالشعائر التعبدية ونشاط الحياة كله، وأن الله وحده هو الذي يتلقى منه العباد الشرائع ويخضعون لحكمه في شأن حياتهم كله.. وأيما فرد لم يشهد أن لا إله إلا الله -بهذا المدلول- فإنه لم يشهد ولم يدخل في الإسلام بعد، كائنًا ما كان اسمه ولقبه ونسبه، وأيما أرض لم تتحقق فيها شهادة أن لا إله إلا الله -بهذا المدلول- فهي أرض لم تدن بدين الله، ولم تدخل في الإسلام بعد... وبهذا أشق ما تواجهه حركات الإسلام الحقيقية في هذه الأوطان مع هؤلاء الأقوام!

أشق ما تعانيه هذه الحركات هو الغبش والغموض واللبس الذي أحاط بمدلول لا إله إلا الله، ومدلول الإسلام في جانب؛ ومدلول الشرك ومدلول الجاهلية في الجانب الآخر..

أشق ما تعانيه هذه الحركات هو عدم استبانة طريق المسلمين الصالحين، وطريق المشركين المجرمين؛ واختلاط الشارات والعناوين؛ والتباس الأسماء والصفات؛ والته الذي لا تتحدد فيه مفارق الطريق!

ويعرف أعداء الحركات الإسلامية هذه الثغرة، فيعكفون عليها توسيعاً وتمييعاً وتلييساً وتخليطاً، حتى يصبح الجهر بكلمة الفصل تهمة يؤخذ عليها بالنواصي والأقدام!.. تهمة تكفير (المسلمين)! ويصبح الحكم في أمر الإسلام والكفر مسألة المرجع فيها لعرف الناس واصطلاحهم، لا إلى قول الله ولا إلى قول رسول الله!

هذه هي المشقة الكبرى.. وهذه كذلك هي العقبة الأولى، التي لا بد أن يجتازها أصحاب الدعوة إلى الله في كل جيل!

يجب أن تبدأ الدعوة إلى الله باستبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين.. ويجب ألا تأخذ أصحاب الدعوة إلى الله في كلمة الحق والفصل هوادة ولا مدهانة، وألا تأخذهم فيها خشية ولا خوف؛ وألا

تُعدّهم عنها لومة لائم، ولا صيحة صائح: انظروا! إنهم يكفرون المسلمين!» (١).

للمدرس الدروس المستفادة من هذه الآية:

من خلال الكلام السابق في تفسير الآية نستخلص الدروس الآتية:

- الدرس الأول: في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَفِصَلُ الْآيَاتِ﴾، بيان رحمته سبحانه بعباده، حيث أنزل هذا القرآن هدى، وفصل فيه من الآيات والمواعظ ما يستبين به العباد حقيقة سبيل المؤمنين وحقيقة سبيل المجرمين.

والتفصيل يعني البيان بعد الإجمال، ولكن هل هناك فرق بين التفصيل والتصريف؟ حيث جاء في بعض الآيات.

قوله تعالى: ﴿نَفِصَلُ الْآيَاتِ﴾، كما في هذه الآية: ﴿وَكَذَلِكَ نَفِصَلُ الْآيَاتِ﴾. وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَفِصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢]. وقوله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ نَفِصَلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٤]. وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَفِصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

(١) «في ظلال القرآن» (٢/ ١١٠٦، ١١٠٧) باختصار.

وجاء في بعض الآيات: ﴿نُصِرْفُ الْأَيْتِ﴾ منها ثلاث آيات في سورة الأنعام كما في قوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصِرْفُ الْأَيْتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦].

وقوله سبحانه: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصِرْفُ الْأَيْتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥].  
وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُصِرْفُ الْأَيْتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٥].

والآية الرابعة في سورة الأعراف، وذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُصِرْفُ الْأَيْتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨].  
والمأمل في هذه الآيات أنه أغلبها يبدأ بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ سواء آيات التفصيل أو آيات التصريف مما يفيد بأن هذه الآيات جاءت تعقيباً على آيات فيها تذكير ومواعظ، وأحداث وسنن، أي: أن قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ معنى أن ما بينه الله ﷻ وفصله من الآيات والأحداث والعبر إنما جاءت لهداية الناس، وإقامة الحجة عليهم، ولا ينتفع بها إلا أولو الأبواب، والعقول السليمة.

وعن الفرق بين التفصيل والتصريف يقول فاضل السامرائي: «التصريف: هو التغيير، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ

الْمُسَخَّرِينَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَأَيَّتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿البقرة: ١٦٤﴾. أي: تغييرها من جهة لأخرى، وعندنا الصرف والنحو والصرف هو النظر في التغييرات الحاصلة في أبنية الكلام؛ فالتصريف: التغيير يأتي للمسألة الواحدة، ويذكرها بصور شتى يُغيّر فيها حتى يوصلها لك، مثلاً: إثبات الحياة بعد الموت، هذه مسألة، كيف يتوصل إليها؟ يتوصل لها بإحياء الأرض بعد موتها كمثال تمهيدي ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ﴾ [فصلت: ٣٩]، يعطي مشهداً تمثيلاً بذكر أمثلة، وأحياناً يستدل بالحياة الآخرة على خلق الإنسان وتطوره ﴿الَّذِي يُطْفِئُ مِنِّي مَنِّي يُعْمَى﴾ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٣٨﴾ جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴿٤٠﴾ [القيامة: ٣٧-٤٠]، هذا تصريف، يعني كل مرة يأتي بشكل حتى يثبت المسألة، يصرفها أي يغيرها بصور حتى يوصلها.

والتفصيل: هو إما أن يكون التبيين، وهو الفصل وهو الحجز بين الشئين، وهذا هو الأصل، وإما تبيين بصورة واسعة، وإما يأتي بأمر متعددة مختلفة هذه وهذه وهذه.

مثال: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ ط يخرج الحبي من الميِّتِ ومخرج الميِّتِ من الحيِّ ذلكم الله فأنى تُوفِّكون ﴿٩٥﴾ فالقُ الإصباح وجعل أيتل سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ [الأنعام: ٩٥-٩٧]، انتقل



من الحب والنوى إلى الإصباح، ثم الشمس والقمر، ثم النجوم، مواضيع أخرى ثم ينتقل بذكر أمور كثيرة هذه تفصيل قطعاً، يأتي بأمور كثيرة مختلفة، وليست مسألة واحدة؛ لذا يذكر التفصيل ﴿فَدَفَّصْنَا الْآيَاتِ﴾ (١).

إذن؛ فالتفصيل هو بيان الأمر بصورة واسعة، وبأمور متعددة، وبموضوعات متعددة، وبينما التصريف هو تغيير الأمثلة، ومعالجة الأمر من جوانب متعددة، وبأمثلة مختلفة، وبوسائل وأمثلة مختلفة على موضوع واحد، والتصريف يحتاج إلى شخص متمكّن، يحيط بالأمر من جوانبه المختلفة، ويدلل عليه بأدلة متعددة.

- الدرس الثاني: بناءً على معنى التصريف والتفصيل يمكننا الاستفادة من هذا الأسلوب القرآني في مواعظه وحججه في دعوة الناس ووعظهم، وذلك بأن نصرف وننوع موضوعات الوعظ، ووسائله ومجالاته، وتصريف القول فيه حتى يتأثر به السامعون ويقبلوه، والتصريف هو التنويع ورد الشيء من حالة إلى حالة، واختيار المناسب لأحوال الناس وظروفهم وطبقاتهم، وللتفصيل والتصريف أهداف ينبغي أن تكون حاضرة في ذهن المبلغ لدين الله ﷻ ومن هذه الأهداف:

(١) لمسات بيانية، د. فاضل السامرائي، عن (موقع إسلام ويب) في ٢٦/٣/١٤٣٧.

• تفتيه الناس وتعليمهم، كما في قوله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ [الأنعام: ٦٥].

• التبيين والتوضيح وإقامة الحجة، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْصِرُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٠٥﴾ [الأنعام: ١٠٥].

• التذكرة والوعظ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا﴾ [الإسراء: ٤١].

• تحقيق التقوى، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ﴿١١٣﴾ [طه: ١١٣].

• الرجوع والتوبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ [الأحقاف: ٢٧].

- الدرس الثالث: إن عناية القرآن الكريم ببيان سبيل المجرمين

وكفرهم بالله عَزَّوَجَلَّ وأنواع الإجرام والكيد والمكر الذي يكيدون به للمسلمين، قد أخذ حيزًا كبيرًا في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وما ذلك إلا لأهمية هذه الاستبانة، التي ما زال القرآن يفصل فيها ويبدئ ويعيد، ليكون المسلمون على دراية بحقيقة أعدائهم المجرمين، وحقيقة كيدهم ومكرهم ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ [الأنعام: ٥٥].

وفي هذا توجيه من الله ﷻ للمؤمنين بأن يكونوا على دراية بسبيل المجرمين، وإن أي داعية أو عالم أو مجاهد ينقصه العلم بسبيل المجرمين؛ فإنه يعيش في دعوته وعلمه وجهاده قاصر النظر سطحي التفكير، منخدعاً بتليس الملبسين وتضليل المضللين، وهذه الحالة منهم تقودهم إلى ممارسات ومواقف وأحوال قد يضلوا بها، ويضللون الناس بها، كما هو المشاهد اليوم، لأن التليس الذي قد يمارسه داعية أو عالم على الأمة، إما أن يكون سببه الجهل بالواقع، وما يدور فيه من مكر وكيد يمارسه المجرمون فينتظي عليه، وقد يكون سببه مرضاً في القلب وهوى في النفس، بحيث يجعله يظهر الحق في صورة باطل، والباطل في صورة حق.

- **الدرس الرابع:** وبناء على هذا يكون العلم بسبيل المجرمين عبادة واجبة لا خيار للمسلم فيها، ولا سيما من شرفهم الله ﷻ بالدعوة والجهاد في سبيله سبحانه، إذ لا يليق بمن يواجه أعداء الدين المجرمين من كفار ومنافقين، ويسعى لإحباط باطلهم أن يهمل معرفة أحوالهم وحكم الله فيهم، وقد فصل الله ﷻ لنا الآيات البيّنات لأجل هذا المقصد العظيم ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٥٥﴾.

يقول النسفي رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية: «أي: وليستوضح سبيلهم، فتعامل كلاً منهم بما يجب أن يعامل به»<sup>(١)</sup>.

ويقول الطبري رحمه الله تعالى: «لأن الله تعالى ذكره فصل آياته في كتابه وتنزيله، ليستبين الحق بها من الباطل لجميع من خاطب به»<sup>(٢)</sup>.

إذن؛ فاستبانة سبيل المجرمين هدف من أهداف التفصيل الرباني للآيات، ذلك أن أي غبش أو شبهة في العلم بسبيل الكفار والمجرمين، وفي أساليبهم المتنوعة الماكرة، تترد غبشًا وشبهة في مواقف المؤمنين منهم.

- الدرس الخامس: ولكي يتبين لنا أهمية هذا العلم الشريف وضرورة

العناية والعلم به، أذكر هنا بعض مقاصد العلم بسبيل المجرمين وثماره:

أولاً: في العلم بسبيل المجرمين معرفة بما يكونه من حقد دفين وعداوة مستحكمة في قلوبهم على المؤمنين، وقد حذرنا الله عَزَّوَجَلَّ من ذلك في آيات كثيرة من كتابه الشريف.

كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بَغْيِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِنَّ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِنْ

(١) «تفسير النسفي» (١/٣٢٥).

(٢) «تفسير الطبري» (٧/٢١٠).

تُصَبِّحُكُمْ سِنَّةً يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ  
شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١١٠﴾ [آل عمران: ١١٩، ١٢٠].

وكقوله سبحانه: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا  
وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ٨].

ومثل هذه العداوة لا تخفى على مسلم يتدبر كتاب ربه سبحانه،  
ولكن الذي قد يخفى على كثير من المسلمين - ومنهم بعض  
الدعاة والمجاهدين - تلك الأساليب الماكرة، والتضليل  
المنهج، والحرب الإعلامية الملبسة، ولاسيما في واقعنا  
المعاصر، مما قد ينخدع بها بعض السُّدَج من المسلمين.  
فلذا وجب العناية بهذا العلم لكي نحذر من هذه الحرب  
المضللة الماكرة فلا ننخدع بها، ونحذر الناس من أن ينخدعوا  
بها.

ثانياً: في العلم بسبيل المجرمين وحقيقة مكروهم وحقدهم تأكيد  
وترسيخ لعقيدة الولاء والبراء في قلب المسلم، ذلك أن معرفة  
خطط الأعداء ومكروهم على المسلمين ينشئ في القلب بغضهم  
وعداوتهم والبراءة من كفرهم وأعمالهم.

ثالثاً: في العلم بسبيل المجرمين وما فيه من الإجرام والمكر والكيد والفساد ينشئ في القلب محبة لسبيل المؤمنين، وتعلقاً به، وزيادة القوة في الارتباط به ونشاطاً في الدعوة إليه، لأنه عند المقارنة بين السبيلين يتبين حسن سبيل المؤمنين وموافقته للفطرة والعقل في الوقت الذي يتبين فيه سوء سبيل المجرمين وخبثه وفساده؛ فيزداد المؤمن معرفة لسبيل المؤمنين ويزداد تمسكاً به وفرحاً به ودعوة إليه، وكما يقول المثل (والضد يظهره حسنه الضد)، وبضدها تتميز الأشياء.

وصدق عمر رضي الله عنه حينما قال: «إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية».

رابعاً: في معرفة سبيل المجرمين ومكرهم تعرية لباطلهم، وكشف لتلبساتهم التي يمارسونها على الناس، وتعريف الناس بأساليبهم في الإفساد وخياناتهم للأمة في ضرورياتها الخمس (الدين والنفس والعقل والمال والعرض)، وأن من حكمة الله عز وجل في تصريفه وتفصيله للآيات والأحداث بيان حقيقة سبيل المجرمين وفضح رموزه وحملته ومنابره.

خامسًا: في معرفة سبيل المجرمين وحقيقة عداوتهم للمسلمين إنشاءً وتقويةً لشعور الانتماء للحق، وموالاته أهله والصبر على ذلك كله، وقوة الاندفاع لمحاربة الباطل وأهله، لأن قوة الاندفاع بالحق في معترك الصراع لا تنشأ فقط من إحساس صاحب الحق أنه على الحق، ولكن لابد كذلك من الإحساس العميق بأن الذي يحاربه هو الباطل، الذي يمثل سبيل المجرمين، وأي غش أو ضبايية في الحكم على العدو بهذا الحكم ينشئ نوعًا من الارتباك في الحركة بالحق.

سادسًا: في العلم بسبيل المجرمين من الداخل إظهار واكتشاف لهشاشة البناء الجاهلي، وأن ما يقوم به المجرمون في إعلامهم المضلل من تهويل قوته واقتصاده واستخباراته، إن هي إلا حرب نفسية ودعاية كاذبة، يريدون منها إرهاب النفوس الضعيفة، لتفقدتها قوة الدفع نحو الجهاد، وأن الجهل بحقيقة المجرمين وسبيلهم هو الذي يوئد الانهزام، ويعوق الانطلاق في المسار الصحيح للعمل

الإسلامي، إذ لو استقر في نفوس الدعاة والمجاهدين أن عوامل الضعف والانهيار عند الباطل كامنة في أصل كيانه، وأن في الحق من القوة الذاتية ما يجعله أهلاً لأن يعلو ولا يُعلَى عليه، لتحررت النفوس من قيود الخوف، التي تقتل الإرادة<sup>(١)</sup>.

سابعاً: في الاستبانة لسبيل المجرمين وكيدهم وعداوتهم استنهاض لهمم المسلمين، ونفض غبار النوم والاسترخاء والسذاجة، التي عشعشت في كثير من أوساط المسلمين، وذلك حينما يتبين لهم سبيل المجرمين وحقيقة كيدهم ومكرهم وعداوتهم، فتزداد جذوة الكره للمجرمين، وتقوى جذوة الجهاد والدفع والصراع معهم.

ثامناً: ومن فوائد استبانة سبيل المجرمين معرفة نفسياتهم التي ينطلقون منها، ولماذا هذا الحقد الشديد والتدمير، الذي يمارسونه على المسلمين في سجونهم وبلدانهم.

---

(١) انظر مقال (ولتستبين سبيل المجرمين) سيف الدين الأنصاري.



وقد أشار الشيخ أبو الحسن الندوي - رحمه الله تعالى - إلى حقيقة نفسية هؤلاء الكفرة المجرمين: «وأنها أعتى نفسية مرت على وجه التاريخ، بل هي اقتبست معالمها من نفسية الشيطان، ذلك أنه لما رأى نفسه قد حكم الله تعالى عليه الخلود في جهنم؛ فإنه طلب من الله تعالى أن يمهلَه إلى نهاية الدنيا، حتى يفتن كثيراً من الناس فيذهب بهم معه إلى جهنم، فإنه نقم على الناس طهرهم وعفافهم وإيمانهم، وكذا المجرمون فإنهم ينقمون على الناس إسلامهم، حيث يرى نفسه قد ضعف أمام الشهوة، إما شهوة المال أو شهوة المنصب، أو شهوة النساء، فيرى نفسه حقيراً ذليلاً، وهو يرى أمامه شاباً مسلماً قد ترفع عن هذه الشهوات وضربها بقدمه، واستمسك بدينه، فينقم عليه هذه الفضيلة، ويستصغر نفسه أمامه، فبدل أن يتوب إلى رشده، ويهتدي إلى رحمة الله، فإنه لنفسه الخبيثة يحقد على هذا الشاب، لأنه يذكره بضعفه وعجزه.. ولذلك عندما تسمع أو تقرأ هذه القصص الحقيقية من تعذيب الكفار والمرتدين

للمسلمين تكاد لهولها أن تدخل في عالم الخيال والخرافات؛ لأن هذا النوع من البشر ليس له مثيل في الظلم والكفر والعدوان»<sup>(١)</sup>.

- **الدرس السادس:** إن المنهجية الصحيحة لاستبانة سبيل المجرمين هي المنهجية التي تعتمد على التوازن الدقيق بين العلم والعمل، خلافاً لمن يظن أنها عملية شحن الذهن بالمعلومات الباردة عن المجرمين فحسب، إن استبانة سبيل المجرمين إنما تزداد وضوحاً ووهجاً في وجدان المسلم كلما تقدم الصراع، لأن القضية تتحول حينها من فكر مجرد يحلل ويصف ويستنتج في جو بارد إلى قضية وجود ومصير وولاء وبراء، تمتلك على المسلم وجدانه وشعوره وحركته، وإن كثيراً من مفردات تلك الاستبانة لا تتحقق إلا في ظل جهود جماعية منظمة<sup>(٢)</sup>.

- **الدرس السابع:** بعدما تبين لنا أهمية سبيل المجرمين، وأن الجهل به سبب في الانحراف والتضليل؛ فإن هذا العلم يتأكد بصورة أشد إلحاحاً في

(١) عن كتاب ردة ولا أبا بكر لها (بتصريف يسير).

(٢) انظر مقال (ولتستبين سبيل المجرمين) سيف الدين الأنصاري.

واقعنا المعاصر، الذي يشهد حربًا عالمية شرسة، تقودها أمريكا الطاغية على الإسلام وأهله، ولاسيما أهل السنة منهم، ويشارك في هذه الحرب كل قوى الكفر والشرك والشر في العالم، وقد وقفت على مقال مائع ومهم للشيخ عمر خليفة الراشد في مدونته في الشبكة العنكبوتية بعنوان «الكرة الأرضية تعلن الحرب على أهل السنة» أنقله هنا للفائدة.

يقول حفظه الله تعالى: «لماذا أهل السنة؟ لأنهم أصل الإسلام وفصله.. لأنهم الأمة.. لأنهم الشجرة الباسقة بجذعها، بجذورها، بأغصانها، بثمرها، بورقها.. أما الفرق والنحل والطوائف ففيها ما فسد من ثمر وسقط، وما أصفر من ورق وتساقط.

إن أهل السنة ليسوا طائفة من الطوائف، بل هم الأمة الإسلامية، وأهل الرسالة المحمدية، لذلك هم الهدف لكل عدو لله ورسوله والمؤمنين.

من هم المشاركون في الحرب على أهل السنة؟

تحالف كبير لم يشهد له التاريخ مثيلاً من قبل، ويتخذ من راية (الحرب الدولية على الإرهاب) كوسيلة رئيسة لتمير مشروع الحرب على الإسلام، وحملته من أهل السنة.

## المشاركون في الحرب هم:

- ١- كل ملل الأرض المعادية للإسلام من يهود ونصارى وروس وهندوس وبوذيين، وهؤلاء يشكلون العدو الخارجي الواضح.
- ٢- كل الطوائف التي تعيش بين ظهراي المسلمين، وتشكل عدواً داخلياً، يتحرك من حين لآخر، متحالفاً مع كل عدو لأهل السنة، كالنصيرية والدروز والاثني عشرية، والذين يتخذون مسميات عديدة.. فهم (حزب الله) في لبنان، و(الحوثية) في اليمن، و(جمعية الوفاق) في البحرين، و(مليشيا الحشد الشعبي) في العراق، و(حزب الوحدة) في أفغانستان.. إلخ.
- ٣- بعض الأنظمة العربية، التي يحكمها أناس هم من نسل عدنان وقحطان! لماذا؟ لأن بعضهم غارق في العمالة، ولا يملك إلا أن يكون طرفاً في هذه الحرب، والبعض الآخر يظن نفسه ذكياً، وأنه يحمي نفسه من خطر الإرهاب بمشاركته في هذا التحالف المزعوم.

٤- بعض القوى السياسية ومؤسسات المجتمع المدني، من المنافقين المعادين للإسلام أو من ذوي المصالح، فهم مع كل من (يدفع) بكرم وسخاء.

هذه القوى تشمل أطرافاً ليبرالية أو يسارية أو حتى إسلامية، تدعي الاعتدال والوسطية في بعض الدول العربية، وتشن حرباً إعلامية على من تتهمهم بالإرهاب إذا كانوا محسوبين على السنة، كتتنظيم الدولة والقاعدة، وتصمت صمت الموتى إذا كانوا من الشيعة، كالمليشيات الإرهابية في العراق ولبنان وسوريا واليمن، أو كانوا من الأمريكان والتحالف الدولي معها.

#### ما مظاهر هذه الحرب؟

١- الحرب الصريحة والواضحة والمتمثلة في الهجمات الاستعمارية العسكرية الشرسة لاحتلال دول إسلامية كأفغانستان في (٢٠٠١م)، والعراق في (٢٠٠٣م).

شارك في هذه الحرب العشرات من الدول، من بينها دول (عربية)، بقيادة أمريكا، كانت الرايات المرفوعة في هذه الحرب: محاربة

الإرهاب، والقضاء على أسلحة الدمار الشامل، وتكريس الديمقراطية  
والمساواة والحرية!

٢- إنشاء القواعد والمنشآت العسكرية الغربية، خاصة الأمريكية، في  
الدول العربية في منطقة الخليج العربي والشرق الأوسط.

توفر هذه المنشآت حرية حركة لا محدودة للقوى الغربية البرية  
والبحرية والجوية والمخابراتية؛ بلا حسيب ولا رقيب من  
حكومات (عدنان وقحطان)!. .

الملاحظ: أن هذه المنشآت الغربية تجاور أحياناً منشآت عسكرية  
ومخابراتية إيرانية بكل ود وسلام!

ففي جنوب البحر الأحمر، تحديداً في بعض جزر إريتريا تتجاور  
قواعد عسكرية إيرانية وإسرائيلية، على بعد خطوات من قواعد  
عسكرية أمريكية وفرنسية في جيبوتي، هذا مثال واضح على وحدة  
الهدف بين هذه القوى: حرب أهل السنة والجماعة.

٣- الحرب الدولية على العمل الإغاثي والخيري، الذي يقدم العون

والمساعدة لعشرات الملايين من الفقراء والمرضى واليتامى والأرامل من أهل السنة حول العالم.

تشن هذه الحرب تحت مسمى (تجفيف منابع الإرهاب)! كثير من المؤسسات والمصارف والجمعيات تم إغلاقها نهائياً، وتتم مراقبة حركة انتقال المال، وإن كان محدوداً، بكل دقة وصرامة وتكلف، بينما يتم غض الطرف تماماً عن حركة انتقال المليارات من أموال المرجعيات الشيعية، والتي تستخدم جزء منها في الإنفاق على المنظمات الإرهابية الشيعية.

٤- الانتقائية الفاضحة في التعامل مع ملفات محاربة الإرهاب وحقوق الإنسان، بحيث يكون الطرف الخاسر دائماً هم من أهل السنة، والطرف المستفيد دائماً هم الطوائف.

في البحرين، ركزت الإدارة الأمريكية، ومعها الإعلام الأمريكي المتصهين، على حقوق الشيعة حصراً، وركزت على أداء أجهزة الأمن البحرينية، وتجاهلت تماماً الأعمال الإرهابية (الثابتة

والمسجلة)، التي قام بها الشيعة الموالون للولي الفقيه الإيراني ابتداء من (١٤ فبراير ٢٠١١م).

في العراق، قامت القيامة عندما تم طرد عدة آلاف من النصاري والأيزيديين من قُراهم في شمال العراق قبل عدة أشهر، بينما يتجاهل العالم، كل العالم أعمال القتل والتعذيب والخطف والطرده، التي يتعرض لها أهل السنة في العراق منذ عام (٢٠٠٣م).

في سوريا، حصرت (الكرة الأرضية) بأكملها كل اهتمامها بما يجري في مدينة حدودية صغيرة تسمى (عين العرب - كوباني)، بينما تم نسيان أو تجاهل الإرهاب المنظم والقتل الممنهج، بما في ذلك السلاح الكيماوي، والذي يمارسه النظام النصيري والمليشيات الشيعية بحق أهل السنة والجماعة منذ عام (٢٠١١م).

في اليمن، يركز العالم اهتمامه منذ سنوات على الأعمال الإرهابية التي تقوم بها (القاعدة) في حين لم نجد إلا اهتمامًا خجولاً جداً تجاه الأعمال الإرهابية التي يمارسها الحوثيون



الشيعة منذ عام (٢٠٠٤م)، والتي زادت وتيرتها كثيرًا بعد استباحتهم لصنعاء وبعض المناطق السنية»<sup>(١)</sup>.

وأضُم إلى هذه المظاهر مظهرًا خامسًا مهمًّا من مظاهر هذه الحرب العالمية: ألا وهو (حرب الأفكار)، التي تمارسها أمريكا مع حلفائها على التوجه السني، ومحاولة تشويبه وإثارة الشبهات حوله، وتفريغ الإسلام من ثوابته ومضامينه الواردة في الكتاب والسنة، وأعظمها عقيدة الولاء والبراء، ومحاولة إيجاد ثوب إسلامي جديد هو ما يسمى بالإسلام الأمريكي، ومن يرفض هذا اللباس فهو المتطرف الإرهابي!

والمقصود: التأكيد على أهمية العلم بسبيل المجرمين أعداء ديننا وعقيدتنا وأخلاقنا، وما يقومون به من تخطيط وكيد ومكر كبار في حربهم لنا، لأنه على قدر هذا الوعي والإحاطة بسبيل أعدائنا المجرمين في حربهم لنا تكون اليقظة والوعي، وتجييش الأمة في

(١) انظر المقال (بتصرف واختصار يسيرين) في مدونة عمر خليفة الراشد، الرسالة (٦٣) من الرسائل البحرينية في المسألة الشيعية.

التصدي لهذه الحرب القذرة، التي أعلمنا ربنا سبحانه أنها لا تعدو أن تكون زبداً بقدرة الله عَزَّوَجَلَّ للابتلاء والتمحيص، ثم يكون جُفاءً، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۗ وَأَمَا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكُّ فِي الْأَرْضِ ۗ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد: ١٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۗ فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال: ٣٦] (١).



(١) انظر كتاب (المشروع الأمريكي في حرب المسلمين السنة) للمؤلف، نشر دار الصفوة بمصر.



- وقالها صالح عليه السلام: ﴿قَالَ يَنْقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَيْتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ، فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣].

- وقالها إبراهيم عليه السلام: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ، قَالَ أَتُحَدِّثُونَ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ [الأنعام: ٨٠].

- وقالها يعقوب عليه السلام لبيته: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ، فَارْتَدَّ بَصِيرًا، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦].

فهي حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلوب أوليائه؛ ممن يتجلى الله في قلوبهم؛ فيجدونه سبحانه حاضرًا فيها؛ ويجدون هذه الحقيقة بيّنة هنالك في أعماقهم تسكب في قلوبهم اليقين بها، وهي الحقيقة التي يأمر الله نبيه أن يجهر بها في مواجهة المشركين المكذبين؛ الذين يطلبون منه الخوارق لتصديق ما جاءهم به من حقيقة ربه، الحقيقة التي يجدها هو كاملة واضحة عميقة في قلبه: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾.

كذلك كانوا يطلبون أن ينزل عليهم خارقة أو ينزل بهم العذاب، ليصدقوا أنه جاءهم من عند الله.. وكان يؤمر أن يعلن لهم حقيقة الرسالة وحقيقة الرسول؛ وأن يفرق فرقاناً كاملاً بينها وبين حقيقة الألوهية؛ وأن يجهر بأنه لا يملك هذا الذي يستعجلونه؛ فالذي يملكه هو الله وحده؛ وهو ليس إلهًا، إنما هو رسول: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصْلِينَ﴾ (٥٧).

إن إيقاع العذاب بهم بعد مجيء الخارقة وتكذيبهم بها حكم وقضاء؛ والله وحده الحكم والقضاء، فهو وحده الذي يقص الحق ويخبر به؛ وهو وحده الذي يفصل في الأمر بين الداعي إلى الحق والمكذبين به، وليس هذا أو ذلك لأحد من خلقه.

وبذلك يجرد الرسول ﷺ نفسه من أن تكون له قدرة، أو تدخل في شأن القضاء الذي ينزله الله بعباده، فهذا من شأن الألوهية وحدها وخصائصها، وهو بشر يوحى إليه، ليبلغ وينذر؛ لا لينزل قضاء ويفصل، وكما أن الله سبحانه هو الذي يقص الحق ويخبر به؛ فهو كذلك الذي يقضي

في الأمر ويفصل فيه.. وليس بعد هذا تنزيه وتجريد لذات الله سبحانه وخصائصه، عن ذوات العبيد..

ثم يؤمر أن يلمس قلوبهم وعقولهم ويلفتها إلى دلالة قوية على أن هذا الأمر من عند الله، ومتروك لمشية الله؛ فلو أن أمر الخوارق - بما فيها إنزال العذاب - في مقدوره - وهو بشر - ما استطاع أن يمسك نفسه عن الاستجابة لهم، وهم يلحفون هذا الإلحاف، ولكن لأن الأمر بيد الله وحده، فهو يحلم عليهم؛ فلا يجيئهم بخارقة يتبعها العذاب المدمر، إن هم كذبوا بها كما فعل بمن قبلهم: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّنِي مِمَّنْ تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾.

إن للطاقة البشرية حدودًا في الصبر والحلم والإمهال، وما يحلم على البشر ويمهلهم - على عصيانهم وتمردهم وتبجحهم - إلا الله الحليم القوي العظيم..

وصدق الله العظيم.. فإن الإنسان ليرى من بعض الخلق ما يضيق به الصدر، وتبلغ منه الروح الحلقوم.. ثم ينظر فيجد الله سبحانه يسعهم في ملكه، ويطعمهم، ويسقيهم، ويغدق أحيانًا عليهم، ويفتح عليهم أبواب كل

شيء.. وما يجد الإنسان إلا أن يقول قولة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والمشركون يضربونه الضرب المبرح الغليظ، حتى ما يعرف له أنف من عين: «رب ما أحلمك! رب ما أحلمك!.. وإنما هو حلم الله وحده.. وهو يستدرجهم من حيث لا يعلمون!.. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٥٨)»..

فهو يمهلهم عن علم، ويملي لهم عن حكمة، ويحلم عليهم وهو قادر على أن يجيبهم إلى ما يقترحون، ثم ينزل بهم العذاب الأليم..

وبمناسبة علم الله سبحانه بالظالمين؛ واستطراداً في بيان حقيقة الألوهية، يجلي هذه الحقيقة في مجال ضخم عميق من مجالاتها الفريدة.. مجال الغيب المكنون، وعلم الله المحيط بهذا الغيب إحاطته بكل شيء، ويرسم صورة فريدة لهذا العلم؛ ويرسل سهاماً بعيدة المدى تشير إلى أماده وآفاه من بعيد: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (١).

(١) «في ظلال القرآن» (٢/ ١١١٠ - ١١١١).

الدروس المستفادة من هذه الآية:

- **الدرس الأول:** كلما كان المسلم على بينة ويقين من ربه، ومن وعد ربه كان أشد طمأنينة وثباتاً ورسوخاً على الحق وقوة انتماء له ولحزبه، وأشد حماساً ودعوة إليه ودفاعاً عنه مهما كانت العوائق والعقبات وعلى العكس من ذلك، حين لا يكون المسلم على وثوق وطمأنينة من طريقة يكون الضعف والاضطراب في المواقف، وتكون التنازلات والخضوع للإملاءات، وتكون الاهتزازات عند الابتلاءات.

- **الدرس الثاني:** في مجيء هذه الآيات بعد قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَفِصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾. تنبيه على أهمية ودور المعرفة بسبيل المجرمين وتعريفها في تمسك المسلم بالحق وثباته عليه، وقوة انتمائه له، وذلك لأن في بيان سبيل المجرمين مزيد يقين وبينة لطريق الحق ونصوعه ووضوحه، لأنه كما يقال: «والضد يظهر حسنه الضد».

- **الدرس الثالث:** على الداعية إلى الله عَزَّوَجَلَّ والمجاهدين في سبيله سبحانه ألا يشغل نفسه أو يربط هدفه بشيء من هذه الدنيا، حتى ولو كان هو



التمكين لدين الله ﷻ ، بل ينبغي أن يكون شغله الشاغل ثباته على الحق الذي يرضي الله ﷻ والدعوة إليه والتمسك به، والحذر من التنازل عنه عند الابتلاءات والإغراءات، أو عند تأخر نصر الله ﷻ وأخذه للظالمين والمكذبين؛ فإن هذا أمره إلى الله ﷻ وهو المتفرد بحكمته وعزته ورحمته وعلمه ولطفه في تحديد وقته، وهذا ما يفهم من توجيهه الله ﷻ لنبيه ﷺ في هذه الآيات بألا يشغل فكره وهمه باستعجال نصره أهل الحق وإهلاك المبطلين، فإن هذا ليس إليه، وإنما إلى الله ﷻ وحده.

قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَفْضُلُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنعام: ٥٧].  
 وشبيهه بهذه الآية قوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۚ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الزخرف: ٤١-٤٣].

إن الله ﷻ في هذه الآيات يوصي نبيه ﷺ ومن تبعه من الدعوة والمجاهدين بألا يضعفوا ويتنازلوا أمام كيد الأعداء وتسلطهم وعدم

الانتقام منهم؛ فإن الله ﷻ له الحكمة في تقدير الوقت الذي ينتقم فيه من الكافرين وأمر النصر وتوقيته هو إلى الله ﷻ، ولا ينبغي أن يشغل به المجاهدون في سبيل الله ﷻ، أو أن يستعجلوه قبل أوانه بإعطاء الأعداء تنازلات على حساب العقيدة وأصولها، وأما الانتقام من الكافرين فهو أمر حتم يقدره الله ﷻ في وقته المناسب فهو إلى الله سبحانه، وأما عبادة المجاهدون فعليهم الثبات على هذا الدين، والاستمسك بوحى الله ﷻ، وأن يحذروا أن يضعف استمسكهم أمام ضغوط الكفار وتسلطهم:

﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٤٣].

نذكر بهذه الآيات والمجاهدون يمرون بكيد عظيم من الأعداء الصليبيين والمنافقين والشيوعيين والباطنيين، يريدون إفشال أهداف الجهاد وجر المجاهدين إلى حلول سياسية تهدر بها مكاسب المجاهدين، ويقضي على غاية الجهاد الذي بذل فيه المسلمون النفوس والأموال؛ وذلك ليكون الدين كله لله، ولتكون كلمة الله هي العليا، أتذهب هذه الغاية وتذهب هذه الدماء والمعاناة هدرًا بما يكيده الأعداء من تفرغ الجهاد من مضمونه



أما حلم الله ﷻ العظيم وسعة رحمته بعباده؛ فإنه يستأني بهم، ولا يعجل لهم العذاب لحكم كثيرة، منها استدراجهم وإعطاء الفرصة لمن أراد التوبة منهم إليه سبحانه، ويكفينا في سعة حلمه سبحانه وسعة رحمته أن قال للذين احرقوا أولياءه الموحدين في الأخاديد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البُورُج: ١٠]. فهل بعد هذا الحلم والرحمة من حلم ورحمة؟، وقد عد بعض أهل العلم هذه الآية من سورة البروج أنها أرجى آية في كتاب الله ﷻ.

وفيه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٥٨)، بيان أن الله ﷻ حينما يؤخر محق الكافرين والظالمين ونصر أوليائه المؤمنين؛ فإنه لا يخفى عليه ظلم الظالمين، سواء بظلمهم الأكبر وهو الشرك به سبحانه، أو ظلم عباده المؤمنين وإيذائهم بشتى صنوف الأذى، إنه سبحانه على علم بكل أعمال الظالمين، ولكنه سبحانه الحكيم العليم العزيز الرحيم الحليم العظيم، يعلم ولا نعلم، ويقدر ولا نقدر، وهو علام الغيوب، ولذا والله أعلم أعقب سبحانه هذه الآيات بقوله ﷻ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا

هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَةٍ  
الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾ ❁

ومن هذه الغيوب حكمته سبحانه في تأخير نصر المؤمنين ومحق الظالمين، التي يعلمها سبحانه ويقدرها في وقتها، والخلق لا يعلمونها، والحديث عن الغيب يقودنا إلى الدرس الخامس.

- الدرس الخامس: الإيمان بالغيب هو أساس الإيمان وأصل شجرته، ولا يصح إيمان العبد إلا بالإيمان بالغيب؛ فأصول الإيمان الستة كلها قائمة على الإيمان بالغيب، فالإيمان بالله ﷻ إيمان بالغيب، وكذلك الإيمان بالكتب والملائكة والرسول والإيمان باليوم الآخر والقدر خيره وشره، ومن صفات المؤمن الأساسية الإيمان بالغيب.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [البقرة: ١-٣].

يتحدث سيد قطب - رحمه الله تعالى - عن آية الأنعام عند قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾. فيقول: «إن القرآن الكريم - وهو المصدر الأساسي للعقيدة الإسلامية، التي تنشئ التصور الإسلامي والعقلية

الإسلامية- يقرر أن هناك عالمًا للغيب وعالمًا للشهادة، فليس كل ما يحيط بالإنسان غيبًا، وليس كل ما يتعامل معه من قوى الكون مجهولاً..

إن هنالك سنناً ثابتة لهذا الكون؛ يملك (الإنسان) أن يعرف منها القدر اللازم له، حسب طاقته وحسب حاجته، للقيام بالخلافة في هذه الأرض، وقد أودعه الله القدرة على معرفة هذا القدر من السنن الكونية؛ وعلى تسخير قوى الكون وفق هذه السنن للنهوض بالخلافة، وتعمير الأرض، وترقية الحياة، والانتفاع بأقواتها وأرزاقها وطاقاتها..

وإلى جانب هذه السنن الثابتة -في عمومها- مشيئة الله الطليقة؛ لا تقيدها هذه السنن وإن كانت من عملها، وهناك قدر الله الذي يُنفذ هذه السنن في كل مرة تنفذ فيها، فهي ليست آلية بحتة، فالقدر هو المسيطر على كل حركة فيها؛ وإن جرت وفق السنة التي أودعها الله إياها، وهذا القدر الذي يُنفذ هذه السنن في كل مرة تنفذ فيها (غيب) لا يعلمه أحد علم يقين؛ وأقصى ما يصل إليه الناس هو الظنون و(الاحتمالات).. وهذا ما يعترف به العلم البشري أيضًا..

وإن ملايين الملايين من العمليات لتتم في كيان الإنسان في اللحظة الواحدة؛ وكلها (غيب) بالقياس إليه، وهي تجري في كيانه! ومثلها ملايين ملايين العمليات التي تتم في الكون من حوله، وهو لا يعلمها!..

وإن العقلية الإسلامية لتجمع بين الاعتقاد بالغيب الذي لا يعلم مفاتيحه إلا الله؛ وبين الاعتقاد بالسنن التي لا تتبدل، والتي تمكن معرفة الجوانب اللازمة منها لحياة الإنسان في الأرض، والتعامل معها على قواعد ثابتة.. فلا يفوت المسلم (العلم) البشري في مجاله، ولا يفوته كذلك إدراك الحقيقة الواقعة؛ وهي أن هنالك غيبًا لا يُطلع الله عليه أحدًا، إلا من شاء، بالقدر الذي يشاء..

والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها (الفرد)، فيتجاوز مرتبة (الحيوان) الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، إلى مرتبة (الإنسان) الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدود، الذي تدركه الحواس - أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس -.

ولقد كان الإيمان بالغيب هو مَفْرَق الطريق في ارتقاء الإنسان عن عالم

البهيمة، ولكن جماعة الماديين في هذا الزمان -كجماعة الماديين في كل زمان- يريدون أن يعودوا بالإنسان القهقري إلى عالم البهيمة، الذي لا وجود فيه لغير المحسوس! ويسمون هذا (تقدمية)! وهو النكسة التي وقى الله المؤمنين إياها، فجعل صفتهم المميزة هي صفة: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾... والحمد لله على نعمائه؛ والنكسة للمتكسبين والمرتكسين»<sup>(١)</sup>.



(١) «في ظلال القرآن» (٢/ ١١١٩، ١١٢٠).



## • الوقفة الثالثة عشرة •

عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءِ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۗ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُوتُ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِىٰ لَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لَعبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرَبِهِمْ أَن تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴿[الأنعام: ٦٨-٧٠].

يلق الشيخ السعدي -رحمه الله تعالى- على هذه الآيات فيقول: «المراد بالخوض في آيات الله: التكلم بما يخالف الحق من تحسين المقالات الباطلة، والدعوة إليها ومدح أهلها، والإعراض عن الحق والقدح فيه وفي أهله، فأمر الله رسوله أصلاً وأُمَّته تبعاً إذا رأوا من يخوض بآيات الله بشيء مما ذكر بالإعراض عنهم، وعدم حضور مجالس الخائضين بالباطل، والاستمرار على ذلك حتى يكون البحث والخوض في كلام غيره، فإذا كان في كلام غيره زال النهي المذكور، فإن كان مصلحة كان مأموراً به، وإن كان غير ذلك كان غير مفيد ولا مأمور به.

وفي ذم الخوض بالباطل حثُّ على البحث والمناظرة بالحق، ثم قال: ﴿وَمَا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾؛ أي: بأن جلست معهم على وجه النسيان والغفلة ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، يشمل الخائضين بالباطل، وكل متكلم بمحرم أو فاعل لمحرم، فإنه يحرم الجلوس والحضور عند حضور المنكر الذي لا يقدر على إزالته.

هذا النهي والتحريم لمن جلس معهم ولم يستعمل تقوى الله بأن كان يشاركهم في القول أو الفعل أو يسكت عنهم وعن الإنكار، فإن استعمل تقوى الله تعالى بأن كان يأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر والكلام الذي يصدر منهم، فيترتب على ذلك زوال الشر أو تحقيقه، فهذا ليس عليه حرج ولا إثم، ولهذا قال: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَٰكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾. أي: ولكن ليذكرهم ويعظهم بتقوى الله تعالى.

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَرِ﴾. الآية، المقصود من العباد أن يخلصوا لله الدين بأن يعبدوه وحده لا شريك له، ويبدلوا مقدورهم في مرضاته ومحابته، وذلك متضمن لإقبال القلب على الله وتوجهه إليه، وكون سعي العبد نافعًا وجدًّا لا هزلًا، وإخلاصًا لوجه الله لا رياء ولا سمعة، هذا هو الدين الحقيقي الذي يقال له دين، فأما من زعم

أنه على الحق، وأنه صاحب دين وتقوى، وقد اتخذ دينه لعباً ولهواً، بأن لها قلبه عن محبة الله ومعرفته، وأقبل على كل معصية، ولها في باطله ولعب فيه ببدنه؛ لأن العمل والسعي إذا كان لغير الله فهو لعب؛ فهذا أمر الله تعالى أن يترك ويحذر، ولا يغتر به ويحذر من فعالة ولا يفتر بتعويضه عما يقرب إلى الله»<sup>(١)</sup>.

ويقف سيد قطب - رحمه الله تعالى - عند هذه الآيات بعض الوقفات فيقول: «ونقف من الآية أمام عدة أمور:

أولها: أن الرسول ﷺ - وينسحب الأمر على كل مسلم - مأمور أن يهمل شأن الذين يتخذون دينهم لعباً ولهواً.. وهذا يتم بالقول كما يتم بالفعل.. فالذي لا يجعل لدينه وقاره واحترامه باتخاذ قاعدته حياته اعتقاداً وعبادة، وخلقاً وسلوكاً، وشريعة وقانوناً، إنما يتخذ دينه لعباً ولهواً.. والذي يتحدث عن مبادئ هذا الدين وشرائعه فيصفها أوصافاً تدعو إلى اللعب واللهو، كالذين يتحدثون عن (الغيب) - وهو أصل من أصول العقيدة - حديث الاستهزاء، والذين يتحدثون عن (الزكاة) وهي ركن من أركان

(١) «تفسير السعدى» (ص ٢٦٠، ٢٦١).

الدين حديث الاستصغار، والذين يتحدثون عن الحياء والخلق والعفة - وهي من مبادئ هذا الدين - بوصفها من أخلاق المجتمعات الزراعية، أو الإقطاعية، أو (البرجوازية) الزائلة! والذين يتحدثون عن قواعد الحياة الزوجية المقررة في الإسلام حديث إنكار أو استنكار، والذين يصفون الضمانات التي جعلها الله للمرأة لتحفظ عفتها بأنها (أغلال!).. وقبل كل شيء وبعد كل شيء.. الذين ينكرون حاكمية الله المطلقة في حياة الناس الواقعية: السياسية والاجتماعية والتشريعية.. ويقولون: إن للبشر أن يزالوا هذا الاختصاص دون التقييد بشريعة الله.. أولئك جميعاً من المعنيين في هذه الآيات بأنهم يتخذون دينهم لعباً ولهواً، وبأن المسلم مأمور بمفاصلتهم ومقاطعتهم إلا للذكرى، وبأنهم الظالمون - أي المشركون - والكافرون الذين أفسلوا بما كسبوا، فلهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون.

وثانيها: أن الرسول ﷺ وينسحب الأمر على كل مسلم - مأمور بعد إهمال شأن هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا - أن يقوم بتذكيرهم وتخويفهم من أن ترتبن نفوسهم بما

كسبوا، وأن يلاقوا الله ليس لهم من دونه ولي ينصرهم، ولا شفيع يشفع لهم؛ كما أنه لا يقبل منهم فدية لتطلق نفوسهم بعد ارتهاها بما كسبت.

وثالثها: قول الله تعالى في المشركين: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾.

فهل هو دينهم؟

إن النص ينطبق على مَنْ دخل الإسلام، ثم اتخذ دينه هذا لعبًا ولهوًا.. وقد وجد هذا الصنف من الناس وعرف باسم المنافقين.. ولكن هذا كان في المدينة..

فهل هو ينطبق على المشركين الذين لم يدخلوا في الإسلام؟ إن الإسلام هو الدين.. هو دين البشرية جميعًا.. سواء من آمن به ومن لم يؤمن.. فالذي رفضه إنما رفض دينه.. باعتبار أنه الدين الوحيد الذي يعده الله دينًا، ويقبله من الناس بعد بعثه خاتم النبيين.

ولهذه الإضافة دلالتها في قوله: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾.

فهي - والله أعلم - إشارة إلى هذا المعنى الذي أسلفناه، من اعتبار الإسلام ديناً للبشرية كافة، فمن اتخذه لعباً ولهواً، فإنما يتخذ دينه كذلك.. ولو كان من المشركين..

ولا نزال نجدنا في حاجة إلى تقرير من هم المشركون؟ إنهم الذين يشركون بالله أحداً في خصائص الألوهية، سواء في الاعتقاد بألوهية أحد مع الله، أو بتقديم الشعائر التعبدية لأحد مع الله، أو بقبول الحاكمية والشريعة من أحد مع الله، ومن باب أولى من يدعون لأنفسهم واحدة من هذه، مهما تسمّوا بأسماء المسلمين! فلنكن من أمر ديننا على يقين!

ورابعها: حدود مجالسة الظالمين - أي المشركين - والذين يتخذون دينهم لعباً ولهواً.. وقد سبق القول بأنها لمجرد التذكير والتحذير، فليست لشيء وراء ذلك، متى سمع الخوض في آيات الله؛ أو ظهر اتخاذها لعباً ولهواً بالعمل بأية صورة مما ذكرنا أو مثلها.

وقد جاء في قول القرطبي في كتابه «الجامع لأحكام القرآن» بصدد هذه الآية: «في هذه الآية ردٌّ من كتاب الله ﷻ، على من زعم أن الأئمة الذين هم حجج وأتباعهم، لهم أن يخالطوا الفاسقين، ويصوبوا آراءهم تقية..».

ونحن نقول: إن المخالطة بقصد الموعظة والتذكير وتصحيح الفاسد والمنحرف من آراء الفاسقين تبيحها الآية في الحدود التي بيئتها، أما مخالطة الفاسقين والسكوت عما يبدونه من فاسد القول والفعل من باب التقية فهو المحظور، لأنه -في ظاهره- إقرار للباطل، وشهادة ضد الحق، وفيه تلبيس على الناس، ومهانة لدين الله وللقائمين على دين الله، وفي هذه الحالة يكون النهي والمفارقة.

كذلك روى القرطبي في كتابه هذه الأقوال: «قال ابن خويزمنداد: من خاض في آيات الله تركت مجالسته وهجر -مؤمناً كان أو كافراً- قال: وكذلك منع أصحابنا الدخول إلى أرض العدو، ودخول كنائسهم والبيع، ومجالسة الكفار وأهل البدع؛ وألا يعتقد مودتهم، ولا يسمع كلامهم ولا مناظرتهم.

وقد قال بعض أهل البدع لأبي عمران النخعي: اسمع مني كلمة، فأعرض عنه، وقال: ولا نصف كلمة!

ومثله عن أيوب السختياني.

وقال الفضيل بن عياض: من أحب صاحب بدعة أحبط الله عمله،

وأخرج الإسلام من قلبه، ومن زوج كريمته من مبتدع فقد قطع رحمها، ومن جلس مع صاحب بدعة لم يعط الحكمة، وإذا علم الله من رجل أنه مبغض لصاحب بدعة رجوت أن يغفر الله له، وروى أبو عبد الله الحاكم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «من قر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام» (١) ..

فهذا كله في صاحب البدعة وهو على دين الله.. وكله لا يبلغ مدى من يدعي خصائص الألوهية بمزاولته للحاكمية؛ ومن يقره على هذا الادعاء.. فليس هذا بدعة مبتدع؛ ولكنه كفر كافر، أو شرك مشرك، مما لم يتعرض له السلف لأنه لم يكن في زمانهم، فمنذ أن قام الإسلام في الأرض لم يبلغ من أحد أن يدعي هذه الدعوى، وهو يزعم الإسلام، ولم يقع شيء من ذلك إلا بعد الحملة الفرنسية التي خرج بعدها الناس من إطار الإسلام -إلا من عصم الله- وكذلك لم يعد في قول هؤلاء السلف ما ينطبق على هذا الذي كان! فقد تجاوز كل ما تحدثوا عنه بمثل هذه الأحكام..» (٢).

(١) «كنز العمال» (٢١٩/١)، «شعب الإيمان» (٦١/٧)، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٨٦٢).

(٢) «في ظلال القرآن» (٢/ ١١٢٨-١١٣٠) باختصار يسير.



### الدروس المستفادة من الآيات:

- **الدرس الأول:** إن في مجالسة الكفار والظلمة والفساق داءً خطيراً، ألا وهو التأثير بأحوالهم وسلوكياتهم، وهذا أمر مشاهد، ومن أجل ذلك حذرنا ربنا عَزَّ وَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أخطار ذلك حماية لنا ورحمة بنا، ومن ذلك نهيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن السفر إلى بلاد الكفر والاجتماع بالكفار، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تتراءى ناراهما»<sup>(١)</sup> مبالغة في ضرورة البعد عنهم بحيث لا ترى نار أحدهم نار الآخر.

وقد يقول قائل: إني أنكر في الباطن أقوالهم وأعمالهم.

فيقال له: ما لم يحصل الإنكار بالقول وهجر مجالسهم فإن التأثير بأحوالهم لا بد أن يكون ولو كان القلب منكرًا، لأن المنكر من القول أو الفعل حينما يتكرر على السمع والبصر يألفه الإنسان، حتى يزول الإنكار القلبي، ويستحسن المنكر ويرضى به، وهنا مكمّن الخطر على أصل الإيمان والتوحيد.

يقول الغزالي - رحمه الله تعالى -: «مجالسة الفساق تبعث على مسارقة طباعهم وردية أخلاقهم، وهو داء دفين، قلّ ما يتنبه له العقلاء، فضلاً عن الغافلين، إذ قلّ أن يجالس الإنسان فاسقاً مدة - مع كونه منكرًا عليه في باطنه - إلا لو قاس نفسه إلى ما قبل مجالسته، لوجد فرقاً في النفور

(١) الترمذي (١/ ٢١٩)، أبو داود (٢٦٤٧)، وصححه الألباني.

عن الفساد؛ لأن الفساد يصير بكثرة المباشرة هيناً على الطبع، ويسقط وقعه واستعظامه»<sup>(١)</sup>.

- **الدرس الثاني:** وبناء على ما سبق فإنه لا يجوز الجلوس في المجالس التي يخوض الناس فيها بالباطل أو السخرية من الحق وأهله إلا لمنكر فإن تغير المنكر، وإلا وجب هجر هذه المجالس والبراءة منها.

قال الله ﷻ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكُتُبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ أَنْتُمْ إِذَا مَثَلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

- **الدرس الثالث:** ويلحق بمجالس الكفر والنفاق والفسوق كتبهم ومقالاتهم ومجلاتهم ومواقعهم وقنواتهم، لاسيما التي ظهرت وطمت وعمت في زماننا اليوم، ولذلك بوب علماء أهل السنة في كتبهم أبواباً في النهي عن مجالسة أهل البدع وقراءة كتبهم والسماع لشبهاتهم، وحذر العلماء المعاصرون والدعاة والمربون المسلمين بمختلف شرائحهم من اقتناء كتب ومجلات وقنوات أهل الكفر والفسوق والنفاق، أو الدخول على مواقعهم في الشبكة العنكبوتية وما أكثرها اليوم، وأفتوا بحرمة النظر أو

(١) «إحياء علوم الدين» (٢/٢٣٠).

السماع لهذه القنوات والمقالات التي تخوض في آيات الله ﷻ وتجاهر وتشرعن المعاصي والمنكرات، وقد مر في الصفحات السابقة ذكر بعض أقوال السلف ومواقفهم في أهل البدع ومجالستهم.

- **الدرس الرابع:** ومما يلحق بما سبق الدخول على الظلمة من ولاة وأمراء، ورؤية الظلم والترف ولبس الحق بالباطل، فإن في ذلك تكدر القلب والركون إليهم، والانحياز إلى صفهم وخذقهم، وقد يتول الأمر إلى محبتهم والثناء عليهم، وتزيين باطلهم وتبرير ظلمهم للناس، وفي هذا خطر عظيم على ولاء المسلم الذي لا يبذل إلا لله ورسوله والمؤمنين، ومن أجل ذلك كثر تحذير السلف من الدخول على الأمراء، والانبساط إليهم، وقبول أعطياتهم، وذلك في زمانهم فكيف في زماننا اليوم؟!

• **عن الأعمش:** عن مالك بن الحارث، عن عبد الرحمن بن يزيد، قلنا لعقمة: لو صلّيت في المسجد وجلسنا معك فتسأل، قال: أكره أن يقال هذا لعقمة، قالوا: لو دخلت على الأمراء، قال: أخاف أن ينقصوا مني أكثر مما أنتقص منهم<sup>(١)</sup>.

• **وعن معمر بن سليمان، عن فرات بن السائب، عن ميمون بن مهران قال:** ثلاث لا تبُلونَّ نفسك بهنَّ: لا تدخلُ على السلطان، وإن قلت: أمره

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٨).

بطاعة الله، ولا تُصغينَ إلى ذي هوى، فإنك لا تدري ما يعلق بقلبك منه،  
ولا تدخل على امرأة، ولو قلت: أعلمها كتاب الله (١).

• وعن سحنون قال: «أكلُ بالمسكنة، ولا أكلُ بالعلم، مُحِبُّ الدنيا  
أعمى لم يُنوره العلمُ، ما أقبحَ بالعالم أن يأتي الأمراء، والله ما  
دخلتُ على السلطان إلا وإذا خرجتُ حاسبتُ نفسي، فوجدتُ  
عليها الدرك، وأنتم ترونَ مخالفتي لهواه، وما ألقاهُ به من الغلظة،  
والله ما أخذتُ، ولا لبستُ لهم ثوبًا» (٢).

- الدرس الخامس: في مجانية مجالس الخائضين في آيات الله المستهزئين  
بها ضرب من ضروب البراءة من الكفر وأهله، وإظهار لكراهيتهم وكراهية  
مجالسهم، وهذا من لوازم كلمة التوحيد، التي تقوم على الولاء والبراء كما أن في  
هجر ومقاطعة هذه المجالس إغاظةً لأهلها، وإظهار بغضها وقد يكون في ذلك  
سبباً لهداية بعضهم وجعلهم يفكرون في أحوالهم، ولماذا هجر المسلمون  
مجالسهم.



(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/٧٧).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٢/٦٥).

## • الوقفة الرابعة عشرة •

عند قوله تعالى: ﴿وَحَاجَّهٖ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحْجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٣].

في هذه الآيات ذكر محاجة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام لقومه، وتفنيدهم، وإقامة الحجة عليهم.

يقف الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - عند هذه الآيات فيقول: «فحاجه قومه في الله، ومن حاج في عبادة الله فحجته داحضة، فقال إبراهيم عليه السلام: ﴿أَتُحْجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾. وهذا من أحسن الكلام، أي: أتريدون أن تصرفوني عن الإقرار بربي وبتوحيده، وعن عبادته وحده، وتشككوني فيه؛

وقد أرشدني وبين لي الحق، حتى استبان لي كالعيان، وبين لي بطلان الشرك وسوء عاقبته، وأن آلهتكم لا تصلح للعبادة، وأن عبادتها توجب لعابديها غاية الضرر في الدنيا والآخرة، فكيف تريدون مني أن أنصرف عن عبادته وتوحيده إلى الشرك به؟ وقد هداني إلى الحق، وسبيل الرشاد؟ فالمحاجة والمجادلة إنما فائدتها طلب الرجوع والانتقال من الباطل إلى الحق ومن الجهل إلى العلم، ومن العمى إلى الإبصار، ومجادلتكم إياي في الإله الحق الذي كل معبود سواه باطل متضمن خلاف ذلك؛ فخوفه بآلهتهم أن تصيبه بسوء، كما يخوف المشرك الموحد بإلهه الذي يألهه مع الله أن يناله بسوء، فقال الخليل: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: ٨٠]. فإن آلهتكم أقل وأحق من أن تضر من كفر بها وجحد عبادتها، ثم رد الأمر إلى مشيئة الله وحده، وأنه هو الذي يخاف ويرجى، فقال: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ [الأنعام: ٨٠]. وهذا استثناء منقطع، والمعنى: لا أخاف آلهتكم، فإنها لا مشيئة لها ولا قدرة، لكن إن شاء ربي شيئاً نالني وأصابني، لا آلهتكم التي لا تشاء ولا تعلم شيئاً، وربى له المشيئة النافذة، وقد وسع كل شيء علماً، فمن أولى بأن يخاف ويعبد: هو سبحانه، أم هي؟

ثم قال: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠]. فتعلمون ما أنتم عليه من

إشراك من لا مشيئة له ولا يعلم شيئاً ممن له المشيئة التامة، والعلم التام.

ثم قال: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ﴾ [الأنعام: ٨١].

وهذا من أحسن قلب الحجة، وجعل حجة المبطل بعينها دالة على فساد قوله، وبطلان مذهبه، فإنهم خوفوه بالهتهم التي لم ينزل الله عليهم سلطاناً بعبادتها، وقد تبين بطلان إلهيتها ومضرة عبادتها، ومع هذا فلا تخافون شرككم بالله، وعبادتكم معه آلهة أخرى؟ فأى الفريقين أحق بالأمن، وأولى بالألحقة الخوف؟ فريق الموحدين، أم فريق المشركين؟

فحكم الله سبحانه بين الفريقين بالحكم العدل، الذي لا حكم أصح منه، فقال: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَنَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ أي: بشرك. ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢].

ولما نزلت هذه الآية شقَّ أمرها على الصحابة، وقالوا: يا رسول الله، وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال: «إنما هو الشرك: ألم تسمعوا قول العبد الصالح: ﴿ رَبِّكَ الشِّرْكَ أَظْلَمُ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]» (١).

فحكم سبحانه للموحدين بالهدى والأمن، وللمشركين بضد ذلك،

(١) البخاري (٣٣٦٠)، ومسلم (١٢٤).

وهو الضلال والخوف، ثم قال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (٨٢) [الأنعام: ٨٣] (١).

ويقول صاحب «الظلال» - رحمه الله تعالى - عند هذه الآيات: «إن الفطرة حين تنحرف تضل؛ ثم تتمادى في ضلالها، وتتسع الزاوية ويبعد الخط عن نقطة الابتداء، حتى ليصعب عليها أن تثوب.. وهؤلاء قوم إبراهيم عليه السلام يعبدون أصنامًا وكواكب ونجومًا، فلا يتفكرون ولا يتدبرون هذه الرحلة الهائلة التي تمت في نفس إبراهيم، ولم يكن هذا داعيًا لهم لمجرد التفكير والتدبر، بل جاءوا يجادلونه ويحاجونه، وهم على هذا الوهن الظاهر في تصوراتهم وفي ضلال مبين.

ولكن إبراهيم المؤمن الذي وجد الله في قلبه وعقله وفي الوجود كله من حوله، يواجههم مستنكرًا في طمأنينة ويقين ﴿أَتَحْجُجُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ ..

أتجادلونني في الله وقد وجدته يأخذ بيدي، ويفتح بصيرتي، ويهديني

(١) «إغاثة اللفهان» (٢/ ٢٥٣).



إليه، ويعرفني به، لقد أخذ بيدي وقادني فهو موجود - وهذا هو في نفسي دليل الوجود - لقد رأيته في ضميري وفي وعيي، كما رأيته في الكون من حولي، فما جدالكم في أمر أنا أجده في نفسي، ولا أطلب عليه الدليل، فهدايتي لي إليه هي الدليل؟!!

﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ .. وكيف يخاف من وجد الله؟ وماذا يخاف ومن ذا يخاف؟ وكل قوة - غير قوة الله - هزيلة وكل سلطان - غير سلطان الله - لا يُخاف؟!!

ولكن إبراهيم في عمق إيمانه، واستسلام وجدانه، لا يريد أن يجزم بشيء إلا مرتكناً إلى مشيئة الله الطليقة، وإلى علم الله الشامل:

﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

فهو يكل إلى مشيئة الله حمايته ورعايته؛ ويعلن أنه لا يخاف من آلهتهم شيئاً، لأنه يركن إلى حماية الله ورعايته، ويعلم أنه لا يصيبه إلا ما شاء الله، ووسعه علمه الذي يسع كل شيء.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨١).

إنه منطق المؤمن الواثق المدرك لحقائق هذا الوجود، إنه إن كان أحد قميناً بالخوف فليس هو إبراهيم، وليس هو المؤمن الذي يضع يده في يد الله ويمضي في الطريق، وكيف يخاف آلهة عاجزة - كائنة ما كانت هذه الآلهة، والتي تبدى أحياناً في صورة جبارين في الأرض بطاشين؛ وهم أمام قدر الله مهزولون مضعوفون! - كيف يخاف إبراهيم هذه الآلهة الزائفة العاجزة، ولا يخافون هم أنهم أشركوا بالله ما لم يجعل له سلطاناً ولا قوة من الأشياء والأحياء؟ وأي الفريقين أحق بالأمن؟ الذي يؤمن به ويكفر بالشركاء؟ أم الذي يشرك بالله ما لا سلطان له ولا قوة؟ أي الفريقين أحق بالأمن، لو كان لهم شيء من العلم والفهم؟!

هنا يتنزل الجواب من الملاء الأعلى؛ ويقضي الله بحكمه في هذه القضية: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾. الذين آمنوا وأخلصوا أنفسهم لله، لا يخلطون بهذا الإيمان شركاً في عبادة ولا طاعة ولا اتجاه، هؤلاء لهم الأمن، وهؤلاء هم المهتدون...» (١) ا.هـ.

---

(١) «في ظلال القرآن» (٢/ ١١٤١، ١١٤٢).

الدروس المستفادة من هذه الآيات:

- **الدرس الأول:** إن الأمن والثبات والطمأنينة والسكينة لا تسكن إلا في قلب الموحد لربه، البريء المتبرئ من الشرك وأهله، فإذا ذهب التوحيد أو ضعف في القلب ذهب الأمن والطمأنينة، أو ضعفتا وحل محلهما الخوف والقلق والاضطراب، وهذا الأمن يسري على الأفراد والأمم والمجتمعات بل البشرية جمعاء، حيث لا أمن ولا أمان إلا في ظل الإسلام والإيمان، وإلا فالخوف والظلم والطغيان، والواقع شاهداً على ذلك.

- **الدرس الثاني:** قوة حجة الموحد وارتفاعها على حجة المشرك الداحضة المتهافته وقهرها لكل حجة تخالفها، وذلك بحسب علم العبد بربه وأسمائه وصفاته وشرعه؛ فكلما قوى العلم بالحق قويت الحجة وارتفع شأن صاحبها، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٢﴾﴾؛ فالعلم يرفع صاحبه درجات فوق العباد خصوصاً العالم العامل، حيث يجعله إماماً للناس.

- **الدرس الثالث:** توحيد الله عَزَّوَجَلَّ والبراءة من الشرك يثمران لصاحبهما الأمن والأمان والهداية والسلامة من المخاوف في الدنيا ويوم موته وفي قبره وعند البعث يوم الحساب.

بخلاف الشرك - والعياذ بالله تعالى - فإنه يورث لصاحبه الخوف والشقاء والخذلان في دنياه ويوم موته وفي قبره ويوم يبعث يوم القيامة حيًّا، والعبد محتاج إلى الأمن في جميع أحواله ولكن حاجته إلى الأمن والسلامة في هذه المواطن أشد، ولذلك امتن الله ﷻ على أنبيائه وأوليائه الموحدين بذلك، كما في قوله تعالى عن يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام: ﴿وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ١٥﴾ [مريم: ١٥]، وذكر مقولة عبده ورسوله عيسى عليه الصلاة والسلام في مهده: ﴿وَأَسَلِّمْ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ٣٣﴾ [مريم: ٣٣].

ويعلق الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى على هذه الآيات بقوله: «قيل: ما الحكمة في تقييده السلام في قصتي يحيى والمسيح صلوات الله عليهما بهذه الأوقات الثلاثة؟»

فَسِرُّهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ: أن طلب السلامة يتأكد في المواضع التي هي مظان العطب، ومواطن الوحشة، وكلما كان الموضع مظنة ذلك تأكد طلب السلامة، وتعلقت بها الهمة، فذكرت هذه المواطن الثلاثة لأن السلامة فيها آكد وطلبها أهم، والنفس عليها أحرص، لأن العبد فيها قد انتقل من دار كان مستقرًا فيها موطن النفس على صحبتها وسكنائها إلى دار هو فيها معرض

للآفات والمحن والبلاء؛ فإن الجنين من حين خرج إلى هذه الدار انتصب لبلائها وشدائدها ولأوائها ومحنها وأفكارها..

**الموطن الثاني:** خروجه من هذه الدار إلى دار البرزخ عند الموت، ونسبة الدنيا إلى تلك الدار كنسبة داره في بطن أمه إلى الدنيا تقريباً وتمثيلاً، وإلا فالأمر أعظم من ذلك وأكبر، وطلب السلامة أيضًا عند انتقاله إلى تلك الدار من أهم الأمور.

**الموطن الثالث:** موطن يوم القيامة يوم يبعث الله الأحياء، ولا نسبة لما قبله من الدور إليه، وطلب السلامة فيه أكد من جميع ما قبله؛ فإن عطبه لا يستدرك، وعثرته لا تقال، وسقمه لا يداوى، وفقره لا يسد، فتأمل كيف خص هذه المواطن بالسلام لشدة الحاجة إلى السلامة فيها، واعرف قدر القرآن، وما تضمنه من الأسرار، وكنوز العلم والمعارف التي عجزت عقول الخلائق عن إحصاء عشر معشارها»<sup>(١)</sup>.

- **الدرس الرابع:** إن أمن الناس واهتداهم وجودًا وعدمًا ليس على درجة واحدة، وإنما يتفاوت الناس في الحصول عليهما، أو فقدهما بحسب

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ١٦٨، ١٦٩) باختصار.

ما يكون عند العبد من الإيمان والتوحيد، وذلك حسب الفئات التالية:

**الفئة الأولى:** من يكون لهم الأمن التام والاهتداء التام في جميع أحوالهم في الدنيا والآخرة، وهم الذين حققوا التوحيد، وسلموا من ظلم العباد وأدوا الواجبات، وتركوا المحرمات، وماتوا على توبة نصوح من جميع الذنوب، فهؤلاء لهم الأمن والاهتداء المطلقان.

**الفئة الثانية:** من يحصل لهم الأمن والاهتداء بدخولهم الجنة في نهاية أمرهم بسبب ما معهم من التوحيد، لكنهم معرضون للخوف في الدنيا أو في البرزخ، أو يوم القيامة بسبب ظلمهم لأنفسهم ببعض المعاصي، التي لم يتوبوا منها، أو بظلمهم للعباد؛ فهؤلاء أهل الأمن والاهتداء الناقصين، فهؤلاء لهم مطلق الأمن والاهتداء، وليس لهم الأمن والاهتداء المطلقان.

**الفئة الثالثة:** من حُرِّموا أصل الأمن والاهتداء بسبب ما تلبَّسوا به من الظلم الأكبر وهو الشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ، فهؤلاء ليس لهم أمن ولا اهتداء لا في الدنيا ولا في البرزخ ولا في الآخرة، وإنما هم في عذاب وخوف لا ينقطع.

ويوضح أحوال هذه الفئات ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عند كلامه عن أنواع الظلم الثلاثة، حيث يقول رحمه الله تعالى: «فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة؛ كان له الأمن التام، والاهتداء التام، ومن لم

يسلم من ظلمه نفسه؛ كان له الأمن والاهتداء مطلقاً، بمعنى أنه لا بد أن يدخل الجنة كما وعد بذلك في الآية الأخرى، وقد هداه إلى الصراط المستقيم الذي تكون عاقبته فيه إلى الجنة، ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه نفسه، وليس مراد النبي ﷺ بقوله: «إنما هو الشرك» أن من لم يشرك الشرك الأكبر، يكون له الأمن التام، والاهتداء التام، فإن أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر معرّضون للخوف، لم يحصل لهم الأمن التام ولا الاهتداء التام، الذي يكونون به مهتدين إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من غير عذاب يحصل لهم؛ بل معهم أصل الاهتداء إلى هذا الصراط، ومعهم أصل نعمة الله عليهم، ولا بد لهم من دخول الجنة.

وقول النبي ﷺ: «إنما هو الشرك» إن أراد به الشرك الأكبر، فمقصوده أن من لم يكن من أهله، فهو آمن مما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة وهو مهتد إلى ذلك، وإن كان مراده جنس الشرك؛ فيقال: ظلم العبد نفسه ك: بخله لحب المال ببعض الواجب؛ هو شرك أصغر، وحبه ما يبغضه الله حتى يكون يقدم هواه على محبة الله شرك أصغر، ونحو ذلك،

فهذا صاحبه قد فاته من الأمن والاهتداء بحسبه، ولهذا كان السلف يدخلون الذنوب في هذا الظلم بهذا الاعتبار»<sup>(١)</sup> .هـ.

وقد أكد هذا المعنى الشيخ السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾<sup>(٨٢)</sup> . حيث قال: «فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقاً، لا بشرك، ولا بمعاصي، حصل لهم الأمن التام، والهداية التامة، وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده، ولكنهم يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية، وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها.

ومفهوم الآية الكريمة: أن الذين لم يحصل لهم الأمان، لم يحصل لهم هداية، ولا أمن؛ بل حظهم الضلال والشقاء»<sup>(٢)</sup> .

- **الدرس الخامس:** إن هذه الآيات في محاجة إبراهيم عليه السلام لقومه وعلوه عليهم، وما تلاها من التعقيب في بيان حقيقة الأمن بينت بمنطوقها من أهم أهل الأمن، الذين هم أسعد به وبمفهومها من هم أعداء الأمن والسلام، فأهل الأمن الذين يشعرون به في أنفسهم، ويسعون إلى نشره والدعوة إليه

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/٨١، 82).

(٢) «تفسير السعدي» (٢/٣٩).



هم المؤمنون الموحدون الناصحون لأمتهم، المحذرون لها مما يكدر عليهم أمنهم وطمأنيتهم.

وأعداء الأمن والسلام على الضد من ذلك هم الذين يرفضون الاهتداء بهدى الله ﷻ، ويرفضون الحكم بشريعة الله ﷻ أو التحاكم إليها؛ فكل من ناصب هذا الدين العدا، وسعى لصدّ الناس عنه، وحرّمهم من نعمة الأمن في ظلاله، وكان سبباً في حلول عقوبة الله ﷻ في الناس، سواء في الدنيا أو في الآخرة في عذاب النار، فهو العدو الحقيقي لأمن الناس، وسلامتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة؛ سواء كان هذا الصد عسكرياً أو فكرياً أو أخلاقياً، وسواء كان هذا العدا على الدين والأخلاق، أو على الأنفس والأموال والأعراض.

وأسوق فيما يأتي ثلاث آيات من كتاب الله ﷻ فيها البيان الشافي في تحديد من هم أهل الأمن ودُّعائه، ومن هم أعداؤه والصادين الناس عنه، وعن أسبابه:

- الآية الأولى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِيْنَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوْا ۗ وَالْأُمَّةُ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِيْنَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوْا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ

مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ  
بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ [البقرة: ٢٢١].

- الآية الثانية: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ  
الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النساء: ٢٧].

- الآية الثالثة: ﴿وَيَقَوْمٍ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ  
﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ  
إِلَى الْعَزِيزِ الْفَعْرِ ﴿٤٢﴾﴾ [غافر: ٤١، ٤٢].

إنه لا بد من فضح الأعداء الحقيقيين لأمن الناس الذين يترسون وراء  
مكافحة الإرهاب، والحرص على توفير الأمن للناس؛ مع أنهم مصدر  
الإرهاب والخوف والجرائم والفساد، وبيان ذلك بالأدلة الموثقة من  
أقوالهم وأفعالهم وجرائمهم الشنيعة، وإفسادهم للدين والنفس والعقل  
والمال والعرض بشتى وسائلهم، وبيان ما تعانيه مجتمعاتهم من الأمراض  
النفسية والاجتماعية البشعة، التي أتلفت الأنفس والأموال والأعراض،  
وساعدتهم في ذلك أناس من المنافقين من بني جلدتنا، غرتهم أنفسهم  
وشياطينهم من الإنس والجن، فراحوا ينفذون ما يريده الغرب الكافر في

تغريب الأمة، والسير بها في ركاب الغرب، ووضعوا أنفسهم جنباً إلى جنب في خندق الكفار في مواجهة مصلحي الأمة ومجاهديها بحجة مكافحة التطرف والإرهاب، فكان لا بد من فضح هؤلاء وأسيادهم وتعريف الناس بأنهم هم الأعداء الحقيقيون للأمن، وبيان خداعهم للناس؛ لأنه ما دام أن الحق مختلط بالباطل، وسبيل المجرمين لم يتميز عن سبيل المؤمنين؛ فإن أمر هذا الدين سيبقى مشوهاً عند الناس، وسيبقى الالتباس فيه قائماً، مما يؤدي إلى ظهور الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحق؛ عياداً بالله من ذلك.

كما أن استبانة سبيل المجرمين ومناهجهم تساعد في تميز الصف المؤمن، وتنقيته من شوائب النفاق والمنافقين، وهذا أمر مهم وعامل أساس لإظهار الحق وإزهاق الباطل: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

والملاحظ في السنوات الأخيرة كثرة الكتابة عن الأمن والإرهاب والإرهابيين، وتناول الكتاب والباحثون ووسائل الإعلام المختلفة هذه الظاهرة من زوايا مختلفة؛ بعضهم عن خبث ومكر، وبعضهم عن جهل وتغريب، ولا يزال الاهتمام بالإرهاب وما يتفرع عنه يتنامى، ويتعاضم بفضل

الدعاية والإعلان والإعلام، حتى أصبح حديث الناس ووسيلة ضغط على الرأي العام، وتبنى ذلك دول ذات قوة ونفوذ كدولة أمريكا الطاغية تحذوها مصالح خاصة وأهداف غير خفية على المتأملين والمستبصرين، والأدهى من ذلك أن تنطلي هذه الدعايات الكاذبة الباطلة على كثير من المسلمين، فكان لزاماً بيان حقيقة الأمن والإرهاب في ميزان الشريعة، وقطع أو بيان حقيقة الملبسين المضللين الذين يتلاعبون بالمصطلحات للصد عن سبيل الله عز وجل، وبيان أنهم هم الأعداء الحقيقيون للأمن والسلام بل هم الأعداء للبشرية والإنسانية جمعاء» (١).



(١) يرجع لكتاب «فأي الفريقين أحق بالأمن»، ومقال «الإرهاب في ميزان الإسلام» للمؤلف.

## • الوقفة الخامسة عشرة •

عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى عند هذه الآية: «ينهى الله المؤمنين عن أمر كان جائزاً، بل مشروعاً في الأصل، وهو سب آلهة المشركين، التي اتخذت أوثاناً وآلهة مع الله، التي يتقرب إلى الله بإهانتها وسبها.

ولكن لما كان هذا السب طريقاً إلى سب المشركين لرب العالمين، الذي يجب تنزيه جنابه العظيم عن كل عيب، وآفة، وسب، وقدح، نهى الله عن سب آلهة المشركين، لأنهم يحمون لدينهم، ويتعصبون له، لأن كل أمة، زين الله لهم عملهم، فأوه حسناً، وذبوا عنه، ودافعوا بكل طريق، حتى إنهم ليسبون الله رب العالمين، الذي رسخت عظمته في قلوب الأبرار والفجار، إذا سب المسلمون آلهتهم.

ولكن الخلق كلهم، مرجعهم ومآلهم إلى الله يوم القيامة، يعرضون عليه، وتعرض أعمالهم، فينبئهم بما كانوا يعملون، من خير وشر.

وفي هذه الآية الكريمة، دليل للقاعدة الشرعية وهو أن الوسائل تعتبر بالأمور التي توصل إليها، وأن وسائل المحرم، ولو كانت جائزة تكون محرمة، إذا كانت تفضي إلى الشر»<sup>(١)</sup>.

ويقول الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية: «وهذه الآية الكريمة - من آيات الأحكام - أخذ العلماء منها أصل (سد الذرائع)، لأن سب الأصنام بالنسبة إلى ذاته: جائز مطلوب، ولكن لما كان هذا الأمر المحمود الطيب - وهو سب الأصنام وتقبيحها - قد يؤدي إلى أمر آخر لا يجوز، وهو سب الله، مُنع هذا الشيء الطيب سدًّا للذريعة، التي تؤدي إليها مما لا ينبغي، وذريعة الشيء: أصلها وطريقه الموصلة إليه. ومعروف عند علماء الأصول: أن الذرائع ثلاثة أقسام:

قسم منها: يجب سدُّه إجماعاً، كما دلت عليه الآية الكريمة من سورة الأنعام، ودل عليه الحديث الصحيح المتفق عليه<sup>(٢)</sup>. وهذا القسم هو أن

(١) «تفسير السعدي» (ص ٢٦٨).

(٢) يقصد قوله: «إن من العقوق شتم الرجل والديه»، رواه البخاري (٥٩٧٣)، ومسلم (٩٠).

يكون هذا الأمر جائزاً أو مطلوباً، وليس في نفسه فساد في ذاته، أو فيه خير، إلا أنه يؤدي إلى شر عظيم، كَسَبِّ الأصنام، فإنه في ذاته طيب مطلوب، إلا أنه لما كان يكون سبباً لسب الله كان محرماً.

ومن هذا النوع، وهي الذريعة التي يجب سدها إجماعاً: حفر الآبار في طرق المسلمين، فلو جاء رجل إلى طريق المسلمين وحفر فيها بئراً ليلاً، وغطى فم البئر بشيء خفيف، فمن جاء مع الطريق وتردى في البئر ففعله وحفره البئر ليس في نفسه إهلاك لنفس ولا مال، ولكنه ذريعة لذلك يجب سدها ومنعها بالإجماع..

النوع الثاني من أنواع الذرائع الثلاث: نوع لا يجب سده بإجماع المسلمين، فهو ذريعة يجب إهدارها وإلغاؤها، ولا يجب سدها بإجماع المسلمين، وهذا النوع من الذرائع نوعان:

أحدهما: أن يكون الفساد بعيداً فيه، والمصلحة أرجح من الفساد فيه، ومثال هذا النوع: غرس شجر العنب، فإن غرس شجر العنب ذريعة إلى عصر الخمر التي هي أم الخبائث، قبحها الله، وقبح شاربها، إلا أن الذين يعصرون الخمر من المجتمع ويشربونه قلة في أقطار الدنيا، فممنفعة انتشار

العنب والزبيب في أقطار الدنيا مصلحة عظيمة ألغيت من أجل هذه المصلحة المفسدة التي قد يكون من شجر العنب بعصر الخمر منه؛ لأن الذي يعصرها أفراد قليلون ويشربونها، ولو ضاعت عقولهم بسبب شربها فمصلحة العالم العامة بوجود العنب والزبيب في أقطار الدنيا أعظم من هذه المصلحة المفسدة الجزئية، فألغيت هذه الذريعة وأهدرت.

والحاصل: أن المفسدة إذا عارضتها مصلحة، فلذلك ثلاث حالات:

- إما أن تكون المصلحة أعظم وأرجح، والمفسدة أقل، وهي مرجوحة.

- وإما أن تكون المفسدة أعظم.

- وإما أن يستويا.

- فإن كانت المصلحة أعظم - كما مثلنا - ألغيت الذريعة وأهدرت.
  - وإن كانت المفسدة أعظم، أو استويا؛ فإنه يجب سد الذريعة فيهما.
- هذان نوعان من أنواع سد الذرائع.

الأول: مجمع على سده.

والثاني: مجمع على عدم سده.



وهما طرفان وواسطة:

- طرف من الذرائع يجب سدُّه إجماعاً، مثلنا له بسبب الأصنام إن كان عبَدَتْهَا يسبون الله، وكحفر الآبار في طريق المسلمين، وهذا النوع يجب سده إجماعاً.

- ونوع لا يجب سده إجماعاً، كما مثلنا له بغرس شجر العنب، وواسطة هي محل الخلاف بين العلماء» (١).

﴿الدرس المهم من هذه الآية:﴾

وجوب العناية في الفتوى والأحكام بقاعدة سد الذرائع، وهي قاعدة عظيمة شريفة يحصل بإلغائها وعدم مراعاتها مفسد عظيمة في أديان الناس ونفوسهم وعقولهم وأعراضهم وأموالهم، والعجب ممن لا يراعيها في نظره للأحكام وما يفتي به الناس في أمور دينهم ودنياهم، مع أن ربع أحكام الشريعة الإسلامية في الكتاب والسنة قائم على هذه القاعدة، لأن المحرمات في الإسلام منها ما هو محرم لذاته، ومنها ما هو محرم لغيره، والمحرم لغيره إنما حرم لا لأنه في ذاته حرام، وإنما لكونه ذريعة إلى الوقوع في المحرم

(١) «العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير» تحقيق وجمع: خالد السبت (٢/٨٨-٩٤) باختصار.

لذاته، والأمثلة في ذلك كثيرة.

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى تسعة وتسعين وجهًا لهذه القاعدة في كتابه المشهور إعلام الموقعين، قدم لها بقوله: «لما كانت المقاصد لا يتوصل إليها إلا بأسباب وطرق تفضي إليها كانت طرقها وأسبابها تابعة لها معتبرة بها، فوسائل المحرمات والمعاصي في كراهتها والمنع منها بحسب إفضائها إلى غايتها وارتباطاتها بها، ووسائل الطاعات والقربات في محبتها والإذن فيها بحسب إفضائها إلى غايتها، فوسيلة المقصود تابعة للمقصود، وكلاهما مقصود، لكنه مقصود قصد الغايات، وهي مقصودة قصد الوسائل.

فإذا حرّم الربُّ تعالى شيئاً، وله طرق ووسائل تُفضي إليه، فإنه يحرمها ويمنع منها، تحقيقاً لتحريمه، وتثبيتاً له، ومنعاً أن يقرب حمّاه، ولو أباح الوسائل والذرائع المُفضية إليه لكان ذلك نقضاً للتحريم، وإغراءً للنفوس به، وحكمته تعالى وعلمه يأبى ذلك كل الإباء، بل سياسة ملوك الدنيا تأبى ذلك، فإن أحدهم إذا منع جنده أو رعيته أو أهل بيته من شيء، ثم أباح لهم الطرق والأسباب والذرائع الموصلة إليه لعدّ متناقضاً، ولحصل من رعيته وجنده ضدّ مقصوده.

وكذلك الأطباء إذا أرادوا حسم الداء منعوا صاحبه من الطرق والذرائع الموصلة إليه، وإلا فسد عليهم ما يرومون إصلاحه؛ فما الظن بهذه الشريعة الكاملة التي هي في أعلى درجات الحكمة والمصلحة والكمال؟ ومن تأمل مصادرهما ومواردها علم أن الله تعالى ورسوله سد الذرائع المفضية إلى المحارم بأن حرمها ونهى عنها، والذريعة ما كان وسيلة وطريقاً إلى الشيء...» (١).

ثم شرع في ذكر الأوجه والأمثلة المختلفة لهذه القاعدة، حيث ذكر تسعة وتسعين وجهاً ما يلي:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

فحرم الله تعالى سبَّ آلهة المشركين مع كون السب غيظاً وحمية لله وإهانة لآلهتهم، لكونه ذريعة إلى سبهم لله تعالى، وكانت مصلحة ترك مسبته تعالى أرجح من مصلحة سبنا لآلهتهم، وهذا كالتنبيه بل كالتصريح على المنع من الجائر، لئلا يكون سبباً في فعل ما لا يجوز.

(١) «إعلام الموقعين» (٣/١٧٩).

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبَنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]؛ فمنعهن من الضرب بالأرجل، وإن كان جائزاً في نفسه، لئلا يكون سبباً إلى سَمْع الرجال صوت الخلخال فيثير ذلك دواعي الشهوة منهم إليهن.

الثالث: أن النبي ﷺ كان يكف عن قتل المنافقين مع كونه مصلحة؛ لئلا يكون ذريعة إلى تنفير الناس عنه، وقولهم: إن محمداً يقتل أصحابه، فإن هذا القول يوجب النفور عن الإسلام ممن دخل فيه ومن لم يدخل فيه، ومفسدة التنفير أكبر من مفسدة ترك قتلهم، ومصلحة التأليف أعظم من مصلحة القتل.

الرابع: أنه ﷺ حرم الخلوة بالأجنبية ولو في إقراء القرآن، والسفر بها ولو في الحج وزيارة الوالدين، سدّاً لذريعة ما يحاذر من الفتنة وغلبات الطباع..

الخامس: أن الله تعالى أمر بغض البصر وإن كان إنما يقع على محاسن الخلقة والتفكر في صنع الله؛ سدّاً لذريعة الإرادة والشهوة المُفضية إلى المحذور..

السادس: أن النبي ﷺ نهى عن بناء المساجد على القبور، ولعن من فعل ذلك، ونهى عن تجصيص القبور، وتشريفها، واتخاذها مساجد، وعن الصلاة إليها وعندها، وعن إيقاد المصابيح عليها، وأمر بتسويتها، ونهى عن اتخاذها عيداً، وعن شد الرحال إليها؛ لئلا يكون ذلك ذريعة إلى اتخاذها أوثاناً والإشراك بها، وحرّم ذلك على من قصده، ومن لم يقصده، بل قصد خلافه سداً للذريعة..

السابع: قال الإمام أحمد: نهى رسول الله ﷺ عن بيع السلاح في الفتنة، ولا ريب أن هذا سدٌ للذريعة الإعانة على المعصية، ويلزم من لم يسد الذرائع أن يجوّز هذا البيع كما صرحوا به، ومن المعلوم أن هذا البيع يتضمن الإعانة على الإثم والعدوان. وفي معنى هذا كل بيع أو إجارة أو معاوضة تعين على معصية الله: كبيع السلاح للكفار والبغاة وقطاع الطريق، وبيع الرقيق لمن يفسق به أو يؤجره لذلك، أو إجارة داره أو حانوته أو خانه لمن يقيم فيها سوق المعصية، وبيع الشمع أو إجارته لمن يعصي الله عليه، ونحو ذلك مما هو إعانة على ما يبغضه الله ويسخطه.

ومن هذا عصر العنب لمن يتخذه خمراً، وقد لعنه رسول الله ﷺ هو والمعتصر معاً، ويلزم ممن لم يسد الذرائع ألا يلعن العاصر، وأن يجوز له أن يعصر العنب لكل أحد، ويقول: القصد غير معتبر في العقد، والذرائع غير معتبرة، ونحن مطالبون في الظواهر، والله يتولى السرائر، وقد صرحوا بهذا، ولا ريب في التنافي بين هذا وبين سنة رسول الله ﷺ...» (١).

ثم عقب على هذه الوجه وغيره بقوله: «وباب سد الذرائع أحد أرباع التكليف؛ فإنه أمر ونهي، والأمر نوعان، أحدهما: مقصود لنفسه، والثاني: وسيلة إلى المقصود، والنهي نوعان؛ أحدهما: ما يكون المنهي عنه مفسدة في نفسه، والثاني: ما يكون وسيلة إلى المفسدة؛ فصار سد الذرائع المفضية إلى الحرام أحد أرباع الدين» (٢).

من خلال هذه النقول النفيسة في أهمية مراعاة مآلات الفتوى المنطلقة من قاعدة سد الذرائع، يتبين لنا خطورة إهمالها، وأن ذلك يؤول إلى مفسدات كثيرة، وتحايلات على الشرع، ونشر للفساد من قبل المفسدين

(١) «إعلام الموقعين» (٣/١٨٣-٢٠٨)، وهذه سبعة أوجه من ضمن تسعة وتسعين وجهاً.

(٢) المصدر نفسه (٣/٢٠٨).

المتربصين بمثل هذه الفتاوى، والذين يسعون إلى توظيفها في مخططاتهم الخبيثة الداعية إلى مسايرة الركب، ومواكبة الغرب الكافر في أفكاره وأخلاقياته الفاسدة.

وإن المفتي الموفق هو الذي يتأنى في إفتاء المستفتين قبل إفتائهم، وبخاصة إذا كانت الفتوى تتعلق بالجوانب الاجتماعية في الأمة، أو بعلاقتها بالأمم الكافرة، أو ما يتعلق بالدعوة وأهلها، حيث يجب على المفتي أن يتأمل في المسائل المطروحة عليه، ويفهم واقعها ومقاصد أهلها وما يحيط بها من الملابسات، وما تؤول إليه على الفرد والمجتمع، ثم يفتي بعد ذلك على ضوء هذه المعلومات، وإن لم يفعل ذلك فقد يكون في الفتوى المجردة مفسدة على الأمة، وقد يكون من وراء السؤال من يتربص بالإجابة المحررة عليه، ليوظفها في إفساد الأمة في جوانبها الاجتماعية، أو الاقتصادية أو السياسية أو غيرها.

وينبه الشاطبي رحمه الله تعالى إلى ضرورة اعتبار المآلات في فتوى المجتهد، فيقول: «النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعاً، كانت الأفعال موافقة أو مخالفة، وذلك أن المجتهد لا يجتهد على فعلٍ

من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام، إلا بعد نظره إلى ما يتول إليه ذلك الفعل..»<sup>(١)</sup>.

ويعلق الأستاذ الريسوني على هذا النقل، فيقول: «... أي: أن المجتهد، حين يجتهد ويحكم ويفتي، عليه أن يقدر مآلات الأفعال، التي هي محل حكمه وإفثائه، وأن يقدر عواقب حكمه وفتواه، وألا يعتبر أن مهمته تنحصر في «إعطاء الحكم الشرعي»، بل مهمته أن يحكم في الفعل، وهو يستحضر مآله أو مآلاته، وأن يصدر الحكم وهو ناظر إلى أثره أو آثاره... فإذا لم يفعل، فهو إما قاصر عن درجة الاجتهاد أو مقصر فيها.

وهذا فرع عن كون «الأحكام بمقاصدها». فعلى المجتهد الذي أقيم متكلمًا باسم الشرع، أن يكون حريصًا أمينًا على بلوغ الأحكام مقاصدها، وعلى إفضاء التكاليف الشرعية إلى أحسن مآلاتها...»<sup>(٢)</sup>.

وأضرب أمثلة ثلاثة من واقعنا المعاصر: أحدهما اجتماعي، والآخر سياسي، والثالث دعوي ليتبين لنا من خلالها أثر الحكم في حال اعتبار المآلات، وفي حال عدم اعتبارها<sup>(٣)</sup>.

(١) «الموافقات للشاطبي» (١/١٤٠).

(٢) «نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي» (ص ٣٥٣).

(٣) هذه الأمثلة سبق أن ذكرتها في رسالة «فاستقم كما أمرت» منذ عشرين سنة، وأعيدها هنا للفائدة.



المثال الأول: الأحكام المتعلقة بالمرأة في مجالاتها المختلفة:

وذلك بأن يتعرض المفتي لمسائل كثيرة عن المرأة، كأن يُسأل عن الحجاب الشرعي، وحكم اختلاطها بالرجل، وهل يجوز قيادتها للسيارة؟.. وعن حكم النوادي الرياضية للنساء، وغير ذلك من المسائل التي تخصها. فإن أفتى المفتي في مثل هذه المسائل دون النظر إلى مآلات الحكم، أو دون النظر لمكر المستفتي، أو دون النظر لمن سيوظف الفتوى في مخططه المرسوم لإفساد المرأة، إذا لم يراع المفتي هذه الأمور، فإنه سيفتي فتوى مجردة كأن يقول بالرأي المرجوح في جواز كشف المرأة لوجهها، أو جواز اختلاطها بالرجل بالضوابط الشرعية! أو جواز قيادتها للسيارة، كما كانت تقود البعير والحمار في القديم!

أما إذا نظر المفتي في هذه المسائل وتأملها، ووعى واقعه الذي يعيشه، والذي ستتشر فيه فتواه، وماذا ستؤول إليه فتواه، ومن هم المفسدون الذين يتخذون الفتوى ذريعة لمفاسد يبيتونها وتطفح على ألسنتهم وكتاباتهم، إنه إذا نظر إلى ذلك كله، فإن الفتوى حينئذ ستأخذ في الاعتبار مفاسد كشف

الوجه في هذا الزمان، وما يترتب عليه من الفتن، وأنه باب إلى السفور والتبرج، وكذلك مفسد اختلاط المرأة بالرجل، وأن المتربصين بالمرأة يريدون زجها مع الرجل في كل ميادين العمل، ما يناسب المرأة منها وما لا يناسبها، وستكون سكرتيرة وعاملة في المصنع مع الرجل، تخلو به ويخلو بها، وغير ذلك من المفساد.

وكذلك ما يتعلق بقيادة السيارة؛ فعندما ينظر إلى المفساد العظيمة التي تؤول إليها، فإن الفتوى تتغير ولا يصبح الأمر شبيهاً بقيادة الحمار أو البعير! وإنما الأمر فيه من الأخطار ما الله به عليم، ولا يقال: إن هذا الكلام تخرُّص وتوهُّم، وإنما هو عين الحقيقة لمن تبصر واقعه، وما جدَّ فيه من الفتن والشور، ويكفي أن نلقي نظرة فاحصة على من وقع في هذه الفتن من بلدان المسلمين، لتكون شاهداً لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وليس المقام مقام تفصيل هذه المفساد، فهي أوضح من أن تفصل وتذكر، ولسنا بحاجة إلى ذكر ذلك كله، وإنما حاجتنا إلى أن يتقي الله بنو قومننا من الذين يتكلمون بلا علم أو وعي لواقعهم، فيفتون بلا مراعاة

لمآلات فتواهم فيضلون ويُضلون، ليتقوا الله في دين الأمة وأعراض المسلمين، وليحذروا من مكر الماكرين ومغالطات المفسدين، الذين يفرحون بمثل هذه الفتاوى، لينفذوا بها مخططاتهم الخبيثة باسم الشرع والدين.

وبالجملة: فإن المفتي الموفق في هذا الزمان هو الذي يأخذ حذره في فتواه، وبخاصة فيما يتعلق بالمرأة لأنها مستهدفة، ويراد لها أن تحاكي المرأة الغربية في زيها وممارساتها في نهاية الأمر، فإذا أدرك المفتي هذا المخطط الإفسادي، وأدرك حقيقة المعركة اليوم بين السفور والحجاب، فإنه حينئذ سيكون فطناً ولا يصدر فتواه إلا بعد روية ومعرفة بمآلات فتواه، وهذا يقتضي وعيه بالواقع، وسؤال أهل الخبرة والاختصاص والاستفصال من السائل عن كل ما يتعلق بسؤاله، ويفصل في جوابه بحيث يسد على المفسد أي باب يمكن أن يدخل منه في توظيف الفتوى في غير مقصودها.

والمصيبة اليوم أن الفتوى لم تعد قاصرة على أهلها، بل تسلق إليها كل رويضة من رجل وامرأة، وصغير وكبير، فأصبحنا نرى نساءً ورجالاً قد

وضعوا أنفسهم في رتبة المجتهدين في نوازل الأمة، فسودوا الصحف والمجلات بجرأتهم العجيبة على دين الله ﷻ وأحكامه، فهذا يفتي في حجاب المرأة ولباسها، وهذه تفتي في حكم سفرها بلا محرم وقيادتها للسيارة، وأخرى تفتي في حكم عملها مع الرجل، وغير ذلك من الفتاوى التي تصدر عن جاهل أو جاهلة بشرع الله ﷻ. ولو سألت هذا الظالم عن أركان الصلاة أو شروط الوضوء أو مفسدات الصوم لما علم لذلك جواباً! فكيف يبيح هؤلاء لأنفسهم الإفتاء في أمر يجهلون أدلته وقواعده؟ بينما لو تكلم أحد في غير اختصاصه من علوم الدنيا كالطب والهندسة لأنكروا عليه وشنعوا، ألا إنه الهوى والجرأة على دين الله ﷻ وأمنهم ممن يأخذ على أيديهم.

المثال الثاني: أحكام الصلح والسلام مع الكفار وتطبيع العلاقات مع اليهود:

وهذا مما كثرت فيه الأقوال، واختلطت فيه الأوراق، وذلك نتيجة لعدم تحقيق المناط، أو عدم مراعاة لمآلات الأحكام، وسبب هذا الخلط هو عدم معرفة الواقع، وأبعاد القضية، وما تؤول إليه في نهاية الأمر، فعندما

لا ينظر المفتي إلى هذه الأبعاد ومآلاتها، فإنه سيفتي فتوى مجردة، وسيقيسها على صلح الرسول ﷺ مع المشركين يوم الحديبية، أو على معاهدته ﷺ مع اليهود في المدينة، أو غيرها من معاهدات المسلمين مع الكفار، وسيكون الحكم بالجواز!

أما إذا نظر إلى حقيقة الواقع، وأن طرفي الصلح لا يمتنان إلى الإسلام بصلة؛ فطرف فيه الكافر الأصلي، والطرف الآخر ينسب نفسه للإسلام مع رفضه للإسلام وشريعة الرحمن، فكيف يقاس من هذا شأنه بالرسول ﷺ المستسلم شرع ربه ﷻ، القائم بأمر الله تعالى في كل شئونه وشئون الأمة؟ كيف يعطى هؤلاء الرافضون لشرع الله ﷻ فتوى من سيرة الرسول ﷺ مع أنهم لا يرضون بشريعة الإسلام، ولا يتحاكمون إليها؟ إن في هذا إهانة للإسلام وخدمة لأهواء الطواغيت.

وكذلك عندما ينظر المفتي إلى مآلات الحكم بجواز السلام الدائم مع العدو الكافر، والتي تطبخ اليوم في دهاليز السياسة، وما يترتب على التطبيع معهم من المفاسد العظيمة في أديان الناس وأنفسهم وعقولهم وأعراضهم وأموالهم، فإن الحكم حينئذ سيتغير، وسيكون الرفض والمنع سداً للذريعة وحماية للأمة من هذه الشرور العظيمة.

وقد يفتي المفتي بجواز الصلح المؤقت معهم لمصلحة، لكن إذا علم أن في هذا الحكم مجالاً لتوظيفه في الصلح الدائم، والإقرار المطلق لليهود في استيلائهم على بلاد المسلمين، فإن هذا الحكم سيتغير ما دام أنه ذريعة لمفاسد تنتهي إليه.

والمقصود: أن اعتبار قاعدة سد الذريعة، ومراعاة مآلات الفتوى لها الأثر الكبير في الوقوف أمام مخططات الأعداء الكفار منهم والمنافقون في تمرير مخططات الاستسلام والخنوع، وأن عدم اعتبارها فيه تقديم خدمة لأعداء الدين فيما يرومونه من الكيد لهذه الأمة.

المثال الثالث: خروج بعض رموز الدعوة في بعض المنابر الإعلامية المشهورة بفسادها:

دون الانتباه إلى ما قد يترتب على ذلك من المفاسد الجلية.

وحسبنا في هذا المثال أن نذكر بعض هذه المنزقات دون الحصر:

١- مما لا شك فيه أن استقلالية، وتميز الخطاب الدعوي الإسلامي مطلب أساس في ذاته قلباً وقالباً، قلباً على مستوى مضمون هذا الخطاب ذاته، وقالباً على مستوى وسائل الدعوة وأوعيتها، لذا فإن

خروج بعض الدعاة الرموز في منابر إعلامية تعلن في برامجها محاربتها الصريحة أو المبطنة للعقيدة، والأخلاق الإسلامية والفضيلة، فيه تزكية لهذه القنوات في أعين بعض الناس، كما أن خروج الداعية المتميز في القنوات بخاصة يجعله بعض الناس ذريعة لاقتناء هذه الأجهزة المفسدة.

٢- قد يتعرض الداعية الرموز إلى أسئلة محرجة من قبل هذه المنابر قد تدفعه إلى ألا يقول الحق فيها كاملاً، فيضطر إلى أن يأتي بأجوبة سياسية غامضة، من شأنها تضليل العامة والتدليس عليهم.

٣- قد يطلب من الداعية الرموز الحديث في مسائل يعرف الملبسون موقف الداعية منها: كالحديث عن الغلو والتكفير والحركات الجهادية، ولكنهم يريدون من ذلك توظيفها في محاربة الدعوة وأهلها، وقد يرى الداعية أنه يقول الحق فيها مجرداً، وينسى أن التوقيت قد لا يكون مناسباً لتناول مثل هذه القضايا، وقد يقدم الداعية الرموز بعض التنازلات أو المسوغات فيما يخص هذه القضايا، قد يرى أنها ضرورية في هذا الطرف أو ذاك، فيؤدي هذا

التغير في المواقف إلى إضعاف مكانته عند شباب الصحوة ومن ثمَّ إسقاط مرجعيته العلمية والدعوية عند باقي الأمة، وتصبح بذلك الساحة الإسلامية مفرغة من العلماء المرجعيات، وهذا ما يصبو إليه من وراء هذا النوع من الإعلام المشبوه.

والمقصود: أن على الداعية الرمز أن يراعي مآلات خروجه في هذه القنوات أو ما يقوله فيها، وألا ينسى المفاصد الكثيرة التي تترتب على مشاركاته، والتي قد لا يقدر بعض الدعاة ضخامة أخطارها، والله أعلم.

وقد وقفت على مقال نفيس كتبه الأستاذ خالد أبو الفتوح حفظه الله تعالى، يحذر فيه من المكر الإعلامي، وينبه الدعاة إلى أخطار المشاركة في وسائل الإعلام المفسدة.

يقوله فيه: «هنا يبرز سؤال جدير بالنقاش: هل أتاح القائمون على هذه الأجهزة الإعلامية العلمانية والمشبوهة الفرصة لبعض الدعاة والمشايخ والرموز الإسلامية بالظهور في تلك المنابر من أجل الخروج بالدعوة من نخبويتها بمخاطبة أكبر قطاع من الأفراد، ومن أجل التوسيع على رموز



الصحة بتمكينهم من وسائل دعوية جدية وفعالة، وإيصال الخير إلى الناس؟ أم أن لهؤلاء القائمين على تلك الأجهزة أهدافهم الخاصة، التي رأوا أن تحقيقها من خلال هذا النوع من الدعاة والمشايخ أجدى وأنفع؟

ثم تطرح تساؤلات أخرى لا تقل أهمية عن السابق: وما الذي يمنع من قيام هؤلاء الدعاة والرموز بدورهم من خلال هذه المنابر الإعلامية، حتى ولو كانت أهداف القائمين عليها خبيثة؟ ألا يبلغ هؤلاء كلمة حق أو موعظة مخلصه كانوا سيقولونها من على منابرهم الدعوية؟ أليس ذلك خيراً من ترك هذه المنابر بالكلية للفاسدين والمفسدين يصلون فيها ويجولون؟ ثم: ألم يكن الرسول ﷺ يذهب إلى متدييات المشركين في مكة ليبلغهم رسالة الله؟

نعم إن رسول الله ﷺ كان يذهب إلى متدييات المشركين ليدعوهم فيها، صحيح أن الرسول ﷺ كان يفعل ذلك، ولكنه مع ذلك كان يبلغ رسالة الله ﷻ كاملة غير منقوصة، كما يريد هو كما يقتضيه (البلاغ المبين)، وليس كما يميلها عليه المشركون، ولم يكن ﷺ يضع رغبات هؤلاء المشركين ولا النقاط المشتركة بينه وبينهم معياراً لاختيار طبيعة الموضوع

الذي سيتحدث فيه.. فهل يستطيع أن يفعل ذلك من يخرج الآن في منابر الإعلام العلماني؟ هل يستطيعون -إذا شأؤوا- أن يعيوا من فوق هذه المنابر اللات والعزى وهبل المعاصرين، فيبينوا -على سبيل المثال- حقيقة العلمانية والعلمانيين، وعمالتهم لأعداء الأمة، وحكمهم في دين الله، هل يستطيعون تجلية أصل الولاء والبراء والموالاتة والمعاداة، وإلى من ينبغي أن تصرف هذه الشعائر في الواقع..؟ هذه واحدة.

وأخرى: هي أن هذه المنابر لها جمهورها المختلف عن جمهور هؤلاء الدعاة والرموز؛ أي: أن من يتلقى من الدعاة هذه الجزئية التي تحدثوا فيها سيكمل عليها أجزاء أخرى من هذه المنابر نفسها بمعزل عن تصور هؤلاء الدعاة والرموز وتوجيهاتهم، كما أنه يصعب على هؤلاء الدعاة والرموز الوصول إلى هؤلاء المتلقين مرات أخرى، لتصحيح التشويه الذي يمكن أن يحدث للمعاني التي يريدون إيصالها من حديثهم، أو لاستكمال بقية أجزاء الصورة الدعوية كما يريدونها، وليس كما يريد العلمانيون القائمون على هذه المنابر، وذلك بعكس جمهورهم المرید لهم، أو الذي يستطيعون الوصول إليه بسهولة.

ونضرب لذلك مثلاً أعرف أنه ذو حساسية: فلو أن أحد المنابر الإعلامية هذه استضافت رمزاً إسلامياً للحديث عن موضوع يدور حول «مشكلة الغلو والتكفير»، فالمتوقع أن تدور محاور الحديث حول عناوين فرعية، مثل: «أصل هذه المشكلة وصلتها بالخوارج»، «انحراف أصحابها عن منهج أهل السنة»، «خطورة هذه المشكلة على المجتمع»، «مقترحات لمعالجة هذه المشكلة»...

طبعاً سوف يتحدث هذا الرمز من منطلق حرصه على الشباب وعلى توضيح منهج أهل السنة، وضمن إطار كلي (في ذهنه)، يتنظم فيه هذا الحديث وتستكمل صورته، وهذا الإطار وهذه الصورة تشمل أجزاء أخرى، مثل:

- خطر الإرجاء (المقابل للغلو والتكفير) وأثره في الأمة.
- التكفير في الأصل يقول به كل دين.
- أن الحديث هو عن خطر تكفير المسلمين، وليس عمن لم يحقق أصل دين الإسلام.
- الفرق بين التكفير بالمعصية - كما هو معتقد الخوارج - ومقالات

المتكلمين، والتكفير بنواقض الإسلام.

- أن الخطأ في التكفير - إذا كان الاجتهاد حسب أصول أهل السنة - هو خطأ فقهي وليس اعتقاديًا.

- أن الغلو صفة غير محصورة بالمسلمين، بل موجودة في كل دين وكل فكر، فهي مشكلة نفسية في الأساس.. إلى آخر هذه المسائل الجزئية التي يعرفها هذا الرمز بلا شك، ولكنها مع ذلك لن تطرح في هذه «الاستضافة».

بينما المنبر الإعلامي الذي يتحدث من خلاله هذا الرمز لا يشغله منهج أهل السنة ولا أهل البدعة، بل تشغله أمور أخرى يريد تثبيتها في ذهن الجمهور، مستغلًا هذه الجزئية، ومستكملاً عليها أجزاءً أخرى من الصورة التي تخصه هو، والتي يبثها سابقًا أو لاحقًا، مثل:

- أن المعارضين من الإسلاميين للنظام العلماني الحاكم يكفرون المسلمين «ولو افتراءً عليهم».

- أنهم خوارج منحرفون لا يمثلون أهل السنة والإسلام الصحيح «بل أن بعض النظم تشبههم بالذين خرجوا على الخليفة الراشد علي ابن أبي طالب (عليه السلام)».

- أنهم منحرفون أخلاقياً وسلوكياً.

- أن الوسطية والاعتدال هي التي يمثلها هذا النظام.

- أن مواجهتهم واجب على كل مواطن؛ لأنهم خطر على المجتمع كله.

وهكذا.. فبينما الرمز الإسلامي يتحدث في إطار علمي ضمن صورة دعوية كلية (ولكنها غائبة)، يستغل المنبر الإعلامي حديثه هذا، ويضعه ضمن جزئيات صورة كلية أخرى، ضمن إطار دعائي سياسي، مستهدفاً تثبيت شرعية النظام العلماني، الذي يتحدث باسمه ودعم استقراره، وخلع الغطاء الديني عن معارضيته السياسيين، الذين يصرح بعضهم بعدم الاعتراف بشرعية النظام من منطلق إسلامي.

ومن هنا كانت أهمية الحرص على تحديد محاور الحديث مع الرمز الإسلامي بالشكل السابق، واستبعاد المحاور الأخرى التي سوف تفسد عليه هدفه، والتي لن يستطيع الرمز استكمالها أمام هذا الجمهور الذي تلقي منه هذا (الطعم)!. وهو طعم لا يصح لإلقائه طيب ولا إعلامي ولا أي مفكر.. بل لا بد أن يكون عالمًا دينيًا ولا سيما أن كان رمزًا دعويًا» (١).



(١) «مجلة البيان»، العدد (١٧٤)، باختصار وتصرف يسيرين.

## • الوقفة السادسة عشرة •

عند قوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ [الأنعام: ١١٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجِدُوا لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ [الأنعام: ١٢١].

وقد قرنت بين هاتين الآيتين لتشابه مضمونهما مع أنهما مفصولتان عن بعضهما بعدة آيات، وكأن الآية الأولى توطئة للآيات بعدها الواردة في التشنيع على الكفار في تحليلهم وتحريمهم الأكل من بهيمة الأنعام أو الانتفاع بها حسب أهوائهم فيحلون ويحرمون من دون الله عَزَّ وَجَلَّ، الذي له وحده حق الحكم والتشريع والتحليل والتحريم والطاعة والاتباع.

يربط سيد قطب رحمه الله تعالى بين هاتين الآيتين، فيقول: «الآن نجيء إلى القضية التي جعلت هذه المقدمات كلها قاعدة لها.. قضية الحل

والحرمة فيما ذكر اسم الله عليه، وما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح.. وهي تأخذ أهميتها من ناحية تقرير المبدأ الإسلامي الأول: مبدأ حق الحاكمية المطلقة لله وحده؛ وتجريد البشر من ادعاء هذا الحق أو مزاولته في أية صورة من الصور.. وحين تكون القضية هي قضية هذا المبدأ، فإن الصغيرة تكون كالكبيرة في تحقيق هذا المبدأ أو نقضه.. ولا يهم أن يكون الأمر أمر ذبيحة يؤكل منها أو لا يؤكل؛ أو أن يكون أمر دولة تقام أو نظام مجتمع يوضع، فهذه كتلك من ناحية المبدأ، وهذه كتلك تعني الاعتراف بالوهية الله وحده؛ أو تعني رفض هذه الألوهية.

﴿ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ أَتَّبَعِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ ..

إنه سؤال على لسان رسول الله ﷺ للاستنكار، استنكار أن يتبعي حكمًا غير الله في شأن من الشؤون على الإطلاق، وتقرير لجهة الحاكمية في الأمر كله، وإفرادها بهذا الحق الذي لا جدال فيه، ونفي أن يكون هناك أحد غير الله يجوز أن يتجه إليه طالبًا حكمه في أمر الحياة كلها: ﴿ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ أَتَّبَعِي حَكَمًا ﴾.



ثم.. تفصيل لهذا الإنكار، وللملابسات التي تجعل تحكيم غير الله شيئاً مستنكراً غريباً.. إن الله لم يترك شيئاً غامضاً؛ ولم يجعل العباد محتاجين إلى مصدر آخر، يحكمونه فيما يعرض لهم من مشكلات الحياة: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾..

لقد نزل هذا الكتاب ليحكم بالعدل بين الناس فيما اختلفوا فيه، ولتتمثل فيه حاكمية الله وألوهيته، ثم لقد نزل هذا الكتاب مفصلاً، محتويًا على المبادئ الأساسية التي يقوم عليها نظام الحياة جملة، كما أنه تضمن أحكامًا تفصيلية في المسائل التي يريد الله تثبيتها في المجتمع الإنساني، مهما اختلفت مستوياته الاقتصادية والعلمية والواقعية جملة.. وبهذا وذلك كان في هذا الكتاب غناء عن تحكيم غير الله في شأن من شؤون الحياة.. هذا ما يقرره الله سبحانه عن كتابه، فمن شاء أن يقول: إن البشرية في طور من أطوارها لا تجد في هذا الكتاب حاجتها فليقل.. ولكن ليقبل معه.. إنه -والعياذ بالله- كافر بهذا الدين، مكذب بقول رب العالمين!

ثم إن هناك من حولهم ملابسة أخرى تجعل ابتغاء غير الله حكمًا في شأن من الشؤون أمرًا مستنكراً غريباً.. إن الذين أوتوا الكتاب من قبل

يعلمون أن هذا الكتاب منزل من عند الله، وهم أعرف بالكتاب لأنهم من أهل الكتاب» (١).

ويتحدث الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عند الآية الأولى فيقول: «قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾. فهذا يبين أن الحكم بين الناس؛ هو الله وحده بما أنزل من الكتاب المفصل، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فقوله: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا﴾، استفهام إنكار، يقول: كيف ابتغي

(١) «في ظلال القرآن» (٣/ ١١٩٤).

حکماً غیر الله، وقد أنزل کتاباً مفصلاً؟ فإن قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِیْ أَنْزَلَ إِلَیْکُمْ الْکِتٰبَ مُفَصَّلًا﴾ جملة في موضع الحال.

وقوله: ﴿مُفَصَّلًا﴾ ینین أن الکتاب الحاکم مفصل مبین؛ ضد ما یصفه به من یزعم: أن عقول الرجال تعارض بعض نصوصه، أو أن نصوصه خیلت أو أفهمت خلاف الحق لمصلحة المخاطب، أو أن لها معان لا تفهم ولا یعلم المراد منها، أو أن لها تأویلات باطلة، خلاف ما دلت علیه ظواهرها، فهؤلاء کلهم لیس الکتاب عندهم مفصلاً، بل مجمل مؤول، ولا یعلم المراد منه، والمراد منه خلاف ظاهره أو إفهام خلاف الحق، ثم قال: ﴿وَالَّذِیْنَ ءَاتٰیئَهُمُ الْکِتٰبَ یَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّنْ رَبِّکَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُوْنَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِیْنَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأنعام: ١١٤].

وذلك أن الکتاب الأول مصدق للقرآن، فمن نظر فيه؛ علم علماً یقیناً أن هذا وهذا من مشکاة واحدة، لاسیما في باب التوحید والأسماء والصفات، فإن التوراة من ذلك، لیس هو المبدل المحرف الذي أنکره الله علیهم، بل هو من الحق الذي شهد له القرآن وصدقه» (١).

(١) «مختصر الصواعق المرسله» (١/٢١٧).

وللإمام الشنقيطي رحمه الله تعالى كلام نفيس على هذه الآيات، يقول فيه: «ذكر بعض أهل العلم أن بعض الكفار طلبوا النبي ﷺ أن يتحاكم معهم إلى بعض الكهان، كما كانت عادة العرب إذا تنازعوا واختلفوا تحاكموا إلى بعض الكهنة - والعياذ بالله - فبين النبي ﷺ أن ربه أمره أن ينكر كل الإنكار على من يبتغي حكماً غير خالق السموات والأرض، الذي هو الحكيم العدل اللطيف الخبير قل: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا ﴾ [الأنعام: ١١٤]...»

والهمزة في قوله: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ ﴾ همزة إنكار، وهي تدل على إنكار الشيء وتشنيعه والتباعد منه.

والحُكْم: قال بعض العلماء: الحُكْم عند العرب أفضل من الحاكم؛ لأن الحاكم هو الذي يُوقع الحُكْم بين اثنين، قد يكون حُكْم عدل وقد يكون حُكْم جور، وأما الحُكْم لا تكاد العرب تطلقه إلا على الذي ينصف في حُكْمه، والمعنى: لا أطلب حُكْمًا غير الله لأن الله هو الحكم العدل اللطيف الخبير الذي هو الحاكم وحده (جل وعلا)..»

وهذه الآية الكريمة تبين لنا أن الحاكم هو خالق هذا الكون، هو الحكم وحده (جل وعلا) لا محاكمة إلا إليه، فالحلال هو ما أحله الله، والحرام هو ما حرمه الله، والدين هو ما شرعه الله، لا حُكْم إلا الله، ولا حُكْم

إِلَّا اللَّهُ - كما قد بينا هذا مرارًا - والله (جل وعلا) كما يتنزه أنه يكون له ولد، ويتنزه عن أن يكون له شريك، كذلك يتنزه عن أن يكون حاكم معه أو مُشْرِع معه، كما في قوله في عبادته: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وكما قال في حكمه: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]؛ فحكمه كعبادته، العبادة له وحده، والحكم له وحده (جل وعلا)؛ لأن الله هو الذي له الحكم، وقد بين (جل وعلا) في سورة المؤمن أن الحكم لا يكون إلا لمن هو أعظم من كل شيء، وأكبر من كل شيء، فلا يكون إلا لمن له سلطة عليا قاهرة حاکمة على كل شيء، وقد أشار الله لهذا في سورة المؤمن، حيث قال: ﴿ذَلِكُمْ بَأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾، ثم قال: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢]، فمن لم يكن بهذه المثابة من العلو والكبر فهو ضعيف مخلوق محتاج محكوم عليه مأمور منهي، ليس له الحكم، قد بينا هذا مرارًا، وعرفنا أنه يجب على سائر الناس أن يعرفوا أن الحكم لله وحده ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، ﴿وَلَا تُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]، وفي قراءة ابن عامر: ﴿وَلَا تُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ بصيغة النهي، فالحكم له (جل وعلا) وحده، فهو الذي يحلل، وهو الذي يحرم، وهو الذي يُشْرِع، فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه الله، فليس لأحد تشريع مع الله.

وقد قدمنا مرارًا أن الآيات القرآنية بكثرة دلت دلالة واضحة على أن كل من يُحَكِّم غير حكم الله، ويتحاكم إلى غير شرع الله، معتقدًا أن ذلك بمثابة حكم الله، أو أنه خير من حكم الله، كالذين يقولون: إن القرآن لا يصلح لهذا الزمن، ولا ينظم علاقات الدنيا بحسب التطور الحادث! من يقول هذا ويدعيه فهو كافر كافرًا مخرجًا من الملة بإجماع المسلمين، وشهادة القرآن، ورببه الذي جعله ربه هو الذي يجب أن يتبع تشريعه؛ فإن التشريع ووضع النظام من حقوق الربوبية، وكل من اتبع نظام أحد فقد جعله ربًّا.

والآيات القرآنية الدالة على هذا الموضوع لا تكاد أن تحصر في المصحف.

وقد جاء موضحة كثيرًا في هذه السورة الكريمة سورة الأنعام - السورة العظيمة - لأن الله بين فيها أن المشركين لما جاءهم الشيطان وأوحى إلى كفرة قريش وحي الشياطين أن يقولوا للنبي ﷺ: الشاة تصبح ميتة من هو الذي قتلها؟ رجل تكون عنده الغنم فتصبح منها شاة ميتة، قالوا: من هو الذي قتل هذه الشاة؟ فقال لهم: الله قتلها، فقالوا: كيف تقولون: إنها ميتة جيفة مستقدرة وهي ذبيحة الله؟ ما ذبحتموه بأيديكم تقولون: حلال مستلذ

طيب، وما ذبحه الله بيده الكريمة تقولون: جيفة ميتة حرام مستقذر! فأنتم إذا أحسن من الله! فأنزل الله (جل وعلا) في ذلك - بإجماع المفسرين - هذه الآية الآتية عن قرب من سورة الأنعام، وهي قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]. يعني: لا تأكلوا الميتة وإن زعموا أنها ذبيحة الله، وأنه ذبحها بيده الكريمة بسكين من ذهب، ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾. أي: وإن أكل الميتة لفسق، أي: خروج عن طاعة الله.

ثم قال - وهو محل الشاهد -: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، إن أطعتم أتباع إبليس في قانون إبليس ونظام إبليس أن الميتة حلال، وأنها ذبيحة الله، وأن ذبيحة الله أحسن من ذبيحتكم، إن اتبعتم في هذا: النظام الإبليسي والقانون الشيطاني الذي يبيح الميتة التي حرمها الله على لسان سيد الخلق - صلوات الله وسلامه عليه - إن اتبعتم في هذا: النظام الإبليسي، والتشريع الشيطاني إنكم لمشركون، فالله صرح بأن من اتبع نظام إبليس في تحليل مضغة من لحم هي لحم الميتة حرمها الله على لسان نبيه، صرح الله بأنه مشرك، حيث قال: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وهذا شرك ربوبية، حيث اتبعتم تشريع الشيطان، والتشريع من خصائص الربوبية، فقد جعلتم الشيطان هو ربكم - والعياذ بالله - وهؤلاء

الذين يتبعون تشريع إبليس وقانون الشيطان ونظامه الذي يشرع على السنة أوليائه من الكفرة الفجرة، هم الذين يوبخهم الله يوم القيامة في السورة الكريمة سورة يس، ويبين مصيرهم كما بينه في قوله: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَئِءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾. يعني: ألم أوصكم في دار الدنيا أن لا تعبدوا الشيطان؟ وعبادة الشيطان الذي عهد إليهم فيها: ألا يتبعوا نظامه وقانونه في تحليل المعاصي والكفر - والعياذ بالله - ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَئِءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي ﴾، واتبعوا تشريعي الذي أنزلته على السنة أنبيائي ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾.

ثم بين للذين اتبعوا طرق الشيطان ونظامه وشرعه، فاتبعوا المعاصي والكفر في تحليل الشيطان وتزيينه، قال الله فيهم: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾، ثم بين المصير النهائي لمتبعي نظام الشيطان وتشريع إبليس بقوله: ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصَلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَشَهِدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يس: ٦٣-٦٥].

ولذا قال نبي الله إبراهيم الخليل -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام-: ﴿ يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ ﴾ [مريم: ٤٤]، يعني: لا تعبد الشيطان، لا تتبع النظام الذي يزينه لك ويزخرفه من زخرف القول



غورًا، من عبادة الأوثان، والكفر بالله والمعاصي - والعياذ بالله - وقد قال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا آتِنَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧]. يعني: ما تعبدون إلا شيطانًا، وعبادتهم للشيطان هي اتباعهم ما يشرع لهم ويحلل لهم - والعياذ بالله - وقد سمى الله في هذه السورة الكريمة - سورة الأنعام - سمى الذين يطاعون في معصية الله سماهم شركاء لله، حيث أطيعوا في معصيته؛ وذلك في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧]. فسماهم شركاء لما قالوا لهم: اقتلوا أولادكم فقتلوهم.

وقد ثبت عن عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سأل النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا﴾ [التوبة: ٣١]، قال: يا نبي الله كيف اتخذوهم أربابًا؟ قال: «ألم يُحلوا لهم ما حرم الله، ويحرموا عليهم ما أحل الله فاتبعوهم؟» قال: بلى، قال: «بذلك اتخذوهم أربابًا»<sup>(١)</sup>.

وقد أوضح الله (جل وعلا) في السورة الكريمة - سورة النساء - أن الذي يدعي الإيمان ويُحَكِّم شرعًا غير شرع الله أن دعواه الإيمان إنها بالغة

(١) روى هذا الحديث الترمذي في التفسير، باب: ومن سورة التوبة، حديث رقم (٣٠٩٥)، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي» (٥٦/٣).

من الكفر والكذب والفجور ما يمكن التعجب منها، وذلك في قوله مُعْجَبًا نبيه ﷺ: ﴿لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ۗ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]. يضلهم ضلالًا بعيدًا عن طريق الصواب الذي شرَّعها خالق الكون على لسان سيد الخلق، يضلهم ضلالًا بعيدًا، ليتبعوا تشريع إبليس ونظام الشيطان، الذي شرَّعه على السنة أوليائه الكفرة الفجرة - والعياذ بالله -.

فهذه الآيات وأمثالها تُعلمنا أن التشريع من خصائص الربوبية، وأن الأمر والنهي والتحليل والتحرير لا يكون إلا لمن له السلطة العليا التي هي فوق كل شيء، وهي سلطة خالق هذا الكون (جل وعلا)، فهذا الكون له مدبر هو الذي رفع هذه السموات ونصب هذه الأرض، ووضع هذه الجبال، وصبغها بألوان مختلفة، وفتح هذه العيون في أوجهكم، وصبغ بعض عيونكم بصبغ أسود، وبعضها بصبغ أبيض، وجعل لكم في أجوافكم الكبد والرئة والكليتين والطحال، ووضع كُلاً في موضعه، ووكله بوظيفته البدنية، ولو شُرح عضو واحد من أعضاء الإنسان لاطلع فيه من غرائب صنع الله وعجائبه على ما يبهر العقول، وهذا الذي فعل في كل واحد منكم فعله فيكم

وأنتم في بطون أمهاتكم، لم يحتج أن يبيِّن أمهاتكم، ولا أن يشق بطونها حتى يعمل هذه العمليات فيكم، بل عملها وبصره نافذ، وعلمه محيط ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾ [الزمر: ٦].

هذا الذي رفع السماوات، ودحا الأرضين والبحار، وخلق آدميين، وأودع فيهم من غرائب صنعه وعجائبه، هذا هو الرب، وهو المعبود، وهو المشرع، وهو الحاكم، فالحلال ما أحله، والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه، فمن تمرد على نظامه وجاء بنظام الشيطان وإبليس فهو من الذين قال الله فيهم: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٦﴾ أَصَلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [يس: ٦٣، ٦٤].

وقوله: ﴿مُفْصَلًا﴾ أي: موضحة مبيِّنة، آياته توضح فيها العقائد، والحلال والحرام، والأمثال، والمواعظ، والآداب، والمكارم؛ لأنه في غاية الإيضاح والتفصيل، والذي فصله هو الحكيم الخبير ﴿الرَّكَنُ أَحْكَمُ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾﴾ [هود: ١].

وقوله: ﴿مُفْصَلًا﴾ حال من ﴿الْكِتَابِ﴾. أي: أنزله إليكم في حال كونه مُفْصَلًا، أي: موضحة مبيِّنة فيه العقائد، مُبيِّنة فيه الحق من الباطل، والنافع من

الضار، والحسن من القبيح، بين الله فيه العقائد، والحلال والحرام، وما يقرب إلى الله، وما يوصل إلى جنته، وما يبعد من الله ويسخطه، ويوصل إلى ناره، وبين مصير الفريقين، وما أعد لأوليائه، وما أعد لأعدائه، كل هذا موضع مفصل في القرآن، وإن كان في القرآن بعض الآيات المتشابهات، فإنها ترد إلى المحكمات، ويُعرف إيضاها بردها إلى المحكمات.

كما قدمنا في سورة آل عمران في تفسير قوله: ﴿هِنَّ أُمَّ الْكِتَابِ﴾ [آل

عمران: ٧].

يعني: أن المحكمات هن أم الكتاب التي يُرد إليها ما أشكل من متشابهاته، وهذا معنى قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤]. التفصيل: ضد الإجمال، وهو الإيضاح والبيان.

وقول من قال: ﴿مُفَصَّلًا﴾. أي: بينه فترات وفصل؛ لأنه ينزل أنجماً مُنَجَّمًا، هو غير الصواب، والتحقيق: أن معنى قوله: ﴿مُفَصَّلًا﴾. أنه مُبَيَّن مُوَضَّح، بين الله فيه العقائد، والحلال والحرام، ومصير أهل الجنة، ومصير أهل النار، وكل شيء يحتاج إليه الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]؛ فالقرآن فيه تبيان كل شيء، ولكن

الناس كلاً منهم يأخذ منه بقدر ما أعطاه الله من الفهم، فهو بحر، وكل يغرف منه بحسب ما عنده» (١).

﴿الدروس المستفادة من هاتين الآيتين:﴾

- **الدرس الأول:** سميت هذه السورة بسورة (الأنعام) لتكرر ذكر بهيمة الأنعام فيها لاسيما في آخرها، وبهيمة الأنعام هي ما ذكره الله ﷻ في قوله تعالى: ﴿ثَمَنِيَّةَ أَرْوَجٍ ط مِنْ الصَّكَّانِ أُنثَيْنِ وَمِنْ الْمَعَزِ أُنثَيْنِ ط قُلْ ءَالذَّكَّرِينَ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثِيَيْنِ أَمَا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَيْنِ ط نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٢﴾ وَمِنْ الْإِبِلِ أُنثَيْنِ وَمِنْ الْبَقَرِ أُنثَيْنِ ط قُلْ ءَالذَّكَّرِينَ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثِيَيْنِ أَمَا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَيْنِ ط كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ط إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأنعام: ١٤٣، ١٤٤].

وكون السورة تسمى بهذا الأسم لا لأهمية ذوات هذه الأنعام، وإنما لعلاقتها بأصل من أصول العقيدة والتوحيد ألا وهو التحليل والتحريم والحكم والتشريع، حيث أنكر الله ﷻ وشنَّ على المشركين أن يضعوا

(١) «العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير»، تحقيق: د. خالد السبت (١٥٨-١٧٠) باختصار.

أنفسهم مشرعين ومحللين ومحرمين من دون الله ﷻ الذي له الحكم كله، ولا يشرك في حكمه أحداً؛ فالمشركون أضافوا إلى شركهم بالله ﷻ وعبادتهم الأصنام من دون الله تعالى: أن أشركوا بالله ﷻ في الحكم والتشريع، وجعلوا لأنفسهم حق التشريع والتحليل والتحريم، أو طاعة طاغوت منهم يشرع لهم، ويحلل ويحرم، قال تعالى عن هذا النوع من الشرك وأنه زيادة كفر على كفرهم: ﴿إِنَّمَا السَّبِيُّ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُكْرِمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِعُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

﴿٣٧﴾ [التوبة: ٣٧]. أي: أنهم إذا أرادوا أن يقاتلوا في الشهر الحرام قام طاغوت لهم، وقال قد نسأت شهر محرم إلى صفر بحيث يجوز لهم القتال في الشهر المحرم، ويصبح صفر محرماً بدلاً منه.

قال الله ﷻ عن شركهم في التحليل والتحريم: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أُنْعَمٌ وَسِحْرٌ حَجَرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرِزْقِهِمْ وَأَنْعَمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ

﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِّمَّةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ

﴿١٣٩﴾ [الأنعام: ١٣٨، ١٣٩].

- **الدرس الثاني:** وبناء على ما سبق يتبين لنا أن الحكم بما أنزل الله ﷻ ورفض ما يضاده من الأحكام والتشريعات ركن ركين من أركان التوحيد، وأن من وضع نفسه من الخلق نداً لله ﷻ في التشريع والتحليل والتحریم فقد أشرك بالله ﷻ في توحيد الربوبية، لأنه أشرك بالله في أفعاله التي منها الحكم والتشريع، ومن أطاع غير الله ﷻ ووافقه عن علم على استحلال ما حرم الله ﷻ في الحكم والتحاكم فإن ذلك شرك في الألوهية كالشرك به سبحانه في النسك والعبادة.

قال الله ﷻ في سورة الكهف: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].  
وقال في وسطها: ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وبهذا يتبين لنا كفر الأنظمة اليوم التي ترفض دساتيرها الحكم بما أنزل الله ﷻ زعمًا منهم أن الشريعة لا تفي بمتطلبات العصر، أو تضعه مصدرًا من مصادر التشريع، تزاومه بقوانين وتشريعات طاغوتية تستحل بها ما حرم الله، وتشرع ما لم يرضه الله ﷻ، وسواء كان هذا الطاغوت المشرع فردًا، أو نظامًا، أو برلمانًا، أو مجالس وطنية؛ فبما أنهم وضعوا أنفسهم مشرعين من دون الله ﷻ وأن ما يصدر عنهم بالإجماع أو الأغلبية له السيادة العليا وقوة النفاذ ولا سيادة فوقه ولو كان شرع الله ﷻ

فإن هذا هو الكفر المستبين، والشرك الأكبر الذي لا يقبل الله عِبَادَتَكَ من صاحبه صرفاً ولا عدلاً.

- **الدرس الثالث:** فرح المسلم واغتباطه بتوفيق الله عِبَادَتَكَ وهدايته له إلى هذا الدين القيم والشرع العظيم، الذي فصل الله عِبَادَتَكَ فيه كل ما يحتاجه الخلق من المصالح الدنيوية والأخروية، وفصل فيه كل المفاسد والشور التي تضر بالعباد في الدنيا والآخرة وحذر منها؛ فنحمد الله عِبَادَتَكَ على أن هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، ونسأله سبحانه الثبات على دينه حتى نلقاه.

قال الله عِبَادَتَكَ : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩].

وقال سبحانه: ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٥٨) [يونس: ٥٧، ٥٨].

- **الدرس الرابع:** ومع ما في هذا القرآن العظيم من الخير العظيم في الدنيا والآخرة، ومع علم بعض عباد الله عِبَادَتَكَ بهذا الخير والمصالح العظيمة كبعض أهل الكتاب من المستشرقين والباحثين في الأديان، ومع اعترافهم بأن دين الإسلام هو الدين الحق الذي أنزل الله عِبَادَتَكَ على نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،



إلا أنهم آثروا البقاء في الكفر على دخولهم في الإسلام.

قال الله عنهم في الآيات السابقة: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤]. وقال عنهم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وذلك لما في قلوبهم من الكبر والبغي والحسد والأمراض التي لا يعلمها إلا الله ﷻ؛ فنسأل الله ﷻ الذي هو مقلب القلوب أن يثبت قلوبنا على دينه، وأن يجعلنا مسلمين محبتين له.

ومثل أهل الكتاب هؤلاء أولئك المنافقون من بني جلدتنا من علمانيين وليبراليين، الذين يعلمون في قرارة أنفسهم أن دين الإسلام وتشريعاته هي الحق، ويهدي للتي هي أقوم، إلا أنهم آثروا بأهوائهم التنكر لها، واجترأوا على نصوص الشريعة بالاعتراض والنقد، ولم يرجوا الله وقارًا، وما علموا إنهم بذلك إنما يضررون أنفسهم، والله ﷻ غني عنهم وعن إيمانهم.

قال سبحانه: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يَسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ

بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّو اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ [آل عمران: ١٧٦، ١٧٧].

- الدرس الخامس: في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾، رد على أهل البدع من المعطلة والمؤولة الذين ينظرون إلى نصوص الكتاب والسنة؛ بأنها نصوص مجملة لا يراد منها ظاهرها وتحتاج إلى من يفصل معانيها الباطنة، حيث إن ظاهرها غير مراد.

وهنا يحسن إيراد ما ذكرته آنفاً نقلاً عن الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في تعليقه على الآية ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾.

حيث قال: «وقوله ﴿مُفَصَّلًا﴾: يبين أن الكتاب الحاكم مفصل مبين؛ ضد ما يصفه به من يزعم أن عقول الرجال تعارض بعض نصوصه، أو أن نصوصه خيَّلت أو أفهمت خلاف الحق لمصلحة المخاطب، أو أن لها معاني لا تفهم ولا يعلم المراد منها، أو أن لها تأويلات باطلة، خلاف ما دلت عليه ظواهرها؛ فهؤلاء كلهم ليس الكتاب عندهم مفصلاً، بل مجمل مؤول، ولا يعلم المراد منه، أو أن المراد منه خلاف ظاهره أو إفهام خلاف الحق»<sup>(١)</sup>.



(١) «مختصر الصواعق المرسله» (١/ ٢١٧).

## • الوقفة الأخيرة •

عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

وقد ذكرت هذه الآية في موضعين من السورة هما:

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ

نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ [الأنعام: ٨٣].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ

عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وأكتفي في هذه الوقفة عند هذه الآية برسالة قديمة من ضمن «رسائل

الوقفات التربوية في ضوء القرآن الكريم» بعنوان «إن ربك حكيم عليم»

فليرجع إليها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وأحيل القارئ إلى

رسالة قديمة كتبتها في الوقفات التربوية بعنوان: «وإذا قلتم فاعدلوا».





## • الخاتمة •

الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات، أحمدده سبحانه وأشكره على فضله وتوفيقه بإتمام هذه الدراسة المهمة التي أوقفنا على معرفة بعض السنن الإلهية، وبعض الوقفات التربوية والعقدية في سورة الأنعام، هذه السورة التي نزلت جملة واحدة في ليلة واحدة، مشيعة بسبعين ألف ملك مع جبريل عليه السلام.

فهذا جهد المقل من كاتبها الفقير إلى عفو ربه سبحانه فما كان فيها من حق وصواب فهو من الله عز وجل الموفق له والمانُّ به سبحانه، وما كان فيها من خطأ وباطل فمن نفسي والشيطان وأستغفر الله عز وجل من ذلك.

ويحسن في هذه الخاتمة إعطاء القارئ المستعجل نبذة سريعة عن أهم ما ورد في هذه الرسالة من مسائل وموضوعات حسب النقاط التالية:

- قسمت الكتاب إلى مقدمة وتمهيد وفصلين كبيرين.
- ذكرت في المقدمة والتمهيد أهمية تدبر القرآن والفرح به، وما فيه

من الرحمة والخير، وانضباط المواقف والموازن لمن تدبره، وجعله مرجعه ومفزعه في أموره كلها.

• ثم ذكرت الدوافع التي دفعت إلى تدبر سورة الأنعام، وما فيها من السنن الإلهية، والنصائح الربانية، والمواقف التربوية، وذكرت حينها بعض خصائص هذه السورة العظيمة التي تميزت بها، وكونها نزلت جملة واحدة على طولها، وأنها اشتملت على أصول العقيدة وأركان التوحيد، وأصول المحاجة مع المشركين، واشتملت على أصول السنن الإلهية، التي يدبر الله ﷻ بها ملكه وخلقه بكل دقة ونظام وشمول واطّراد.

• تحدثت في الفصل الأول عن السنن الإلهية في سورة الأنعام، وقدمت لذلك بمقدمة عن السنن وتعريفها وأنواعها وخصائصها وثمار المعرفة بها.

• ثم فصلت في ذكر أهم السنن الإلهية التي ظهرت لي في هذه السورة العظيمة الكريمة، وهي: «سنة الله ﷻ في العصاة والمكذبين - سنة الله ﷻ في المدافعة بين الحق والباطل - سنة الله ﷻ في الابتلاء -

سنة الله ﷻ في إملاء الكافرين واستدراجهم - سنة الله ﷻ في الهداية والإضلال».

- وفي بداية الحديث عن كل سنة أذكر الآيات الدالة عليها في سورة الأنعام، ثم أثنى بذكر ما في معناها في سور القرآن الأخرى، ثم أذكر أقوال المفسرين حول الآية، ثم أختتم الحديث عن كل سنة بذكر أهم الثمار التي يحصل عليها المسلم بتدبرها ومعرفتها.
- وفي الفصل الثاني: وقفت ست عشرة وقفة مع بعض الآيات في سورة الأنعام، وذكرت بعض أقوال المفسرين فيها، ثم ختمت الحديث عنها بذكر أهم الدروس العقديَّة والتربويَّة المستفادة من كل آية.

أسأل الله ﷻ أن ينفعني وإخواني المسلمين بما كتبت، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، والحمد لله رب العالمين.

يوم الأربعاء

في ١٨ / ١٠ / ١٤٣٨ هـ





## فهرس المجلد العشرون

٥	مقدمة وتمهيد.....
٧	خصائص سورة الأنعام.....
٤٣	الفصل الأول: ذكر بعض السنن الإلهية في سورة الأنعام.....
٤٣	تعريف السنن الإلهية.....
٤٦	أقسام السنن الإلهية.....
٤٦	سمات السنن الإلهية في المجتمعات.....
٥٤	من ثمرات العلم بالسنن الإلهية.....
٥٥	أهم السنن الإلهية في سورة الأنعام.....
٦٣	السنة الأولى: سنة الله ﷻ في العصاة والمكذبين.....
٦٣	الآيات الدالة على هذه السنة.....

- ٦٦ ..... المراحل التي تمر بها هذه السنة.
- ٨٤ ..... أنواع العقوبات التي ينزلها الله ﷻ على العصاة من عباده.
- ٩٤ ..... من ثمرات المعرفة بهذه السنة.
- ١٠٣ ..... السنة الثانية: سنة الله ﷻ في المدافعة بين الحق والباطل.
- ١٠٣ ..... الآيات الواردة في هذه السنة.
- ١٠٤ ..... أقوال المفسرين في بعض هذه الآيات.
- ١١٢ ..... من ثمرات العلم بهذه السنة.
- ١٣١ ..... السنة الثالثة: سنة الابتلاء والإيذاء للمؤمنين.
- ١٣١ ..... الآيات الواردة في هذه السنة وأقوال بعض المفسرين.
- ١٤١ ..... أنواع الأذى الذي يتعرض له المؤمنون.
- ١٥١ ..... أقسام الابتلاء الذي يبتي الله عز وجل به عباده المؤمنين.
- ١٥٣ ..... من ثمرات المعرفة بهذه السنة.

- أصول النصر وشروطه..... ١٦٤
- السنة الرابعة: سنة الإملاء والاستدراج للظالمين..... ١٧٣
- الآيات الواردة في هذه السنة وذكر بعض أقوال المفسرين..... ١٧٦
- من ثمرات هذه السنة..... ١٧٨
- السنة الخامسة: سنة الله عَزَّوَجَلَّ في الهداية والإضلال..... ١٨٥
- الآيات الواردة في ذلك وذكر بعض أقوال المفسرين..... ١٨٥
- من ثمرات العلم بهذه السنة..... ١٩٦
- الفصل الثاني: ذكر بعض الوقفات العقديَّة والتربويَّة المستفادة من  
بعض الآيات في سورة الأنعام..... ٢٠٣
- الوقفة الأولى: عند فاتحة السورة..... ٢٠٣
- الدروس المستفادة من هذه الآية..... ٢٠٦
- الوقفة الثانية: عند قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ بِرَبِّهِمْ﴾  
الآية..... ٢١١

الدروس المستفادة من هذه الآية..... ٢١٤

الوقفه الثالثة: عند قوله تعالى: ﴿الْمُيْرُواكُم أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ مَّكَّثْتَهُمْ

فِي الْأَرْضِ بِرَبِّهِمْ﴾ الآية..... ٢١٧

الدروس المستفادة من هذه الآية..... ٢١٧

الوقفه الرابعة: عند قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ

كُنِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ الآية..... ٢١٩

الدروس المستفادة من هذه الآية..... ٢٣٥

الوقفه الخامسة: عند قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ﴾ الآية..... ٢٦٣

الدروس المستفادة من هذه الآية..... ٢٦٧

الوقفه السادسة: عند قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا

يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ الآية..... ٢٧٩

الدروس المستفادة من هذه الآية..... ٢٨٥

الوقفه السابعة: عند قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ الآية .... ٣٠١

الدروس المستفادة من هذه الآية..... ٣٠٥

الوقفه الثامنة: عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ

بِمَبْعُوثِينَ﴾ الآيات..... ٣١١

الدروس المستفادة من هذه الآية..... ٣١٧

الوقفه التاسعة: عند قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا

أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ الآية..... ٣٢٥

الدروس المستفادة من هذه الآية..... ٣٣٠

الوقفه العاشرة: عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ

وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ الآية..... ٣٣٧

الدروس المستفادة من هذه الآية..... ٣٤٦

الوقفه الحادية عشرة: عند قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الأَيَاتِ

وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾..... ٣٤٩

الدروس المستفادة من هذه الآية..... ٣٥٨

الوقفه الثانية عشرة: عند قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي

وَكَذَّبْتُم بِهِ مَاعِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ الآية..... ٣٧٩

الدروس المستفادة من هذه الآية..... ٣٨٤

الوقفه الثالثة عشرة: عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءِ آيِنِنَا

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ الآيات..... ٣٩٣

الدروس المستفادة من هذه الآية..... ٤٠١

الوقفه الرابعة عشرة: عند قوله تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي

أَللَّهُ وَقَدْ هَدَانِي﴾ الآيات..... ٤٠٥

الدروس المستفادة من هذه الآية..... ٤١١

الوقفه الخامسة عشرة: عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن

دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الآية..... ٤٢١

الدروس المستفادة من هذه الآية..... ٤٢٥

- الوقفه السادسة عشرة: عند قوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ  
 الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾ الآية ..... ٤٤٧
- الدروس المستفادة من هذه الآية ..... ٤٦١
- الوقفه الأخيرة ..... ٤٦٧
- الخاتمة ..... ٤٦٩
- الفهرس ..... ٤٧٣